الفاشوش.. في حكم قراقوش

لابن ممَاتي

تأليف

د. عبد اللطيف حمَزة

الكتاب: الفاشوش.. في حكم قراقوش لابن ممَاتي

الكاتب: د. عبد اللطيف حمَزة

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣



http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

حمزة، عبد اللطيف

الفاشوش.. في حكم قراقوش لابن مماتي / د. عبد اللطيف حمزة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢١٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ١٠٠ – ٩٩١ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٠١١ / ٢٠٢٠

الفاشوش.. في حكم قراقوش لابن مماتي



مقدمة

في دار الكُتب المصرية كتاب لطيف عنوانه هكذا: «الفاشوش في حكم قراقوش» وهو كتاب صغير الحجم كبير الأثر، تحدث فيه مؤلفه عن رجل من رجالات التاريخ هو الأمير بهاء الدين قراقوش، عرفه المؤرخون بصورة، ورسمه أديب أريب بصورة أُخرى مُخالفة لها كل المخالفة، ومع ذلك بقيت الصورة الأخيرة في أذهان الناس، لأنها صورة بنيت على الفكاهة والسخرية.. والناس في كل زمان ومكان يميلون إلى المرح والمزاح، وتهفو نفوسهم إلى الضحك والتهكم.

والكتاب من وضع «ابن مماتي»، وهو أديب قبطي معروف في دولة صلاح الدين الأيوبي، سنعرض فيما بعد لشيء من سيرته.

وفي دور الكتب المختلفة في العالم نسخ متعددة من كتاب هذا الأديب القبطي المشهور. ولسنا نريد تمحيصها أو تحقيقها، أو عرضها عرضًا علميًا على نحو ما. ولكنا مكتفون هنا بإستخراج صورة واحدة لهذا الكتاب، هي خلاصة لجميع الصور التي له في تلك النسخ المتعددة.

ومتى فرغنا من عرض كتاب الفاشوش انتقلنا إلى الكلام عن شخصية الأمير بهاء الدين قراقوش كما عرفها التاريخ.. وسنعرف من ذلك أن الأمير كان من عظماء دولة السلطان صلاح الدين، بل كان من أولئك النفر القليلين الذين أعتمدت عليهم الدولة في بنائها، وفي بقائها منيعة في نظر أعدائها، مرهوبة الجانب منهم جميعًا.

فإذا انتهينا من الكلام عن قراقوش انتقلنا إلى الكلام عن مؤلف كتاب الفاشوش، وعن مكانته في الدولة الأيوبية، وعن بعض آثاره الأدبية، وعن الدوافع التي نرجح أنها دفعته إلى كتابة هذه الصفحة الساخرة من صفحات الأدب المصري في العصور الوسطى.. إلخ.

ولن نترك الكتاب حتى نتكلم في نهايته عن الطريقة التي سلكها ابن مماتي في السخرية من الشخصية التي هي موضوع كتابه، ونعني بها شخصية بهاء الدين قراقوش. وسيجرنا ذلك إلى الكلام عن السخرية في الأدب العربي، والأدب المصري، والأدب الأوروبي.

أجل، سنطوف بالقارئ في مجالات الفكاهة العربية، والدعابة المصرية والسخرية الأوروبية، ونقف معه عند كتاب وشعراء أشتهروا بالنكتة البارعة، والسخرية اللاذعة، وكان لكل واحد منهم طريقته في أدائها، ومذهبه في إبتداعها. وسترى أن ابن مماتي ينفرد دونهم بهذه الطريقة العجيبة التي تقوم على «التشنيع» أو خلق الأخبار العجيبة في موضوع من المواضيع، ثقة منه بأن هذا الأسلوب في الحكاية هو السبيل الوحيد لهدم الرجل الذي أراد التشفي منه في زمن لم يعرف الطباعة والصحافة، بل لم يعرف من وسائل النشر والتشهير غير القصيدة الهجائية والرسائل النثرية.

وسوف نتبع القول في هذا المجال بطرائف ومختارات عن السخرية وألوانها في الأدب الغربي القديم والحديث.

والعجب من ذلك الكاتب القبطي الأريب كيف نال من رجل كهذا الرجل العظيم، وكيف عبث بسيرته كل هذا العبث الخطير، حتى جعل الناس في مصر والشرق تشيع بينهم هذه العبارة: «حكم قراقوش» يرددونها على أنها حقيقة وقعت، ويضربونها مثلًا على الظلم والجبروت، أو على العته

والسفه والتخبط المعيب في إصدار الأحكام الجائرة، والأقضية الفاسدة، والأوامر الشاذة المضحكة ونحو ذلك.

الواقع الذي نعرفه من التاريخ الصحيح أن الأمير بهاء الدين قراقرش لم يظلم ولم يتجبر، ولم يصدر على الناس أحكامًا من هذا النوع، بل لم يصدر في عمل من أعماله عن عقل يُمكن أن يوصف بالخبل أو العته أو الجور أو التعسف، وأنه براء من تلك التهم التي كيلت له زورًا وبهتانًا، وزيد فيها على ممر الأيام كما تؤلف الحكايات في كل مكان حول (جحا) وحول غيره من الشخصيات الشعبية المعروفة.

فما هو السبب في هذه الأحدوثة السيئة التي أشتهرت عن قراقرش؟ وعلى من يقع الذنب في هذه الصورة المشوهة التي مسخت تاريخه الأبيض الجميل؟

سبب ذلك كله هو الأدب، والتبعة فيه تقع على الأدباء، وأبن مجاني من هؤلاء هو الذي شوه سمعته، ومسخ للناس صورته، فإذا هي صورة تثير في نفوسهم الضحك والإزدراء، وإذا هي تصلح لأن تكون مادة للسخرية من الحكام ومما يصدر عنهم من أعمال.

إلا ما أقدر الأدباء في كل زمان ومكان على أن يقلبوا الحق باطلًا، والباطل حقًا، والسخيف من الأعمال حسنًا، والحسن سخيفًا! وكم في تاريخ اشر من رجال علماء أهملهم الأدب، فذهبت آثارهم، ونسي الناس تاريخهم ومجدهم، ورجال ليسوا عظماء أبى الأدب إلا أن ينهض بهم، ويخلق منهم بالباطل أبطالًا يتغنى الناس بمجدهم، ويرددون ذكرهم، وإن لم يكونوا قط أهلًا لهذا المدح أو الإطراء!!

وربما لم تصدق هذه المقالة على رجل من رجالات التاريخ كما تصدق على الأمير بهاء الدين قراقوش. ولو علم الرجل ما قد خبأه له القدر من تلك الأباطيل التي قذفه بها رجل من رجالات الأدب كابن مماتيهذا، لما أدخر وسعا في تقريبه، ولما قصر في تملقه وإسترضائه، بالمال تارة، وبالمقال تارة، وبالمناصب العالية اذا أقتضى الأمر.

ولو فعل الرجل ذلك لأصبح له الكتاب والأدباء أبواقًا تذيع فضله، وتعلن على الملأ مجده، وتنج حوله الحكايات العظيمة، والقصص الرائعة، حتى يسلكه الناس في عداد الأبطال، ثم يأتي الخيال الشعبي نفسه بعد ذلك فيصعد بهذه البطولة إلى درجة التقديس، أو ما يشبه التقديس. وفي البشر إستعداد قديم لأن يرتفع بعضهم ببعض إلى مثل هذه الدرجة التي تدل في كثير من الأحايين على «كذب التاريخ»!

من أجل ذلك لا نكاد نعرف دعوة دينية أو سياسية أو إجتماعية أو إقتصادية قد أستغنت يومًا من الأدب أو الصحافة، أو أستطاعت أن تضرب صفحًا عن هذه الأدوات الفعالة في الترويج والإذاعة، حتى تحمل الناس جميعًا على تصديقها، والعمل لها، والأخذ بناصر أصحابها، لتبلغ النجاح المقصود من وراء تلك الجهود!!

غير أن قراقوش –كما ستعرف من سيرته أيضًا –كان جنديًا لا خبرة له بالأدب، ولا علم له بالأدباء ، ثم شاءت الأقدار أن تسلط عليه لسان هذا الأديب الذي كان يشغل منصبًا كبيرًا في الدولة الأيوبية.

ولأمر ما كتب هذا الأديب كتابه في ذاك الجندي الغيور، وجاء الكتاب سخرية مرة منه ومن طريقة حكمه، وأقبل الخاصة والعامة على قراءته حتى أستقرت في أذهانهم صورة لهذا الرجل مخالفة كل المخالفة لحقيقته، وصدق

عليه قول القائل: «لا كرامة لنبي في قومه وعشيرته».

وأنتقل كتاب الفاشوش من مصر إلى غيرها من أقطار الشرق، وأتخذ في كل قطر شكلًا يتفق وميول أهليه، وكانت النتيجة أن الناس في جميع تلك الأقطار نسوا تاريخ الأمير بهاء الدين قراقوش، وأصبحوا لا يذكرونه إلا مقرونًا بكتاب (الفاشوش).

أما الآن فأن الأمير العظيم بهاء الدين قراقوش يقف في ناحية، وأبن مماتي، وهو الأديب القبطي الأريب الذي كتب فيه هذا الكتاب، يقف في ناحية ثانية. ثم يأتي «التاريخ» فيقف بينهما ليحكم لأحدهما على صاحبه.

نعم سينظر التاريخ نظرة عادلة في هذه القضية الخطيرة، وسيجرى التاريخ في نظره إليها على طريقته السهلة المعروفة، وهي أنه يستعرض صفحة الأمير بهاء الدين قراقوش، ويتتبع أحواله وأعماله، وينفذ إلى أعماق نفسه ليتعرف على كل شيء من صفاته وأخلاقه..

ثم يستعرض حياة الكاتب الكبير، ويطلع على أحواله وأغراضه وصلاته بالناس في زمانه. وأخيرًا يصدر الحكم.

كتاب الفاشوش في حكم قراقوش

أول هذا الكتاب قول ابن مماتي:

«إنني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش، محزمة فاشوش[1] قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم. الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته، ويشتاط إشتياط الشيطان، ويحكم حكمًا ما أنزل الله به من سلطان.. صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين!».

ثم ساق الكاتب القبطي الأديب ما أراد سوقه من الحكايات الدالة على ذلك، ومنها ما يأتي:

الحكاية الأولى

كان قراقوش رجلًا صقلبيًا، يميل إلى البيض، ويكره السود. وأضطرته الظروف في يوم ما إلى الحكم بين إمرأة حجازية، وجارية لها تركية. وكانت هذه أول مرة يحكم فيها:

قالت الحجازية لقراقوش:

«إن هذه جاريتي قد أساءت الأدب علي».

---

(1) الفشوش الأحمق. وفشفش الرجل ضعف عقله وأفرط في الكذب والإدعاء.
ومحزمة على وزن منسكة ما يحزم به. والمعنى أن عقل قراقوش لا يحتوي على أكثر من الحمق والغباوة والعته والجنون.. إلخ.

فنظـر قراقـوش إلـى بيـاض الجاريـة التركيـة، وسـواد الحجازيـة، فقـال للحجازية:

«ويلك! خلق الله جارية تركية لجارية سوداء حجازية؟ ما أنا بأحمق أو مغفل! يا عثمان ودوا هذه الحجازية الحجرة!» فمكثت الحجازية شهرًا، وما لبثت أن عادت إليه تقول:

«إنني قد أعتقتها لوجه الله تعالى».

فقال لها قراقوش:

«يا سبحان الله! إنها هي التي تعتقك، فإنك جاريتها، وإن أرادت أن تبيعك فإنها تبيعك وإن أرادت عتقك فإنها تعتقك».

فقالت الحجازية للتركية:

«أعملي معي مثل ما عملت معك.».

فقالت التركية:

«وما تريدين مني؟».

فقالت الحجازية:

«أذهبي إلى قراقوش وقولي له إنك تعتقينني لوجه الله تعالى.».

فذهبت التركية إلى قراقوش وقالت له:

«قد عتقت سيدتي الحجازية لوجه الله تعالى.».

فقال قراقوش: «جزاك الله خيرًا».

وخرجت الحجازية من السجن.

الحكاية الثانية

جاء إلى قراقوش ثلاثة رجال: أحدهم أجرود وليس له لحية ولا شارب. والآخران كبيرا اللحيتين. وقد تعدى الأجرود على كل منهما ونتف ذقنه من جذورها. فذهب الرجلان إلى قراقوش وقالا له:

«يا مولانا بهاء الدين، خذ لنا حقنا من هذا الأجرود، فقد نتف ذقوننا وخرق ثيابنا.».

فنظر قراقوش الى الأجرود وقال لصاحبيه:

«ويلكم نتفتم ذقن هذا الصبي وجئتم تشكونه إلي. ودوهما إلى الحبس، ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الصبي»!

الحكاية الثالثة

قيل أن امرأة أتت بولدها إلى قراقوش فقالت:

«يا سيدي بهاء الدين إن ولدي يشتمني».

فأمر بحبسه سنة، فلم تذق أمه تلك الليلة طعم النوم. فلما أصبحت راحت إلى السجانين وقالت:

«ما الحيلة في خلاص ولدي من هذا الحبس؟»

فقالوا لها:

«هاتي حلاوتنا ونعرفك إيش (أي شيء) تقولين للأمير بهاء الدين قراقوش.»

فدفعت إليهم النقود، وقالوا لها:

«روحي الساعة إلى الأمير، وقولي له:

يا سيدي أنا إمرأة حبست لي ولدي سنة كاملة، وقد أنقضت السنة، فأخرج لي ولدي من الحبس».

فأتت المرأة إلى الأمير قراقوش، وقالت له ذلك فقال لها:

«روحي الآن، فلا جدال في أنه قد بقي له من السنة سبعة أيام سوى أمس وغد».

فمضت المرأة وأعلمت السجانين، فقالوا لها: «هذه نعمة، فإذا كان الغد فروحي إليه وقولي له: قد أنقضت سبعة الأيام!»

فأصبحت المرأة وجاءت إلى قراقوش. فلما نظر إليها قال: «يا مرأة حتى تغرب الشمس!

يا غلام: إذا غربت الشمس فأطلق لها ولدها من الحبس. ولا ترجعي تجيبيه، أو يحبسوه سنتين!».

الحكاية الرابعة

قيل أن قراقوش سابق رجلًا بفرس له، فسبقه الرجل بفرسه، فحلف قراقوش أنه لا يعلف فرسه ثلاثة أيام. فقال له السابق:

«يا مولاي أخشى أن يموت الفرس».

فقال له قراقوش:

«تحلف لي أنك إذا علفته يا هذا لا تعلمه أنني دريت بذلك».

فحلف له الرجل، وأعطى العلف للفرس».

الحكاية الخامسة

وقيـل أن غلامًـا لقراقـوش كـان يشـتغل عنـده (ركابـدار) أي صـاحب الركاب، وأن هذا الغلام قتل نفسًا. فقال: «أشنقوه!»

فقيل له: «إنه حدادك، وينعل لك الفرس، فإن شنقته خسرته ولم تجد غيـره». فنظـر قراقـوش ناحيـة بابـه، فوجـد رجـلًا قفاصًـا (أي صـانع أقفـاص)، فقال: وليس لنا بهذا القفاص حاجة!».

فلما أتوه به قال: «أشنقوا القفاص. وسيبوا الركابدار الحداد لكي ينعل لنا الفرس!».

الحكاية السادسة

وتوقـف النيـل بمصـر أيامًـا، فنظـر قراقـوش إلـى جمـال السـقايين، وهـي تمشي عشرين عشرين. ففكر طويلًا وقال: «لو أخذت كل هذه الجمال من البحر لنفد البحر أو كاد!» ثم صاح:

«يا غلمان: نادوا في المدينة. قد أمر بهاء الدين قراقوش لا يملي أحد من البحر إلا جملًا واحدًا.».

ففعلوا ذلك. ثم أوفي النيل، وبلغت زيادته حدًا عظيمًا. فقال لهم:

«يا هؤلاء! الويل لكم إن عدمتموني. فكيف رأيتم رأيي عليكم؟ ما هو إلا رأي مبارك!».

الحكاية السابعة

جاء رجل إلى قراقوش ومدحه بقصيدة وأنشدها بصوت طيب. فقال له قراقوش:

«يا مقرئ! لقد قرأت قراءة طيبة. وأنا أريد أن أطبع هذه القصيدة على ذراعي، فأنت مدحتنا، ونحن دعونا لك، فجزاك الله عنا خيرًا».

فقال الشاعر: «وأنت فلا جزاك الله عنا خيرًا».

فقال بهاء الدين قراقوش: «كأني أراك جائعًا. أعطوه مائة أردب قمح!» فأخذها الشاعر وانصرف!

الحكاية الثامنة

حكي أن قراقوش بات ليلة عند قاضي المطرية، فأخرج له خبزًا مجففًا يسمى (القراقيش)، وشيئًا من الزيتون. فقال له قراقوش:

«إن كان في غداة غد فتعال إلينا القاهرة».

فلما أصبح القاضي ركب مهرة له، وأتي إلى قراقوش يسلم عليه. فأبصر حصان قراقوش مهرة القاضي فشب، وغضب قراقوش وحصل له بذلك تشويش، وأمر أن يوضع القاضي في الحبس سنة كاملة. ثم بدا له أن يخرجه، فأخرجه، وجعله يعمل في المكان الذي يجمع فيه محصول السلطان من الغلال، وكان يسمى (الأهراء). فمكث القاضي سنة في أطيب عيش. ثم جاء إلى قراقوش، وقت الغلة وجمع المحصول، يسلم عليه. فقال له قراقوش:

«أعمل لنا حساب القمح والشعير والحمص».

فكتب القاضي كل ذلك في صحيفة واحدة وأتاه بها. فقال له قراقوش:

«ما هذا، خلطت القمح والشعير والفول والحمص في صحيفة واحدة! يا غلمان أحبسوه!».

فمكث القاضي في الحبس سنة. فدخل الحبس رجل نصراني، فتحدث هو والقاضي، فعلمه كيف يتخلص من الحبس، إذ أخذ النصراني الصحيفة من

القاضي، وكتب القمح وحده، ثم بعث إلى قراقوش، وبعد شهر كتب الشعير وحده في صحيفة أخرى وبعث به إلى الأمير، وبعد شهر كتب الفول وحده في صحيفة ثالثة، وبعد شهر كتب الحمص وحدة في صحيفة رابعة. فلما وصلت الصحائف كلها إلى قراقوش قال:

«لقد تعبت يا فقيه. فصلت هذا عن هذا، ونقيت ذلك عن ذاك! يا غلمان زفوه في المدينة».

فزفه الغلمان في المدينة. فحلف القاضي ألا يخدم قراقوش مُنذ ذلك اليوم.

الحكاية التاسعة

حكي أن قراقوش جاءه شاب مضروب، فبعث معه خمسة رجال من (الجاندرمة) أي الحراس المتتبعين للعصاة والمجرمين. فبلغ ذلك خصمه الذي ضربه، فسبقه ووقف بجانب قراقوش.

فلما أقبل الشاب قال الخصم:

«هذا الذي قتلني وضربني!»

فأقبل قراقوش على الشاب المظلوم وبطحه وضربه، إلى أن أشرف على الموت وهو يقول:

«أنا مظلوم! أنا مظلوم!»

فقال له قراقوش: «سبقك!»

فحلف الناس أنهم لا يقعدون ما دام قراقوش في البلاد حاكمًا.

الحكاية العاشرة

وأتى بعض الناس إلى قراقوش بمحضر فيه شهادة المسلمين بإثبات دار في خط قصر الشمع فنظر الأمير بهاء الدين قراقوش في هذا المحضر وقال:

«يا هؤلاء: أكملتم المحضر بخط رئيس اليهود؟» فقالوا: «لا». فقال: «كان لابد أن تفعلوا.. هذا كله زور وبهتان ومحال». ورمي المحضر من يده!

الحكاية الحادية عشرة

وحكي أن قراقوش جاءه شيخ وصبي أمرد، كل منهما يقول:

«يا مولاي – داري!»

وعند ذلك نظر قراقوش إلى الصبي وقال:

«معك كتاب يشهد لك؟» قال: «لا».

قال الأمير بهاء الدين:

«فالدار إذن للشيخ الكبير. يا صبي أدفع له داره، وإذا صرت في عمر هذا الشيخ الكبير دفع لك هذه الدار!».

الحكاية الثانية عشرة

وحكي عن بهاء الدين قراقوش أنهم أتوه يومًا ما بغلام وفي يده ديك. فقال:

«إن هذا الديك لو نقر عينك فكان يسعها. يا غلمان: خذو منه دية عينه!».

فحلف الغلام المسكين ألا يقعد في مدينة يكون قراقوش حاكمها بعد اليوم.

الحكاية الثالثة عشرة

وحكي عنه أنه أتاه رجل نصراني، فخاف أن يدخل بدواته الأبنوس السوداء، فيقول الأمير: «صبحتنا بالسواد»! فلف دواته في خرقة، فسالت الدواة على ساق النصراني. فقال له قراقوش «ويلك! ألأنك تغلط في دفاتر السلطان وتلحس الأغلاط وتمسحها صارت بدلتك سوداء..! يا غلمان: ودوه إلى الحبس حتى تبيض بدلته. ثم ننظر في أن نخلصه!».

الحكاية الرابعة عشرة

حكي عن فراقوش أنه نشر قميصه، فوقع القميص من على الحبل، فلما بلغه ذلك تصدق بألف درهم، وقال:

«لو كنت لابسًا هذا القميص وقت وقوعه لأنكسرت!».

الحكاية الخامسة عشرة

وحكي عن قراقوش أنه كان في كل سنة يتصدق بمال جزيل، فلما أنتهت الصدقة أشتكت إليه إمرأة أن زوجها مات ولا كفن له. فقال:

«أما الصدقة بتاع هذه السنة ففرغت. ولكن إذا جاءت السنة الآتية فتعالي نأمر لك بكفن إن شاء الله تعالى!».

الحكاية السادسة عشرة

وحكي أن جنديا نزل في مركب، وكان به فلاح وزوجته، وكانت الزوجة حاملًا، في سبعة أشهر، وضربها الجندي فسقطت. فذهب الفلاح إلى الأمير بهاء الدين قراقوش، وشكا إليه الجندي، فقال الأمير بهاء الدين للجندي:

«خذ زوجة الفلاح عندك، وأطعمها وأسقيها، حتى تصير في سبعة أشهر ثم أعدها إلى زوجها».

فقال الفلاح:

«يا مولانا – تركت أجري على الله».

وأخد زوجته وذهب.

الحكاية السابعة عشرة

حكي أن شخصًا شكا إلى الأمير بهاء الدين قراقوش مماطلة غريمه فذهب المدين إلى الأمير وقال له: «يا مولانا.. إني رجل فقير، وكلما حاولت أن أحصل له على شيء لم أجده، فإذا صرفت هذا الشيء جاءني الدائن وطالبني».

فقال قراقوش: «أحبسوا صاحب الحق حتى يصير المديون إذا حصل على شيء يجد لصاحب الحق موضعًا معلومًا يذهب إليه فيه ويدفع له الحق.»

فقال صاحب الحق: «تركت أجري على الله». ومضى!

الحكاية الثامنة عشرة

يُحكى أنه سرقت عملة في زمن قراقوش. فقال لصاحب العملة:

«الحارة بتاعتكم لها باب؟»

فقالوا له: «نعم».

فقال: «اذهبوا أيتوني به».

ففعلوا، وأحضروا إليه الباب!

فقال: «مدوه».

فقالوا: «يا مولانا – هذا خشب لا يعقل».

فقال لهم: «أفعلوا ما آمركم به».

فمدوه وضربوه. ونزل إليه قراقوش، ووضع أذنه بجانبه، وجعل يوشوشه. فلما فرغ قال لهم:

«أجمعوا لي باقى أهل الحارة والدرب»

فلما حضروا قال لهم:

«الباب يخبرني أن الذي سرق العملة على رأسه ريشة.»

وكان سارق العملة واقفًا بجملة الناس، فتوهم ورفع يده إلى رأسه، فرآه قراقوش، فأمر به، وقرره بالضرب، فأقر، وأحضر العملة، ودفعها إلى أصحابها.

الحكاية التاسعة عشرة

وحكي أن قراقوش كان له (باز) يعتز به ويعني بتربيته، فطار الباز يومًا من عنده، وبلغ ذلك الأمير قراقوش، فقال:

«أقفلوا باب النصر، وأقفلوا باب زويلة، حتى لا يجد الباز له موضعًا يطير منه فيعود إلي!».

الحكاية العشرون

وحكي أنه كان بمصر رجل تاجر، وكان بخيلًا، وكان ولده يقترض على موته قدرًا معلومًا، فزاد عليه الدين، ولم يمت والده، فأتفق مع الغرباء أن يدفنوا والده بالحياة. فدخل هو والدائنون عليه، وغسلوه، وكفنوه، ووضعوه في النعش، وهو يصيح فلا يغاث. وجاءوا حول تابوته وهم يذكرون ويصيحون، فلما وصلوا للصلاة عليه أتفق أن قراقوش كان مارًا، فنزل وصلى عليه. فلما سمع الميت بذلك قال:

«الحمد لله جاءني الفرج».

فجلس في التابوت، وقال:

«يا مولانا السلطان: خذ لي بحقي من ولدي هذا. فإنه يريد دفني بالحياة!».

فأتجه الأمير قراقوش إلى الولد وقال له:

«كيف تدفن والدك بالحياة!».

فقال الولد: «كذب عليك يا مولانا السلطان، ما غسلته إلا وهو ميت، ولا حملته على النعش إلا وهو ميت، وهؤلاء الحاضرون يشهدون بذلك». فقال للحاضرين:

«أتشهدون بذلك؟»

فقالوا: «نشهد بما يقول الولد!»

فألتفت قراقوش للميت وقال:

«أأنا مجنون، أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين! روح أندفن بلا شفاعة، لئلا تطمع فينا الموتى، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم!»

فحملوه ودفنوه بالحياة في ذمة قراقوش!

الحكاية الحادية والعشرون

يحكى أنه كان لقراقوش ولدًا أشترى لنفسه بغلًا بألف درهم، وعرضه على أبيه، فقال له أبوه: «هذا غالي الثمن.»

فرآه بعض المباشرين لبيع البغال والحمير، فعلم منه أن له غرضًا فيه. فدخل معه على أبيه وقال:

«يا أخي لأي شيء أمرتم برد هذا البغل؟»

فقال: «لأنه غال بألف درهم»

فقال: «يا مولانا – أشتريناه بتسعمائة وتسعة وتسعين»

فقال الأمير: «إن كان هكذا فما هو بغال»! وإذن لإبنه في البغل!

الحكاية الثانية والعشرون

وحكي أن جماعة من الفلاحين جاءوا إلى قراقوش، وشكوا إليه من خراج القطن، وقالوا له:

«يا مولانا السلطان، البردشوش على القطن هذه السنة، وأنت تفرج عنا وتسامحنا من بعض المال».

فكان من جوابه لهم بعد سكوت طويل:

«لأي شيء أسامح في بعض المال؟ لما رأيتم البرد أشتد، كان عليكم أن تزرعوا مع القطن صوف لأجل ما يدفيه!..

ولكنكم أستهنتم بالحكومة وبالزراعة، ولم تفتحوا أعينكم لخدمة أستاذكم..

أين المشاعلي يضرب أعناق الجميع؟!»

فلم يقدر أحد من جلسائه أن ينقم عليه ذلك!

الحكاية الثالثة والعشرون

دخل رجلان على قراقوش، وأدعى أحدهما على الآخر أنه عض أذنه، فسأله قراقوش عن ذلك فقال:

«أنه هو الذي عض أذن نفسه».

فقام السلطان، ودخل الحريم وجلس على كرسي، وأخذ يحاول أن يعض أذنه، فلم يفلح في ذلك ومال به الكرسي من كثرة إلتفاته ومحاولاته، فوقع على يده فإنكسرت، وخرج وهو بهذه الحالة، وأمر بضرب المدعي عليه، وقال:

«أنت الذي عضيت أذن الرجل هذا، وكسرت ذراعي زيادة على ذلك!»

***

تلك هي الحكايات التي أشتمل عليها كتاب «الفاشوش في حكم قراقوش» وقد أسقطنا طائفة منها، اشتملت على قدر من الفحش في اللفظ والإسفاف في المعني نستحي من ذكره.

قراقوش على حقيقته في التاريخ

-١-

قراقوش في بلاط الملك عماد الدين

في ليلة من الليالى جلس نفتى قراقوش – أو النسر الأسود[١] – يفكر في أمره، ويتطلع إلى مستقبله، ويرى أنه لا بقاء له بعد اليوم في هذه القرية التي يعيش بها من قرى آسيا الصغرى، وذلك بعد أن حيل بينه وبين الحرية، وأصبح مملوكًا لرجل من رجال هذه القرية لا يبتل له من ذات ماله ونفسه ووقته ما يقوم بتعليمه وتهذيبه كما يفعل السادة بمواليهم في العصر الذي يعيش فيه.

وماذا يفعل مولى خصى كهذا الفتى الرومي الذي لا حول له ولا قوة؟ وليس له مال يعتق به نفسه، ولا في إستطاعته – وهو صبي – أن يصنع لمولاه شيئًا يكافئه عليه بالعتق من تلك العبودية التي ضاق بها، وأصبح لا يتمنى على الدهر ألا أن يفارقها.

أن أمام هذا الفتى حلًا واحدًا فقط، هو الفرار بنفسه من تلك القرية من قرى آسيا الصغرى، والطواف بأرض الله الواسعة، فلعل المطاف أن ينتهي به إلى بلد يلتمس لنفسه فيه عملًا، أو يخدم سيدًا.

ونفذ الفتى عزمه على الهرب وأخذ ينتقل من بلد إلى بلد، حتى وصل إلى بلاد الشام وفيها ملك همام، كان من أعظم ملوك الإسلام، وأسمه «عماد

(١) قراقوش لفظ تركي مكون من (قره) بمعني أسود و(قوش) بمعنى طائر أو نسر.

الدين زنكي». وكان في خدمة هذا الملك بالشام قائدان عظيمان، هما في الواقع أخوان شقيقان.

أما أولهما فكان أسمه «أسد الدين شير كوه».

وأما الثاني فكان أسمه «نجم الدين أيوب»

ولهذين القائدين الكبيرين صلة كبرى بتاريخ مصر في العصور الوسطى. ولا تجد مصريًا يعرف تاريخ بلاده معرفة بسيطة ألا يحفظ أسميهما، ويدرك الدور الذي لعباه عني مسرح الحياة المصرية في العصور المتوسطة.

ذلك أن أولهما، أسد الدين شيركوه، هو الذي شارك في إزالة الدولة الفاطمية ومهد لقيام الدولة الأيوبية.

وثانيهما، نجم الدين أيوب هو والد صلاح الدين الأيوبي الذي تم على يديه قيام الدولة الأيوبية، وكان له شأنه المعروف وتاريخه المجيد في الحروب الصليبية.

وندع هذين الأخوين العظيمين وننظر في ذلك الفتى الرومي الذي دخل دمشق، وتوصل بذكائه إلى معرفة القائد العظيم أسد الدين شيركوه، فقدره القائد حق قدره، وتوسم فيه النجابة والشجاعة، فقربه من نفسه.. وقيل أنه أشتراه بماله الخاص، وطفق يدربه على أعمال الفروسية وينمي فبه المواهب الحربية. والفتى يظهر لمولاه كل يوم من جلائل الأفعال ما ينبىء بحسن مستقبله، ويبشر بعظم الأمور التي سنجرى فيما بعد على يده.

وفي دمشق تسمي ذلك الفتى الخصي بإسم (بهاء الدين بن عبد الله الأسدي). فإما تسميته بأبن عبد الله فكناية عن أنه لم يعرف له أب مسلم. وأما وصفه (بالأسدي) فنسبة إلى القائد أسد الدين الذي أشتراه بماله وقام

على تهذيبه وتعليمه، وكان سببًا في إعتناقه الإسلام.

ولقد أنس رجال الجيش في دمشق من هذة الفتى الرومي شهامة، ووجدوا في أخلاقه ميلًا إلى الشدة والصلابة، وقدرة على العمل والجد، وصبرًا لا نظير له على إحتمال المكاره. فأدنوه منهم، ومنحوه الرتب العسكرية التي شجعته على خدمتهم، وضربوا به المثل في الجلد والصبر والمثابرة. وما لبث بهاء الدين قراقوش أن أرتقى في سلم الجيش حتى وصل إلى مرتبة الإمارة – وكان على رأس هذا الجيش قائده البطل (أسد الدين شيركوه، وهو الذي دخل مصر في أواخر الدولة الفاطمية، وكان قصده تهدئة الأحوال بها، ثم أنتهى الأمر على يد صلاح الدين الأيوبي فيما بعد إلى إزالة هذه الدولة وإنهائها، وإقامة الدولة الأيوبية مكانها.

وعلى ذلك فالأمير بهاء الدين قراقوش كان ثالث ثلاثة أتوا إلى مصر لهذه الغاية الأخيرة. والأثنان الأولان هما أسد الدين شيركوه، وصلاح الدين الأيوبي.

وهكذا شهد الفتى الرومي إنهيار الدولة الفاطمية، وقيام الدولة الأيوبية، وكان دعامة قوية من الدعائم التي قامت عليها هذه الدولة الأخيرة.

إلا ما أعظم الموهبة حين تخص بها الأقدار رجلًا من الناس فترتفع به من أحط درجات الفقر والخمول إلى أكبر درجات الغنى وبعد الصيت.

غير أن الموهبة بحاجة إلى من يكشف عنها ويتعرفها، ويرسم لصاحبها طريق الإنتفاع بها. وإلى ذلك البطل الدمشقي (أسد الدين شيركوه) يرجع لفضل كل الفضل في الكشف عن مواهب هذا الفتى الخصي الذي فارق وطنه الأصلي في آسيا الصغرى، ووصل إلى وطن آخر من الأوطان العربية

وهو (دمشق).

وهكذا كان المسلمون يصنعون بمن في أيديهم من المماليك: ينسبونهم إليهم، ويعطفون عليهم، ويعنون بهم عناية تزيد أحيانًا على عنايتهم بأولادهم وذوي قرابتهم، ويخلقون منهم رجالًا عظماء ينفعون البلاد، ويكونون سببًا في عظمتها ورفعة شأنها، ويجلبون الخير كل الخير لمواليهم وسادتهم، فلا يسع هؤلاء الموالي أو السادة إلا أن يردوا إليهم حريتهم، ويعتقوهم لوجه الله والوطن والإنسانية.

تلك إذن هي المرحلة الأولى من مراحل الحياة التي كان يحياها الأمير بهاء الدين قراقوش. أو ذلك إذن هو الفصل الأول من فصول روايته. فلننظر فيما تلا ذلك من فصول.

-٢-

قراقوش يحرس القصر الفاطمي

أصبحت القاهرة في صباح يوم من الأيام وهي منزعجة أيما إنزعاج لعلمها بأن على الأبواب جيشًا كثيفًا من الأكراد والأعراب هو جيش أسد الدين شيركوه ومعه أبن أخيه صلاح الدين بن أيوب. وقد أتي هذا الجيش إلى مصر بحجة تهدئة الأحوال بها، ونجح الجيش في مهمته، رأى أسد الدين أن يعود إلى بلاده بعد أن فرغ من أداء هذه المهمة، فعاد إليها وترك في مصر أبن أخيه (صلاح الدين) ومعه عدد من الجنود يأتمرون بأمره، ويكونون رهن إشارته.

وفي مصر بقي صلاح الدين الأيوبي متصلًا بالقصر الفاطمي، ومراقبًا الأحوال السياسة مراقبة قوية. وأخيرًا رأى الخليفة الفاطمي أن يعهد بالوزارة

الفاطمية إلى صلاح الدين. ففرح هذا الشاب بها، ووصلت أخبار الوزارة إلى دمشق، ففرح أبوه وعمه كذلك، وكانا يومئذ في خدمة الملك الجديد «نور الدين محمود أبن عماد الدين زنكي» المعروف بالشهيد.

وفي عام ٥٦٤ للهجرة أضطرب رجال القصر الفاطمي بمصر، وعمهم الفزع والذعر، وسعى لهم من حذرهم عاقبة الوزارة الجديدة، وهي وزارة صلاح الدين، ووقفهم على نبات ذلك الرجل السني الخطير الذي أتى لإزالة الدولة الفاطمية، والرجوع بمصر إلى حظيرة الدولة العباسية، كما كانت قبل مجيء الفاطميين إليها.

وإنه لأمر خطير حقًا، أن تزول دولة وتقوم دولة، أو أن يسقط عرش، ويحل محله عرش.. ومن أجله دبرت المؤامرات في داخل القصر وخارجه، ومن أجله أخذت هذه المؤامرات تظهر واحدة فواحدة. وكانت أولاها مؤامرة دبرها خصي أسود أسمه «المؤتمن» أراد بها إسقاط صلاح الدين، والقضاء على الجند الذين تركهم عمه أسد الدين شيركوه عند رجوعه إلى دمشق. وقاربت هذه المؤامرة الكبيرة النجاح، وأوشكت أن تقضي على صلاح الدين وجنوده، لولا أن قدر الله لها أن تحبط على يد رجل من أكبر أعوان البطل صلاح الدين، هو وزيره الخطير المعروف في التاريخ باسم «القاضي الفاضل» وأسمه الحقيقي عبد الرحيم بن علي البيساني.

في تلك الآونة الدقيقة، والثورة الخفية الخطيرة، فكر «المؤتمن» في المال الذي ينفق منه على هذه المؤامرة، فلم يجد أمامه إلا ذخائر القصر الفاطمي. فليأخذ منها حاجته، وليدفع ثمنها أجرًا للجنود الذين يعينونه على بلوغ هذه الغاية.. وإنه ليفكر في ذلك ويحكم خطته، وإذا بصلاح الدين الأيوبي يقف على هذا التدبير من أوله إلى آخره. ثم لا يستغرق وقتًا طويلًا

حتى يهديه التفكير إلى خادمه الأمين بل صاحبه الغيور بهاء الدين قراقوش ليكون حارسًا للقصر الفاطمي في هذه الفترة الدقيقة حتى لا يصل من ذخائره شيء إلى بد (المؤتمن). وما أن عهد إلى الأمير بهاء الدين بهذه المهمة حتى قام بها خير قيام، وحرس القصر الفاطمي بعين لا تنام. وعبثًا حاول المتآمرون أن يحصلوا على المال اللازم لهم في الإنفاق على هذه المؤامرة فلم يفلحوا. وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على إحباط المؤامرة!

ثم مات الخليفة الفاطمي وكان صلاح الدين قد أنتهى من قطع أسمه من خطبة الجمعة، وذكر مكانه أسم الخليفة العباسي. فنزل الرعب في قلوب أهل القصر وتولاهم الخوف والذعر، وظهرت عليهم إمارات الوحشة والإنكسار والمذلة. وهنا دعا صلاح الدين صديقه بهاء الدين قراقوش وزوده بأوامر لمواجهة الحالة الجديدة. ومنها أن تزداد عنايته بالقصر، فلا يخرج منه شيء، ولا يدخله شيء إلا بإذنه، ومنها أن يضاعف الحيطة من أهل الخليفة الفاطمي وذوي قرابته جميعًا، وأن يخرجهم من القصر إلى مكان عينه له، ترسل إليهم فيه كسوتهم وطعامهم. فنقلهم بهاء الدين قراقوش إلى مكان يسمى (دار برجوان)، وهي دار واسعة كبيرة بالحارة المسماة بهذا الإسم من حارات القاهرة إلى اليوم.

كما أمر بهاء الدين قراقوش أن يعزل رجال القصر الفاطمي عن النساء حتي لا يتناسلوا أو يكثروا! فيساعد ذلك على أن يعيدوا الدولة الفاطمية. قال لها السلطان صلاح الدين:

«أما الجواري والعبيد فلك أيها الأمير أن تطلقهم، ولك أن توزعهم، ولك أن تطلق البيع فيمن بقي منهم بعد ذلك كله، حتى لا يزدحم بهم القصر الفاطمي».

وبهذه العبارة ختم السلطان صلاح الدين الأيوبي حديثه الذي ألقاه على مسامع الأمير بهاء الدين قراقوش. ثم تركه يعود إلى القصر ليتولى بنفسه تنفيذ هذا الأمر.

فعاد الأمير بهاء الدين إلى القصر. وفتح عينه يومئذ على دوز تجل عن الوصف. فمن ملابس وجواهر، إلى قلائد ودرر، إلى ياقوت وزمرد، إلى مصوغات ذهبية وأوان فضية، ومنسوجات مغربية وهندية، وصوان صينية، وأخرى منقوشة بالميناء، إلى قطع ثمينة من الخزف، إلى تماثيل عظيمة من البللور على هيئة الوحش والطير، إلى حلل وثياب، إلى ضب وطرائف، إلى عقود من الزبرجد والجوهر الذى لا نظير له في العالم وقتئذ، إلى تحف مصنوعة من خشب الصندل والعود والأبنوس، إلى بسط خيطت بالذهب والفضة، إلى ستائر وأغطية من من الديباج قد نسجت فيها الرسوم الفاخرة والصور الرائعة، إلى كؤوس من حجر غال يسمى (حجر اليصب) يقال أن من خواصه الوقاية من السم وكانت هذه الكؤوس تصنع للأمراء والملوك، لتوضع فيها الأشربة المختلفة، فيتغير لونها إن كان بها شيء من السم، ولا يتغير لونها أن خلت من ذلك. ذلك كله عدا الأسلحة والسروج والخيم والبنود إلخ...

وأما العرش الفاطمي نفسه، فكان مرصعًا بالدر والجوهر، وكانت عتباته مغطاة بالذهب الخالص:

لقد وضعت يا قراقوش يدك على كنوز ليس لها نظير في العالم كله، فأحرص على هذه النفائس كلها، وضاعف عنايتك بها، حتى تصير إلى صاحب الحق الشرعي فيها، وهو مولاك السلطان صلاح الدين!

أما خزانة الكتب – وقد ذهب المؤرخون أيضًا إلى أنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام أعظم منها – فقد كانت بالقصر مرتبة مفهرسة، فقيل يومًا لبهاء

الدين قراقوش «أن هذه الكتب قد عاث فيها العث، ولا بد من تهويتها وإخراجها من الرفوف إلى أرض الخزانة – وكان قراقوش جنديًا لا خبرة له بالكتب ولا علم له بالعلم أو الأدب – فأخرجها. ثم ظهر له فيما بعد أن هذا الطلب إنما كان حيلة مدبرة من جانب تجار الكتب، يريدون بها تفريقها، وخلط أنواعها. فتم لهم ذلك، وأختلطت كتب الأدب بكتب النجوم، وكتب الشرع بكتب المنطق، وكتب الطب بكتب الهندسة، والكتب المجهولة بالكتب المشهورة.

وكان في الخزانة مؤلفات ضخمة يشتمل كل مؤلف منها على خمسين أو ستين مجلدًا، إذا فقد منها جزء فلا يعوض بحال ما، ففرق الدلالون هذه الأجزاء تنتقل قيمة المؤلفات، وتباع بعد ذلك بأبخس الأثمان. هذا مع أنهم كانوا يعرفون موانع أجزائها، ويستطيعون جمع شملها بعد شرائها. وكان الأمير قد أستأذن مولاه السلطان صلاح الدين في بيع هذه الكتب الهائلة فأذن له السلطان في بيعها ولم يظهر حرصه عليها، لأنه زعم يومئذ أنها تشمل في أكثرها على عقائد الشيعة الفاسدة، وآرائهم الدينية المتطرفة. وهو إنما أتي إلى مصر لأغراض كثيرة من أهمها محاربة هذه العقائد والآراء، حتى لا يبقى في مصر من يميل إليها أو يأخذ نفسه بها، ويعود المصريون سيرتهم الأولى، وهي السيرة التي كانوا عليها قبل مجيء الفواطم إلى مصر.

فعمل الأمير بأمر مولاه السلطان في الكتب، وجعل لبيعها في القصر يومين من كل أسبوع. وأستمر البيع فيها وفي ذخائر القصر الفاطمي كله أكثر من عشر سنين.

وهكذا نجح الأمير بهاء الدين قراقوش في القيام بهذه المهمة الثانية، وهي حراسة القصر الفاطمي والمحافظة عليه كل المحافظة إلى أن أتيح له بيع

ذخائره ونفائسه. وكان أمينًا في بيعها، أمينًا في جمع المال الحاصل من ثمنها، حذرا كل الحذر من أن يغلبه أحد في شراء شيء من هذه النفائس الكثيرة والذخائر العديدة، لا تكاد تستثنى من ذلك إلا شيئًا واحدًا فقط – هو الكتب – وقدرات كيف خدعه الدلالون وباعة الورق، وكيف حصلوا لأنفسهم عليها بثمن بخس.. وللأمير بهاء الدين قراقوش، وهو حارس القصر في ذلك الوقت، عذران واضحان في موقفه من خزانة الكتب أولهما جهله بقيمتها الأدبية أو العلمية. وثانيهما خوف صلاح الدين من تلك المكتبة، التي أساء الظن بها، وحرص على تفريقها وتشتيتها حرصًا جعله ينظر إلى المال الحاصل من ثمنها على أنه خير ألف مرة من جميع ما أشتملت عليه من الكفر أو الزيغ.

وبعد – فإن القارئ بعجز عن تقدير المبالغ التي توفرت الأمير بهاء الدين من ثمن هذه النفائس والذخائر والكتب التي أشتمل عليها القصر الفاطمي. وأهم من هذا كله أن التاريخ كتب لبهاء الدين في هذه المرحلة من مراحل حياته صفحة الصدق والأمانة، والحذر والإستقامة، والقيام بالواجب الصحيح نحو هذه الدولة التي أشترك في بنائها، وكان له نصيب في صيانتها من كيد أعدائها، حتى قام صرحها، وعلا شأنها، وأظفر الله قائدها ومؤسسها الأول صلاح الدين، ومكن له في الأرض التي ذكرها في كتابه الكريم.

-3-

قراقوش والمنشآت الحربية

قد تخرج يومًا ما إلى خارج القاهرة فترى عند بعض أجزاء «المقطم» بقايا قلعة قديمة. وتسأل بعض العارفين عن هذه القلعة فيقال لك «إنها قلعة الجبل»، وتسير في الطريق حتى تلقاك آثار أخرى تدل على قلاع أخرى

كذلك، وتسأل عنها بعضى العارفين فيقال لك أنها «قلعة المقدس».

وترجع إلى كتب التاريخ فترى أن السلطان صلاح الدين، وقد أختلط في أثناء الحروب الصليبية بالفرنج المقيمين بالشرق وعرف كيف يبنون القلاع والحصون، ووازن بينها وبين حصون الفاطميين، ظهر له أن حصون الفرنج أمنع من حصون المصريين، ففكر يومئذ في بناء قلاع كبيرة تحيط بمدينة القاهرة حتى لا تصبح عرضة لهجمات الصليبيين. ومن لهذه المشروعات الضخمة والأعمال المضنية غير الأمير بهاء الدين قراقوش، يبذل فيها جهده، ويأتي فيها بآخر ما عنده، وتعينه على البذل طبيعة له عرفت بالصبر وبالجد، وعزيمة يوشك ألا يكون لقوتها حد، ومواهب هندسية سرعان ما كشف عنها صلاح الدين، وأفاد منها في حروبه فائدة ليس إلى أنكارها من سبيل.

ولعل أول عمل قام به الأمير من هذا القبيل هو إنشاء «قلعة الجبل»، بناها على قطعة مرتفعة من جبل المقطم، تشرف على القاهرة كلها، وتصلح بذلك لأن تكون وكرًا للقائد العظيم أو النسر الكبير صلاح الدين، يقيم فيها بعض أيامه، ويدير منها حركة الحرب التي تدور رحاها بين المسلمين والصليبيين في تلك الفترة من تاريخ الشرق الإسلامي.

وهذه القلعة التي بناها بهاء الدين قراقوش هي التي سكنها بعد صلاح الدين أبنه الملك العزيز، ثم أقام بها الملك الكامل من ملوك بني أيوب، ثم أتخذها هذا الملك مقرًا للحكومة «الأيوبية» ثم جاء محمد علي الكبير فجعلها مقرًا لدواوين الحكومة، ثم لم يكن إلا في عهد إسماعيل أن أنتقلت دواوين الحكومة إلى دور أخري وسط مدينة القاهرة.

غير أن الأمير بهاء الدين قراقوش ما كاد يفرغ من بناء «قلعة الجبل» حتى أمره صلاح الدين أن يبدأ العمل في بناء قلعة أخرى يقال لها «قلعة

المقس»، وهي عبارة عن برج كبير بناه الأمير على النيل، وبني بالقرب منه أبراجًا أخرى على النمط الفرنجي لا النمط البيزنطي. وسبب ذلك – فيما قلنا – أن صلاح الدين أصبح يؤمن بفائدة النمط الذي وجده في حصون الفرنج المقيمين بالشام. وكان المسلمون إلى ما قبل عهد صلاح الدين يتبعون في بناء الحصون النظام البيزنطي، ولم يتعرفوا بعد على النمط الفرنجي.

ثم ما كاد الأمير بهاء الدين قراقوش يستريح من بناء هذه الأبراج والحصون حتى أمره صلاح الدين بإقامة سور عظيم على حافة الصحراء الغربية.. فبدأ الأمير يشغل نفسه بهذا العمل الكبير، وأخذ يقطع له الأحجار من الأهرام الصغيرة المبعثرة في الصحراء، وبناه تجاه الجيزة على مسافة بعيدة عنها.

وإلى هنا حسب الأمير بهاء الدين أنه فرغ من إتمام ذلك المشروع العظيم، وآن له أن يستريح و يريح الآلاف المؤلفة من الأسرى ومن الشعب المصري الذين أنجزوه على الوجه الأكمل في عامين كاملين لم يعرفوا في أثنائهما الراحة، ولا ذاقوا فيهما طعمًا للسكون، وذلك هو العبء الذي وقع على كاهل الأمير بهاء الدين من الحرب، والنصيب الذي ناله منها.. بدأ العمل في الأسوار سنة ٥٦٧ وأنتهى منها سنة ٥٦٩ للهجرة، وأرضى بذلك السلطان صلاح الدين الذي أثنى على همته ثناء عظيمًا.

حسب الأمير بهاء الدين قراقوش أنه فرغ من عمله، وآن له أن يستريح منه إلى الأبد.. ولكن أنى له ذلك والسلطان صلاح الدين يظهر له كل يوم عمل جديد، ويشعر بالحاجة الماسة إلى مزيد من الحيطة الحربية ضد أعدائه من الفرنجة.

وما هي إلا برهة قصيرة حتى وجد الأمير بهاء الدين نفسه بين يدي السلطان صلاح الدين، وهو يأمره في هذه المرة بعمل آخر له من الأهمية الحربية ما يربو في نظره على الأعمال السابقة كلها. هذا العمل الجديد الذي صدر به أمر صلاح الدين هو أن يقوم بهاء الدين قراقوش ببناء سور عظيم يحيط بالفسطاط والقاهرة معًا ويصل بين جميع تلك القلاع التي بناها الأمير خارجهما:

فأعمل أيها الأمير بهاء الدين في هذا السور الكبير، وقد له من الأهرام والمقطم ما شئت من الحجارة والصخور، وأحشد للبناء من شئت من أسرى الفرنج في الحروب، ومن شئت من أبناء الشعب المصري الصبور.. ولم يسع الأمير بهاء الدين قراقوش إلا أن يقبل على بناء السور، ثم بني في السور جامعًا، وحفر في قلعة الجبل بئرًا..

قالوا: وكانت هذه البئر من عجائب الأبنية، يدور البقر من أعلاها، وينقل الماء من وسطها، وتدور أبقار أخرى في وسطها، فينقل الماء من أسفلها، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء. وقيل أن أرض هذه البئر مسامته لأرض بركة الفيل، وأن ماءها كان عذبًا في أول الأمر. ثم أراد قراقوش الزيادة في مائها، فوسعها فخرجت منها عين مالحة غيرت حلاوتها..

وقد كان هذا السور الذي بناه قراقوش ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلى عهده. أما الأول فكان قد بناه القائد الرومي جوهر الصقلي. وأما الثاني فكان قد بناه الوزير لأمير الجيوش بدر الجمالي الفاطمي. وكان هذان السوران الأولان فقد بنيا من اللبن، أما الثالث فقد بناه الأمير قراقوش من الحجارة، ووقف به عند قلعه المقس فلم يستطع أن يصلها بمصر..

بذلك أصبحت لقراقوش خبرة بمثل هذه الأعمال الحربية العظيمة. وكان السلطان صلاح الدين كلما أحتاج إلى عمارة قلعة أو تجديد حصن، أو تقوية جسر، أو إقامة سور، أو بناء برج، عهد إليه في هذا العمل، فقام به على خير طريقة. ولعل آخر ما قام به الأمير قراقوش من ذلك عمارته لسور عكا، وذلك في أثناء المحنة التي مرت بالمسلمين، وهي المحنة التي نريد أن نستعرضها بالقدر الذي يتصل بشخص هذا الأمير.

وتلك هي المرحلة الثالثة من مراحل الحياة التي كان يحياها بهاء الدين، أو الفصل الثالث من فصول الرواية التي كان فيها بطلًا على مسرح الحياة المصرية في العصر الوسيط.

-٤-

قراقوش في حصار عكا

عكا – ذلك الحصن الذي أبتلى الله به المسلمين وغير المسلمين في عصور شتى. به بضرب المثل في المنعة، وبه يضرب المثل في الكروب والشدة. ولا يوجد محارب في الأرض بلغ هذا الحصن إلا ذاق منه ما لم يذق في حياته قط. ومنذ حصل عليه الصليبيون في العصور الوسطى، وهم ممسكون برقبة الشرق، قابضون على زمام الأمر.... وظلوا على هذه الحال من القوة والعظمة، حتى أتى البطل صلاح الدين الأيوبي فكسرهم كسرة هائلة في واقعة مشهورة من وقائع التاريخ، لا يمكن قط أن تنسى، هي واقعة حطين. وبها أستولى البطل صلاح الدين على بيت المقدس. ثم بدا له بعد ذلك أن يستولي على بقية الحصون والقلاع التي بيد الفرنجة. فسقطت كلها في يده، ومن بينها حصن (عكا).

لقد سقطت عكا في يد المسلمين، فماذا بقي من الحصون التي للفرنج المقيمين بالشرق الأدني لقد آن لهم إذن أن يرحلوا من هذا الشرق إلى غير رجعة.

وكان سور عكا في الحقيقة قد تهدم من شدة القتال، وطوله، فرأى السلطان أن يترك المدينة والجيش للأمير قراقوش ويذهب لإمتلاك الحصون الأخرى. فبقى الأمير في هذه المدينة، وبقيت معه حامية صغيرة، وعكف على إقامة ما تهدم من السور، وصبر على ذلك صبرًا عظيمًا. ثم حدث بعد ذلك ما لم يكن في الحسبان، حدث أن الفرنج المقيمين بالشرق أستصرخوا إخوانهم في أوروبا. فجمع الأوروبيون جموعهم، وأتوا بإمدادهم وأموالهم ورجالهم وفرسانهم، وتجهزوا لتلك الحملة الصليبية التي أتت إلى الشرق بقيادة ملوك الغرب وفيهم ريشار الأول (قلب الأسد) ملك إنجلترة.

ووصلت الحملة إلى عكا. وأصطف الملوك والأمراء والجند قلبًا وميمنة وميسرة.. ووقف في القلب ريشارد (قلب الأسد) وبين يديه الإنجيل محمولًا ومكسوًا بثوب من الأطلس، ويمسك الثوب من أطرافه أربعة من الجند.. فأصبح لهذا الجيش المؤلف من جميع الدول الأوروبية في عكا، وفي هذه الموقعة، منظر يبعث على الرهبة.

وبدأت الموقعة، وهجم الصليبيون بجموعهم هجمة رجل واحد على جيش صلاح الدين، فهزموه ودخلوا عكا، وقتلوا منها ثلاثة آلاف من المسلمين. ثم ضربوا حصارًا على عكا، ودام الحصار عامين كاملين ذاق فيهما الأمير والمسلمون معه الأمرين.. بل ذاقوا هنالك أقسى ما عرفته المحنة الصليبية من ألم، وتحملوا فيها أشق ما مر بها من جهد وضيق ونصب..

أجل! تحمل المسلمون في عكا من آلام الصبر على الحصار ما أحبوا معه الموت الذي ينقذهم، والهلاك الذي يعجل بهم إلى العالم الآخر!!

ومما زاد الطين بلة أن الوباء تفشى في المسلمين المحصورين، وأن الجوع أهلكهم، وأن الصليبين أصروا على أن يمنعوا وصول الأقوات إليهم.

وبلغت أخبار الحصار مسامع السلطان صلاح الدين، فأشتد به الحزن والأسى، وفقد أعصابه من وقع هذا الأذى، وأستبد به الإشفاق على المسلمين المحاصرين، وملأ اليأس جوانب هذا القلب العظيم، فشوهد في هذه الحال الثائرة وهو يصرخ قائلًا:

أقتلوني ومالكا وأقتلوا مالكا معي

كل ذلك والأمير بهاء الدين قراقوش يصبر ويتجلد، ويمشي في وسط الجند، داعيًا إياهم إلى الصبر والتجلد، وكلما فكر جنده في التسليم للعدو مناهم وأملهم، وقواهم وشد عزائمهم، وما زال بهم حتى رجعوا عما عزموا عليه، وعاهدوا الأمير على أن يصبروا معه حتى الموت.

وهكذا شاءت الأقدار أن تخذل هذا الأمير الصابر على محنته، المدافع عن شرفه وعقيدته. وما أن أتى المدد إلى الفرنج عبر البحر حتى هزموا المسلمين اللائذين بهذا الحصن المنيع، ودخلوا، وأنهالوا كما قلنا على أهلها نهبًا وذبحًا وأسرًا..!

وكان الأمير قراقوش ممن أسروا يومئذ. وبقي هذا الرجل في الأسر حتى أفرج عنه يوم عقد الصلح.

وكان يوم الإفراج عنه يوم سرور عظيم وهناءة فائقة، فقد فرح به السلطان صلاح الدين، لما كان له من يد على الإسلام كله.

ومنذ يومئذ والأمير بهاء الدين إلى جانب السلطان صلاح الدين لم يفارقه لحظة واحدة حتى فارق السلطان هذه الدنيا.

إنما تعرف الرجال في الشدائد، ولا يبين الذهب الأبريز إلا بعد دخوله النار وصهره فيها. وكذلك كشفت هذه المحنة القاسية في عكا عن جوانب في خلق الأمير بهاء الدين كانت خليقة بإعجاب المسلمين وإعجاب سلطانهم صلاح الدين. فأصبح الجميع يلهجون بذكره، ويثنون الثناء كله على خلقه وإيمانه وصبره، ويردون إليه السبب في أن المسلمين المحاصرين بعكا لم يكتبوا على أنفسهم صفحة العار بتسليمهم للعدو بعد ما رأوا هذا الجوع والمرض والعرى.

وفي نظر التاريخ أن هذه الصفحة الرابعة أو الفصل الرابع من رواية البطل بهاء الدين قراقوش يعتبر أروع الفصول كلها، وأن هذين العامين اللذين قضاهما محصورًا في عكا هما أشد أعوام حياته من أولها إلى آخرها.

-٥-

قراقوش يحمي عرش العزيز

لقد كشف الأمير بهاء الدين قراقوش في الفصل المتقدم من روايته عن إخلاصه للإسلام والمسلمين، وصبره وعظم إحتماله في سبيل حمايتهم من الصليبيين. وهو في هذا الفصل الخامس من روايته يكشف لنا عن إخلاصه للعرش الأيوبي، ويبين عن طبيعته التي تكره الخيانة في أي صورة من صورها، ووضع من أوضاعها.

مات صلاح الدين، وأنقسم الملك على أولاده من بعده: فكانت مصر من نصيب أبنه (العزيز)، وكانت دمشق وما حولها من نصيب أبنه (الأفضل)،

وكانت حلب وما حولها من نصيب أبنه (الظاهر)، وما بقي من ملك صلاح الدين أصبح في جملته من نصيب أخيه الملك (العادل).

ومنذ توزعت هذه الدولة الصلاحية الكبيرة على هذا الوجه، والفرقة تدب بين ملوكها، والشقاق يتفشى بين أمرائها. ولولا خطر الحروب الصليبية الذي كان يتهدد الجميع على السواء. لما عرف هؤلاء الملوك أنهم أبناء سلطان واحد، ولما خطر لهم أن يجمعوا في صعيد واحد، ولما أتحدوا يومًا ما لمحاربة عدو واحد.

أما (العزيز) فكان ملكًا فاضلًا فيه ذكاء ونخوة. وكان له جيش عظيم يتألف من فيلقين عظيمين أو فرقتين كبيرتين، هما فرقة الصلاحية (مماليك أبيه صلاح الدين)، وفرقة الأسدية (مماليك جده أسد الدين شيركوه). وكان بين الفرقتين خلاف شديد، وخصام لا ينقطع. وكان العزيز متهمًا بإيثار الصلاحية على الأسدية.

وأما (الأفضل) فكان ملكًا طيب القلب، ولكن به غفلة، لا تليق بالملوك. وكان من سوء حظه أن وجد إلى جانبه وزير نكد الطالع، سيء التدبير، برغم ما أشتهر به مع ذلك من سعة العلم والأدب، وأسم ذلك الوزير الأديب (ضياء الدين بن الأثير الجزري) أبغضه الناس جميعًا لحماقته وسوء رأبه حتى قال فيه شاعرهم:

متى أرى وزيركم ... وما له من وزر

يقلعه الله فذا ... أوان قلع الجزر

ولكلمة (الجزر) هنا معنيان الجزر وهو النبات المعروف، والجزري وهو الوزير أبن الأثير. والمعنى الأخير هو المقصود!

وأما (العادل) فهو عم أولئك الأخوة. وكان ينبغي أن يقوم مقام صلاح الدين، وألا يدخل بين الأخوة إلا كما يدخل النسيم بين الأغصان يعطف بعضها على بعض، أو كما يدخل المرود بين الأجفان يرد إليها ما تفقده من النور والعافية. ولكن الملك العادل كان لسوء الحظ على غير ذلك:

كان ملكًا عظيم الدهاء بطبعه، كثير الطمع بطموحه، ثم زاده إختلاطه ملك الإنجليز ريشارد (قلب الأسد) في أثناء المفاوضات، الصليبية مكرًا على مكر، وشرًا على شر. فأعمل هذا المكر كله فيما يعود على أبناء أخيه بالخلاف والتفرقة. وأستطاع بدهائه أن يوسع الهوة بين الملك العزيز صاحب مصر والملك الأفضل صاحب دمشق.

وزاد الطين بلة في ذلك الظرف وجود رجل خبيث إلى جانب (الأفضل)، وهو وزيره المعروف بأبن الأثير الجزري. فقد أساء هذا الوزير معاملة الأمراء في بلاط الملك الأفضل، حتى أضطروا الى الفرار من دمشق إلى مصر، فرحب العزيز بهم، وعول في أموره عليهم. ولم يكتف الوزير الجزري بذلك، بل حمل (الأفضل) على مقاطعة أخويه، وزين له الدخول في حرب ضد أخيه العزيز. وبلغ ذلك الملك العادل فلم يكن منه هو الأخر إلا أن صب الزيت على هذه النار المتأججة بين الملكين الأخوين. ولم يقر له قرار حتى حمل العزيز على الذهاب بجيشه إلى دمشق، حيث أخوه الملك الأفضل. ولكن الملك العزيز لم يترك مصر يومئذ إلا بعد أن أناب عنه الأمير بهاء الدين قراقوش في حكم الديار المصرية.

ولم تكن هذه هي أول مرة ناب فيها الأمير بهاء الدين قراقوش عن السلطان في حكم البلاد، فقد سبق له أن قام بهذه المهمة في حياة صلاح الدين نفسه.

ومعنى ذلك أنه كان أهلًا لهذه الثقة، ومستحقًا لهذه المنزلة. فلم يكن غريبًا أن يثق به العزيز كما وثق به من قبل أبوه السلطان صلاح الدين، وأن يترك له مصر أحوج ما تكون إلى وجوده فيها بنفسه.

نعم – لقد كانت الظروف التي غادر فيها (العزيز) مصر من السوء بحيث كان لا ينبغي له مطلقًا أن يفكر في البعد عنها والإنصراف إلى غيرها، وإلا ساءت العاقبة.

ذلك ان الناظر في الأحوال الداخلية بمصر في ذلك الوقت، إذا دقق النظر بعض التدقيق، رأى نارًا تحت رماد ملتهب، ورأى جيش العزيز على أبواب ثورة تحتبس في نفوس الجنود ختى يحين الظرف الذي تنفجر فيه إنفجارًا هائلًا.. ألم نقل أن جيش العزيز كان مؤلفًا وقتئذ من فيلقين كبيرين أو فرقتين عظيمتين هما فرقة الصلاحية وفرقة الأسدية، وأن (العزيز) كان متهمًا بتحيزه للفرقة الأولى؟

ألم نقل كذلك أن الملك (العادل) أو ثعلب الملوك الأيوبية، كان يقف لأبناء أخيه بالمرصاد، وكان يتربص بهم الدوائر، وكان يريد أن يتحين كل فرصة للإيقاع بينهم، وكان يغري بعضهم ببعض، ويذم بعضهم عند بعض، حتى أوغر جميع الصدور، وأيقظ الأحقاد النائمة في القلوب، ولم يترك أبناء أخيه إلا وكل واحد منهم على أهبة الإستعداد لمحاربة أخيه، حريص على أن يهزمه كما يحرص على هزيمة الفرنج أو أشد من ذلك حرصًا؟

فكر الثعلب الماكر، ونعني به الملك (العادل) في طريقه يزعج بها (العزيز) فأخذ يخوفه من (الأسدية) وطفق في الوقت نفسه يكاتب هؤلاء الأسدية في مصر، وكان زعيمهم إذ ذاك رجلًا يقال له (أبو الهيجاء السمين) وكان هذا الخبيث واليًا على بيت المقدس من قبل العزيز، ثم عزله العزيز وولي

مكانه غيره، فأسرها (أبو الهيجاء) في نفسه، ونوى الغدر يصاحبه!

ووصلت كتب الملك العادل إلى الأسدية، وبيت الجميع سوء النية وكان بعضهم بالقدس، وبعضهم الآخر بمصر، فكتب الأسد الذين في خارج القاهرة إلى إخوانهم بداخلها، وأتفقوا جميعًا على يحولوا بين العزيز ودخول مصر، وذلك عند عودته إليها من حر أحيه الملك الأفضل، ويومئذ يصبح العزيز نفسه بين نارين أو يختار لنفسه واحدة من ثلاث:

فأما التسليم للأسدية في مصر، وأما التسليم للأفضل في دمشق، وأما أن يستجير بعمه الملك العادل، وهو رأس هذه المؤامرة!

كل ذلك والعزيز مقيم في عسكره قرب دمشق، يرتب الجند، ويشرف على نظام الجيش، ومعه زعيم الأسدية الذي مر ذكره، أبو الهيجاء السمين، يظهر الخضوع لسيده من ناحية، ويتلقى كتب المؤامرة التي ترد إليه من ناحية ثانية. ووثق هذا الزعيم بنجاح المؤامرة، وأيقن بإحكام خطتها. وفجأة – وعلى غير إنتظار، شوهد أبو الهيجاء السمين منسحبًا من الميدان، وخلفه عدد كبير من الجند، وقد أستكملوا عدتهم، وأستعدوا لفتنتهم. وكانوا يؤلفون الجزء الأكبر من جيش العزيز، ففت ذلك في عضد هذا الملك، وأضعف من شوكته، وأخمد من عزيمته، وأضطر في صبيحة اليوم التالي إلى التفكير في النجاة بنفس والعودة سريعًا إلى مقر حكمه.

«ولكن! ماذا فعل الله بك يا أخي بهاء الدين قراقوش؟ وهل أستطعت أن تقضي على هذه الفتنة التي ربما أيقظها الأسدية في مصر؟»

بهذه الكلمات تمتم الملك العزيز وهو يفكر في خطته الجديدة. وإذ ذاك هتف هاتف في أعماق نفسه «أن أطمئن أيها الملك المعظم إلى نائبك

الأمير بهاء الدين، وثق بأنه باذل في حمايتك وحماية عرشك كل ما يستطيع حتى لا ينجح العادل أو الأفضل أو الأسدية وغيرهم في زحزحتك عن عرشك وإزالة ملكك وإدالة دولتك!».

ولقد صدق حدس العزيز، وأصاب رأيه كل الصواب في الأمير بهاء الدين فقد علم هذا الأمير العظيم بسر المؤامرة، وأستطاع أن يقرأ بعض الكتب التي وردت إلى الأسدية من إخوانهم خارج القاهرة. وهنا ثارت نفسه، وغلا الدم في جسمه، وأقسم يومئذ ليحبطن هذا العمل، وليدخلن الملك العزيز مصر إن شاء الله آمنًا. وراح بنفسه إلى الأسدية يخوفهم ويهددهم، ويحذرهم عاقبة غدرهم وخيانتهم، ويصور لهم دناءة الفعلة التي يقدمون عليها. وما زال بهم حتى أحمد نشاطهم، وأطفأ جذوتهم، وأحبط حيلتهم، وأحاط بهم من كل جانب، وفوت عليهم كل قصد. ثم ما كاد العزيز يصل إلى القاهرة حتى كان قراقوش قد أنتهى من عمله، ومهد له طريق الدخول.

ودخل العزيز مصر وأستقبله أهلها بسرور عظيم. ثم جلس إليه الأمير بهاء الدين قراقوش وأخبره بخبر المكيدة التي دبرت، والخطة التي وضعت، والقصد الذي قصد إليه الأسدية في القاهرة. فشكر له الملك الصنيع، وقدر له الجميل، وقال له يومئذ:

«ليس غريبًا أن يقع كل ذلك منك أيها الأمير العظيم، وأنت من أعوان أبي صلاح الدين، بل كنت من أقرب المقربين، وأخلص المخلصين، فهنيئًا للدولة التي أنت رجل من رجالاتها، ودعامة قوية من دعائمها».

وأنهما ليتجاذبان أطراف الحديث، إذا بالحاجب يستأذن لأحد الشعراء يريد أن يهنئ الملك بسلامة الوصول، فأذن العزيز لهذا الشاعر بالدخول، فدخل، وإذا به القاضي السعيد أبن سناء الملك. فقال له الملك: هات ما

عندك، فمثل الشاعر بين يديه وأنشد:

مـــن فـــر منـــك فـــلا يـــلام وطريــــــد بأســـــك لا ينـــــام

ثم قال متهكمًا (بالأسدية) والذين فشلوا في مؤامرتهم. وأحبط الله عملهم، ولم يستطيعوا أن يمنعوا العزيز من دخول القاهرة:

وهـــــم الأســــود فمــــا لهــــم طـــــاروا كمـــــا طــــار النعــــام
ومضــــوا ومـــــا ســــل الحســــا م فكيــــف لــــو ســــل الحســـام؟
لا ينفعـــــون ولـــــــن يضــــــروا إن مضـــــــــوا وإذا أقـــــــاموا
فلـــــــئن عفـــــــوت فإنمـــــــا يعفـــــو عــــن الــــذنب الكـــرام
وإن انتقمـــــــت فــــــإن أيـــــــ ســــر مــــا أســــتحقوا الإنتقـــام
وهمـــــو بــــــه ســـــكرى وليـــــ ـــس ســـوى الهمـــوم لهـــم مـــدام
ستســــــــوقهم بيـــــــد الزمــــــا ن ففــــي أنــــا ملـــك الزمـــام

كل ذلك والأمير بهاء الدين قراقوش يصغي إلى الشاعر، ويحاول أن يتتبع الحديث فلا يفهم منه إلا قليلًا، بالرغم من سهولة ألفاظه إلى هذا الحد، وقرب معانيه على هذه الصورة!

أما الملك العزيز فإنه أستمع إلى قصيدة الشاعر بشوق عظيم وإعجاب متزايد، وعلى فمه إبتسامة لا تفارقه، وفي قلبه فرحة لا تقل عن فرحة النصر أو هي أكبر وأعمق أثرًا. ثم ما كاد الشاعر يفرغ من إنشاده حتى بادره الملك بالجائزة. وخرج الشاعر من عنده راضيًا، ثم عاد الملك يتحدث مع الأمير بهاء الدين قراقوش، ويستمع لقصته مع الأسدية الذين خانوه في غيبته. وأنتهى المجلس بأن أسر العزيز إلي بهاء الدين حديثًا لم يعلمه أحد، ثم مال

عليه العزيز ونفحه بهدية ثمينة قبلها الأمير شاكرًا، برغم أنه من أزهد الناس في هدايا الملوك، ومن أقلهم رغبة في مالهم وجوائزهم.

هكذا أخلص الأمير بهاء الدين قراقوش للملك العزيز، كما أخلص من قبل الإخلاص كله لوالده السلطان صلاح الدين، فحافظ على العرش في أثناء غيبة العزيز عن مصر، وأضاف بذلك يدًا جديدة من أياديه على هذه الدولة الأيوبية التي شارك في بنائها وحياطتها من شرور أعدائها، وأبلى في ذلك بلاء قل أن يكون له نظير.

ألا ما أروع الدور الذي قام به بهاء الدين في هذا الفصل الخامس من فصول الرواية التي مثلها على مسرح التاريخ المصري الوسيط، وما أشد إخلاص الرجل، وما أنهضه بالقيام بالواجب عليه نحو وطنه ونحو دينه ونحو سيده في آخر الأمر.

الحق أن هذا الامير كان كنزًا من كنوز هذه الدولة التي من الله به عليها، وأدخره لها، وأعانه على إعلاء شأنها وبلوغ غايتها.

-6-

قراقوش الوصي على عرش المنصور

.. هذه هي الصفحة السادسة والأخيرة من كتاب الأمير بهاء الدين قراقوش، أو الفصل الأخير من رواية حياته المجيدة كما عرفها التاريخ:

فقد مات الملك العزيز، وأوصى بالملك من بعده لإبنه (المنصور) وكان صبيًا في التاسعة من عمره فأوصى أبوه أن يكون بهاء الدين مدبر أمره ووصيًا على عرشه. فقام الأمير بهاء الدين بهذه المهمة الأخيرة خير قيام، وأجلس المنصور على سرير الملك غداة اليوم التالي لموت أبيه، ووقف إلى جانب

العرش كما يقف الأسد الهصور خلف الأجمة. وبقي الأمير الأمين يلي حكمه، ويحوط ملكه، وبسوس رعيته، ويذود عنه وعن مصالحه، ويرعى بذلك عهد أبيه (العزيز) وجده الكبير (صلاح الدين).

والأمير بهاء الدين قراقوش، وإن كان قد أسن في تلك الفترة، وضعفت همته، وثقلت حركته، وتضعضعت صحته، إلا أن كبر السن لم يبلغ به حدا أضر بعقله، أو أخل بحكمه. فلم يعرف التاريخ الصحيح أن بهاء الدين قد صدر عنه في تلك الآونة تصرف يدل على الخرف، أو أتى عملًا من الأعمال ينبئ عن الخبل أو العته. فقد كانت الأمور تسير بين يديه يومئذ سيرًا حسنًا، لا يكاد ينغصها أو يكدرها إلا أطماع الملك الأفضل من ناحية، ومؤامرات الملك العادل من ناحية ثانية. وأحق من هذا كله أن يقال: ألاعيب الملك العادل وحده.

ومن ثم لم يكن من الغريب أن تكون الفتنة التي حدثت أيام العزيز هي الفتنة التي حدثت أيام المنصور، وأن الظروف التي أحاطت بالإبن، توشك أن تكون هي بعينها التي أحاطت بأبيه.

فقد أنقسم الصلاحية والأسدية على أنفسهم، وتنازعوا بهم أمرهم، وأعلنوا أنهم غير راضين عن وصاية الأمير بهاء الدين قراقوش، وأنهم يفكرون في وصي جديد على الملك المنصور. وأستقر رأيهم إذ ذاك على الذهاب إلى القاضي الفاضل لإستشارته في المسألة.

غير أن القاضي الفاضل أمتنع يومئذ عن إبداء رأيه، بحجة أنه قد أعتزل السياسة من مدة، فتركوه وأنصرفوا، ثم عادوا إلى النزاع القديم، فقال الصلاحية:

«نعمل بوصية العزيز، ونخطب لأبنه المنصور، ونحلف على طاعته، ونرضى بالأمير بهاء الدين قراقوش وصيًا عليه، وأميرًا علينا».

وقال الأسديه:

«بل نفكر في وصي آخر يكون من كبار الأسرة الأيوبية».

وقال آخر من الأسدية:

«حبذا الملك العادل. فلندعه ليكون وصيًا ونحن له طائعون وبه راضون».

وقال ثالث من هذه الفرقة:

«إن الملك العادل مشغول دائمًا بحروبه التي لا تنتهي، فضلًا عن أن ملكه بعيد عنا. فكيف نشغله بمملكتين معًا»؟

وقال رابع من الأسدية:

«إذن فلنفكر في الملك الأفضل، ولنبعث إليه ليقدم إلينا. ولنحدد للوصاية أجلًا لا يزيد على سبع سنين، بعدها يعود الأفضل إلى ملكه، ويترك للمنصور عرشه»

وكتب الأسدية بالفعل إلى الملك الأفضل يدعونه إلى المجيء. وكتب الصلاحية إلى إخوانهم بدمشق يقولون لهم:

«قد أتفقت الأسدية على الأفضل، ودعوه إلى المجيء إليهم، وأن ملك الأفضل الديار المصرية حكموا علينا، وأطلقوا فينا أيديهم. فإمنعوا الأفضل من المجيء إلى القاهرة».

ولكن يا لسوء الحظ! لقد حدث ما لم يكن في حسبان أحد. حدث أن كتاب الصلاحية إلى إخوانهم بدمشق وقع خطأ في يد الملك الأفضل! فأخذ

الأفضل الكتاب وذهب ومعه الرسول إلى مصر. وهناك خرج الأسدية والصلاحية معًا لإستقباله، والصلاحية لا يعلمون شيئًا حتى فوجئوا برؤية رسولهم مع الملك الأفضل، فسقط في أيديهم، وعلموا أن كتابهم وقع في يده.

وفكر زعماؤهم في الأمر، فرأى بعضهم أن يستأذن في السفر إلى القدس، وسلك الباقون من الزعماء مسلكهم، فأذن لهم الأفضل في الرحيل، فرحلوا وهم يحمدون الله على نجاتهم وسلامة أرواحهم!

أما الأمير قراقوش فحين رأي زعماء الصلاحية قد رحلوا إلى القدس، وحين رأى الجند الباقين منهم لا يقومون له بأمر، وليس في مقدورهم أن ينهضوا به، وحين رأى الملك الأفضل قد عمل برأي الأسدية وأستعد لتنفيذ مشورتهم وتحقيق رغبتهم. نقول حين رأي الأمير بهاء الدين قراقوش كل ذلك، لم ير بدا من الخضوع للأمر الواقع، فبادر إلى النزول يومئذ عن الوصاية للملك الأفضل، قائلًا له:

«أيها الملك: هذا أبن أخيك، وما يكون لي أن أتولى أمره في وجودك. ولك على الطاعة ما دمت له حافظًا، وعلى عرشه ساهرًا. وأنا أحلف على ذلك».

وبذلك تم الأمر للأفضل، على كره من فرقة الصلاحية أولًا، ومن الأمير قراقوش ثانيًا، ومن الملك الصبي آخر الأمر.

أما الملك العادل – أو الملك الماكر – فحين بلغته هذه الأخبار، ترك الحرب التي كان مشغولًا بها، وعاد من فوره مسرعًا إلى دمشق، وكان الأفضل غائبًا عنها بمصر، فدخلها وتحصن بها. ووصلت أخبار ذلك إلى الأفضل في

القاهرة، فأشار عليه الأسدية بسرعة العودة إلى دمشق، فعزم الأفضل على ذلك، وكاتب أخاه الملك الظاهر ملك حلب ليساعده، فوعده الظاهر بالمساعدة.

وكان أهل دمشق يحبون الملك الأفضل لكرمه وأدبه وحسن خلقه. وكانوا يبغضون الملك العادل كل البغض لمكره وخبثه ودهائه وسوء نيته. فلما علموا بعودة الأفضل إلى دمشق أخذوا يضايقون عمه الملك العادل مضايقة متصلة، أفسدت عليه كل قصد، وأوقعته في حيرة شديدة. ولم يكتف أهل دمشق بذلك، بل أخذوا يحطمون بأنفسهم بعض أسوار المدينة وأبوابها، ويقطعون أشجارها. ومر العادل نفسه بباب منها فرموا على رأسه زيتًا في غليانه، فأخطأه الزيت، ووقع على رأس فرسه. فمات الفرس لساعته، ونجا الملك العادل لحسن حظه! وكم كان الحظ مواتيًا لهذا الملك في ظروف شتى وحالات متعددة!

وبقي الملك العادل صابرًا على تلك المضايقة، مسيطرًا على أعصابه كل السيطرة، فلا ينبس ببنت شفة، ولا تسمع منه كلمة واحدة، حتى أستقر رأيه أخيرًا على حيلة تتفق وطبيعته، وهى أن يلقى حباله في القوم، وينفث سمومه فيهم، ويقصد إلى هذين الأخوين المتضافرين، الملك الأفضل والملك الظاهر، فيحاول التفرقة بينهما، والسعي في إختلافهما. ففعل، وبعث أولًا إلى الملك الظاهر يقول له:

«أنا أسلم إليك دمشق على أن تكون لك لا للأفضل»

فأنخدع الملك الظاهر بقول عمه، وطمع في ملك أخيه الأفضل، وبعث إليه بقوله:

«أنت صاحب دمشق، وقد بلغني أنك تدعها لي وتؤثرني بها على نفسك».

فجاءه الرد من أخيه الأفضل يقول:

«دمشق لي، وإنما أخذت مني غصبًا، ولن أعطيها أحدًا أبدًا»

ومُنذ يومئذ وقع الخلاف بين الأفضل والظاهر على ما تمني عمهما الملك العادل. ورجع الظاهر إلى حلب، وبقي الأفضل بمصر وفاز العادل بالغنيمة!

وليت الأمر وقف عند هذا، بل إن الملك العادل فكر يومئذ في الإغارة على مصر نفسها. وتجهز لمحاربة الأفضل بها، فلما علم الأفضل ما عزم عليه عمه جميع الحاضرين من أمرائه ومستشاريه. وأظهر لهم الخوف من عمه، وكان الأمير بهاء الدين قراقوش حاضرًا في ذلك اليوم. فأستأذن في الكلام، فأذن له الملك الأفضل، فقال:

«لا تخف يا مولاي.. فنحن جندك وجند أبيك السلطان صلاح الدين من قبلك. مرني أحفظ لك قلعة الجبل، ومرني أقم لك ما بقي من سور البلد، ومرني أحفر لك خارج السور، وأعمق الحفر، حتى أصل إلى الصخر، وأجعل التراب على حافة الحفر التي حفرتها فيبدو هذا التراب كأنه حائط آخر. دعني أفعل ذلك فيما بين البحر وقلعة المقس. وبذلك لا يبقى لمصر طريق إلا من بابها الذي يصعب أن يدخله العدو».

ألقى الأمير بهاء الدين قراقوش كل هذا الحديث، وكأنما قد أشترك في إلقائه كل جارحة من جوارحه، وكل عضو من أعضاء جسده المتهالك من شيخوخته. ولكن الإخلاص جذوة من نار لا تخمد أبدًا في نفس صاحبه. ولا

تزال هذه الجذوة مصدر الدفء في جسده، والقوة في قلبه، والشباب في روحه، والطهارة في نفسه، ما دام حيًا، مهما طال به الأجل، ونال من صحته وعافيته وقوة عضلاته الزمن. وهكذا كان الأمير بهاء الدين قراقوش شعلة من وفاء وقبسًا من إيمان، ومصدرًا من مصادر القوة المادية والقوة المعنوية، وركنًا من أركان الدولة الأيوبية، وكهفًا يلوذ به أمراؤها وحكامها وذوو الأمر فيها، حتى أنتقل من عالم الخداع والأباطيل إلى عالم الروح والحق!

ألقي الأمير بهاء الدين قراقوش هذه الكلمات بصوت مرتجف، لا يكاد يسنده إلا قوة الحق في نفسه، والصدق في خلقه وطبعه. وأستمع إليه الأفضل حتى فرغ من كلامه، ثم أقبل عليه يقبله ويظهر له الرضا عنه وعن هذا الرأي الذي أدلى به.

وكاد الأمر يتم للملك الأفضل على هذا الوجه، لولا أن المال قل في يده، فأصبح عاجزًا عن سد أعطيات الجند ولم يجد المسكين أمامه إلا رأيًا واحدًا، هو أن يأخذ في إحراق مدينة (بلبيس) ظنًا منه أن النار تحول بينه وبين عمه الملك العادل، فلا يستطيع الوصول إلى القاهرة.

وإذ ذاك ثار الشعب، وثار معه الجند، وأنفلت زمام الأمور من يد الملك الأفضل. وكان الملك العادل لحسن حظه على أبواب القاهرة في تلك الآونة. وقد بلغه ما عزم عليه الأفضل من إحراق بلبيس، كما بلغته أنباء الثورة التي قام بها الشعب والجند. فسهل له كل ذلك دخول مصر، وتم له النصر. وفر الأفضل نفسه من وجه عمه إلى بعض بلاد الشرق. وأستقر بالعادل المقام، ونصب نفسه وصيًا على الغلام. ثم جمع حوله جماعة من الأمراء والفقهاء، وحدثهم حديثًا طويلًا فقال لهم:

«إنه قبيح بي أن أكون وصيًا على هذا الصبي مع الشيخوخة والتقدم. والملك ليس بالإرث، وإنما هو لمن غلب. وإنه كان يجب أن أكون بعد أخي الملك الناصر صلاح الدين، غير أني تركت ذلك إكرامًا لأخي ورعاية لحقه. فلما كان من الخلاف ما قد علمتم خفت أن يخرج الملك من يدي ويد أولاد أخي. فسست الأمر إلى آخره، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامي فيه، ونهوضي بأعبائه. ولما ملكت هذه البلاد، وطنت نفسي على صيانة هذا الصبي حتى يبلغ أشده، فرأيت العصبيات باقية، والفتن والخلافات غير زائلة، فلم آمن أن يطرأ على ما طرأ على الملك الأفضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبوا إقامة إنسان آخر، ولا يعلم أحد ما تكون عاقبة ذلك. والرأي عندي أن يمضي هذا الصبي إلى الكتاب، وأن أقيم له من يؤدبه ويعلمه. فإذا تأهل وبلغ أشده نظرت في أمره، وقمت بمصالحه».

فوافق الأمراء والفقهاء على هذا الرأي، ولم يشذ عنهم غير الأمير بهاء الدين قراقوش، ولكنه لم يجد من يعينه على رأيه، أو يقوم بشأنه، أو يتحيز لطريقته. فكتم غيظه في قلبه، وحبس آراءه في نفسه، وعلم أن هذا نذير بقرب نهايته من الدنيا. وراحته من متاعبها، ومتاعب أهلها.

هكذا تجور القوة على الضعيف. ويظهر الباطل أحيانًا على الحق ويغرق الأمير بهاء الدين قراقوش في بحر من الأفكار البعيدة، ويستعرض أمامه طائفة من الذكريات القديمة.

ويعود بذهنه إلى عهد القائد الباسل أسد الدين شيركوه، ثم إلى عهد السلطان الأعظم صلاح الدين الأيوبي، ثم يذكر عهد أبنه العزيز، ثم يذكر أيام المنصور، ثم يستعيد في ذهنه كلمة قالها السلطان صلاح الدين لأخيه الملك العادل، وكان بينهما يومئذ:

«أنا نجيب فما يكون لي أولاد نجباء، وأنت يا أخي غير نجيب فسيكون لك أولاد نجباء».

نعم، أستعاد الأمير بهاء الدين قراقوش في ذهنه هذه العبارة، ولم يكن يفهم معناها حين صدرت من السلطان صلاح الدين وحدث بها أخاه الملك العادل. ولكنه الآن يفهم المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، ويرى بعيني رأسه كيف تحقق شطر كبير منها. وإذ ذاك يتأوه الأمير بهاء الدين قراقوش، وتطول آهاته مدة كبيرة، ثم ينطلق بهذه العبارة:

«ما كان أفطنك أيها الرجل العظيم صلاح الدين فقد أدركت بثاقب نظرك ما خبأه القدر لولدك، من أنهم لا يملكون البلاد، وإنما يملكها منهم أولاد عمهم الملك العادل»!

ويظل بهاء الدين قراقوش يتأمل هذه العبارة التي سمعها من صلاح الدين، ويأخذ في ترديد ألفاظها، ويتبع ذلك كل مرة بآهة من آهاته الطويلة التي تتسع أمامه رويدًا رويدًا حتى تشمل جميع الذكريات والعهود التي مر بها مُنذ خروجه من بلاده آسيا الصغرى إلى وصوله دمشق، ومنها إلى مصر.

ويترك الأمير بهاء الدين تأمله في عبارة صلاح الدين، ويستعيد عبارات الملك العادل، وهي التي سمعها مُنذ برهة قصيرة. يستعرضها لفظًا لفظًا، ولكن لا يستوقفه منها غير قوله في دهاء ومكر، وفي إصرار وخبث:

«والملك ليس بالإرث، وإنما هو لمن غلب».

فيقول الأمير بهاء الدين في نفسه:

أجل – أيها الملك الخبيث – الملك ليس بالإرث وإنما هو بالغلب.. لست أدري من علمك هذا العلم، ومن أين وصلت إلى هذه القاعدة الخطيرة

من قواعد الحكم؟

أهي خبرتك وإشتغالك بالحروب طول هذه السنين؟ أم هي عشرتك وصحبتك لأمثال الملك ريشارد (قلب الأسد) ملك الإنجليز؟ أم هي معرفتك بأن هذه القاعدة السياسية لا تخرج عن كونها من القواعد الطبيعية التي يؤمن بها الواقع، ويشهد بصحتها التاريخ؟

والآن أيها الأمير بهاء الدين قراقوش – وقد كبرت وضعفت وتهدمت، وأحسست كأنك تقف برجلك على حافة القبر، ترى ما أنت فاعل بنفسك بعد ذلك؟

إنك لن تستطيع بعد اليوم إلا أن تلزم بيتك، وتحبس نفسك، وتنتظر الأجل الذي يسدل الستار على حياتك.

وما هي إلا شهور قليلة بعد هذه الحوادث الأخيرة، حتى سمع الناس في القاهرة بموت الأمير بهاء الدين قراقوش. فحزن عليه الجميع، وذكروا تاريخه الأبيض الجميل، وسألوا الله له الرحمة والقبول.

وهكذا طوى الموت صفحة رجل من رجالات ذلك العصر، كان له أكبر الألز في صيانة الدولة الأيوبية، تلك الدولة التي قامت لإزالة الدولة الفاطمية، وإمتلاك الديار المصرية، والإستعانة بأموالها ورجالها ومواردها العامة في محاربة الصليبيين الذين أتوا لإستعمار الشرق العربي الإسلامي بحجة الدين، فأبي الشرف الشرقي إلا أن يردهم إلى بلادهم، ويمسح عار ظهورهم في وسط العالم الإسلامي كالرقعة السوداء القذرة في وسط ثوب نظيف أبيض.

رحمك الله يا بهاء الدين قراقوش، ورحم سلطانك الباسل صلاح الدين الأيوبي، ورحم أبطاله الذين أدوا معه للعالم الإسلامي هذه الرسالة الطيبة.

سيرة ابن مماتي

هو الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد بن مينا بن زكريا بن أبي المليح مماتي بتشديد الميم الثانية. أنحدر من أسرة قبطية من أعرق أسر الصعيد. وكان ميلاده حوالي سنة ٥٤٤ للهجرة بمدينة أسيوط.

وفي تسمية جده بإسم (مماتي) يحكي لنا التاريخ واقعة صحيحة: وهي أن مجاعة كبيرة حدثت مصر عقب إنخفاض النيل، وعزت الأقوات حتى لم يجد الناس يومئذ ما يأكلونه، وأقبلوا كعادتهم في مثل هذه المجاعات على القطط والكلاب يأكلونها، وعلى لحوم البشر يطعمونها. وكان الرجل السمين من الناس يخشى على نفسه السير في الطرق العامة حتى لا يخطفه إخوانه ومواطنوه بالسنارة من نوافذ البيوت والحوانيت. وكان مماتي في أول هذه المجاعة غنيًا بعضي الغني، وكانت عنده أقوات كثيرة، فكان الأطفال يذهبون إلى بيته، ويقفون صفوفًا تحت نافذته، وينادونه جميعًا كما ينادون أمهاتهم، فيهتف الطفل منهم بلفظ «مماتي! مماتي!»، يريد: أمي! أمي، فيخرج إليهم (أبو المليح) من بيته ويوزع عليهم القوت ولا يتركهم حتى يشعروا بالشبع، ويعودوا إلى منازلهم.

والحق إنها لذكرى لطيفة تدل على معان كثيرة، من أشرفها وأعظمها معنى (الإيثار). ولا يمكن لهذه الفضيلة – وهي فضيلة الإيثار – أن ترتفع إلى أعلى مراتبها في الحياة إلا في مثل هذه الحالة التي نشير إلى طرف بسيط منها، ونعني بها حالة المجاعة، وفيها يبلغ الأمر بالناس أن يأكلوا القطط

والكلاب، بل الجيف أحيانًا. فمن أستطاع منهم يومئذ أن ينسى شح نفسه، فلا شك أنه من الصالحين الخيرين. وكذلك كان (أبو المليح) جد هذا الكاتب الذي نحكي الآن طرفًا من سيرته. من أجل ذلك لم يكن غريبًا أن تظهر هذه الأسرة القبطية العريقة ظهورًا واضحًا في المجتمع المصري في العصور الوسطى، وأن يكون لها شأن كبير مع الحكام والملوك والأمراء والسلاطين ممن حكموا مصر في تلك الفترة، وأن تنظر الرعية نفسها إليها نظرة إكبار وإجلال، وأن يكون لكل عضو من أعضاء هذه الأسرة القبطية مكانة وشخصية ترتكز على دعامتين كبيرتين: دعامة نفسه أولًا، ودعامة أسرته مع ذلك.

ابن أبي المليح جد الكاتب

وكان ابن أبي المليح هذا جد الكاتب، فوق كرمه ولطفه وعطفه وسخاوة قلبه، رجلًا بارزًا من رجالات مصر في العصر الفاطمي. وكان يعتمد عليه في كثير من الأمور التي تهم الدولة الفاطمية. وكان يتولى كثيرًا من أعمال الدواوين في ذلك الحين. وكان معروفًا بثرائه وقلة إكتراثه بالمال. وفي ذلك يحكي المؤرخون حكايات عجيبة لعل من أظرفها وأعجبها هذه الحكاية:

قيل أن بعض تجار الهند قدم إلى مصر ومعه سمكة مصنوعة من عنبر، قد تأنق في صنعها، وبالغ في إجادتها ورصعها بالجوهر والياقوت، وأسرف في تضميخها بالطيب، ثم عرضها على الوزير الفاطمي المشهور (بدر الجمالي) ليشتريها منه. فقال الوزير للتاجر الهندي:

– بكم تريد أن تبيعني هذه السمكة؟

قال التاجر الهندي:

– لا أنقصها عن ألف دينار درهمًا واحد.

فأستكثر الوزير على السمكة هذا الثمن، وحاول أن يسوم صاحبها ثمنًا أقل.. ولكن التاجر الهندي أمر على موقفه، ولم يشأ أن ينقص من الثمن درهمًا واحدًا، فأضطر الوزير المصري أن يعيد إليه سمكته، وأن يأذن له فيخرج من الدار.

وخرج التاجر الهندي وطفق يسأل عن رجل غني يمكنه أن يقدر مثل هذه التحفة، ويدفع لها هذا الثمن. فدله الناس على دار أبي المليح، فطرقها، وعرض السمكة عليه، فسأله أبو المليح:

– بكم ساومك الوزير؟

قال التاجر:

– عرضت عليه أن يدفع في ثمنها ألف دينار لا ينقص منها درهمًا واحدًا، فرفض.

فقال أبو المليح:

– هاتها أيها الرجل وإليك الثمن.

فقبض التاجر الهندي ألف دينار كاملة وترك السمكة ومضى.

وفي ليلة من ليالي الشتاء الجميل في مدينة أسيوط، شرب أبو المليح حتى سكر، وقال لندمائه يومئذ:

– قد أشتهيت السمك، هاتوا المقلي والنار حتى نقليه بحضرتنا.

فجاءوا له بمقلى حديد وأتوا له بفحم وتركوه على النار، وقالوا: «لا نجد الآن أي شيء من السمك» فترك أبو المليح ندماءه برهة، ثم عاد إليهم ومعه سمكة العنبر، ووضعها بيده على المقلي، فجعلت تتقلى وتفوح روائحها.

وشاعت هذه الرائحة في الدار وخارجها، حتى لم يبق بمصر كلها بيت إلا دخلته هذه الرائحة الطيبة.

وكان الوزير بدر الجمالي جالسًا في منزله، فشم تلك الرائحة، وتزايدت حتى ظن أن اللصوص فتحوا خزائنه. فأستدعي حراس خزائنه كلهم، وأمرهم بفتحها جميعها وتفتيشها، خوفًا من حريق يكون قد أصابها، أو لصوص أمتدت أيديهم إلى شيء منها. فصدع الحراس بالأمر، وفتحوا خزائن الوزير، ووجدوها سالمة، وأخبروه بهذا الخبر. فقال لهم:

– ويحكم.. أنظروا إذن من أين أتت هذه الرائحة؟

فخرجوا يبحثون عنها حتى عرفوا حقيقة الخبر وعادوا إلى بدر الجمالي فأخبروه به... فأستعظم الوزير ذلك في نفسه إستعظامًا كبيرًا، ونال منه العجب منالًا عظيمًا.

وقال في نفسه:

– هذا النصراني الفاعل كل ذلك؟ لا شك أنه لم يفعل إلا بعد أن أكل أموالي، وأستبد بالدنيا كلها دوني.. وبغير ذلك ما كان يستطيع أن يفعل مثل هذا!

وصبر الوزير على مضض إلى اليوم التالي. وبقي على حاله من الغيظ والغضب حتى دخل عليه أبو المليح، فقال له الوزير:

– أستعظم أنا – وأنا وزير مصر – شراء سمكة من العنبر فأتركها إستكثارًا لثمنها، فتشتريها أنت، ثم لا تكتفي بذلك حتى تقليها، وتضيع في ساعة واحدة ألف دينار مصرية كاملة!

وسكت الوزير لحظة، ثم أتم كلامه قائلًا:

– ما فعلت هذا إلا وقد نقلت بيت أموالي إليك، وأنفردت بالدنيا كلها دوني!

فأبتسم أبو المليح إبتسامة خفيفة، ثم نظر إلى الوزير بدر الجمالي قائلًا:

– أسمع أيها الوزير: والله ما فعلت هذا إلا غيرة عليك، ومحبة لك.. فإنك اليوم سلطان نصف الدنيا. وهذه السمكة لا يشتريها إلا ملك. وقد خفت أن يذهب بها صاحبها إلى بعض الملوك، ويخبره بأنك أستعظمتها ولم تشترها، فأردت أن أعكس الأمر وأعرف التاجر الهندي أنك ما تركت السمكة إلا إحتقارًا لها، وأنه لم يكن لها عندك مقدار، والدليل على ذلك أن كاتبًا قبطيًا من كتابك أشتراها وأحرقها في ساعة واحدة. فيشيع بذلك ذكرك، ويعظم عند الملوك قدرك.. إلخ..

فأستحسن بدر الجمالي ذلك الجواب من أبي المليح، وأمر له بضعفي ثمنها، وزاد في راتبه، وشهد له بالذكاء والفطنة.

في تلك العصور التي كان المال فيها محصورًا في أيدي نفر معدودين، هم الوزراء والسلاطين ومن إليهم من كتاب الدواوين، كانت هذه الطبقة العالية يتنافس أفرادها في البذخ، ويتسابقون في الإسراف والتبذير، ويعللون ذلك بالمحافظة على سمعة الملك أو السلطان أو الأمير. والشعب نفسه يتضور من الجوع! فسبحان من بدل الحال غير الحال، وسبحان من جعل الحكام في هذه الأزمان يستمدون سلطانهم من الشعب، ويحصرون جهودهم في العمل لصالح الشعب، ويستندون في بقائهم على رغبة الشعب.

ونعود إلى (أبي المليح) فنرى أنه كان لكرمه هذا وثرائه هذا مقصد الشعراء في زمانه، يأتون إليه ليمدحوه ويظفروا بشيء من عطائه الذي لا

يطمعون في مثله الأمر خليفة أو سلطان. وكان من الشعراء الذين أنقطعوا لمدحه رجل يقال له (أبن مكنسة) بقى يمدحه حتى مات، فلما شاع موته رثاه بقصيدة طويلة منها:

طويـــــت ســــــماء المكرمــــــا ت وكـــــورت شـــــمس المـــــديح

مــــــاذا أرجـــــى مـــــن حيـــــا تـــي بعـــد مـــوت أبـــي الملـــيح؟

ومات كذلك الوزير بدر الجمالي وخلفه في الوزارة الفاطمية أبن له أسمه (الأفضل) فتحيل هذا الشاعر المتقدم ذكره حتى دخل على الأفضل في الوزارة يريد أن يهنئه ويمدحه، فقال له (الأفضل أبن أمير الجيوش) يومئذ:

«ذهب رجاؤك بموت أبي المليح.. فما الذي جاء بك إلينا؟»

ولم يقبل أن يسمع له أو يجيزه على شعره.

هذه أطراف من سيرة (أبي المليح) جد الكاتب. فلننتقل من ذلك إلى سيرة..

المهذب والد الكاتب

وكان بلقب (بالخطير)، وهو كاتب ديوان الجيش بمصر في أواخر أيام الفاطميين وأوائل أيام بني أيوب. وعظمت منزلته في الديوان حتى حسده أصحابه، وحقد عليه الكتاب جميعًا، وأتفقوا فيما بينهم على أن يشوا به عند صلاح الدين، أو عند عمه أسد الدين شيركوه، وهو يومئذ المستولى على الديار المصرية، فخاف المهذب على نفسه تأثير هذه المؤامرة، وفكر في الأمر مليًا، فلم يجد خيرًا له من أن يعلن إسلامه هو وأولاده، وأن يكون ذلك على يد صلاح الدين نفسه. فذهب إليه وعرض إسلامه وإسلام أولاده عليه، فقبلهم صلاح الدين وأحسن إليهم وزاد في وظائفهم وولايتهم، وبذلك

أستطاع المهذب أن يقطع الطريق على حساده، وأن يرد كيدهم، ويحبط عملهم. وما لبث المهذب بعد ذلك أن أصبح واليًا على ديوان الإقطاعات، فضلًا عن ديوان الجيش.

كل ذلك أوغر صدور الكتاب والشعراء في الديوان، فزاد حقدهم عليه، وضاقت حيلهم فيه، ولم يسعهم إلا أن يطلقوا ألسنتهم في الذي جد عليه وهو الإسلام، فأتخذوا من إسلامه مادة لسخريتهم به والحط من منزلته. ومن ذلك ما قاله بعض الشعراء وأسمه (أبن الذروي):

لـــم يســـلم الشـــيخ الخـــط ـــير لرغبـــة فـــي ديـــن أحمـــد

بـــــل ظـــــن أن محلـــــه يبقـــى لـــه الـــديوان ســـرمد

والآن قـــد صـــرفوه عنـــ ـــه فدينـــه (العـــود أحمـــد)

(المحال بكسر الميم الكيد والمكر).

وأكبر الظن أن هذه الأبيات قيلت بعد أن وشي الكتاب بالمهذب مرة أخرى عند الملك العادل أخي السلطان صلاح الدين. وما زال أولئك الكتاب الحامدون بالعادل حتى أقنعوه بضرورة العمل على صرف المهذب عن الديوان. فسعى الملك العادل في ذلك سعيه، وأبلغ الكتاب مآربهم فيه.

وفي استقالة (المهذب) من ديوان الجيش يحكي المؤرخون هذه القصة الصغيرة:

قالوا: ومن عجيب ما جرى للمهذب أنه كان في يوم من الأيام جالسًا في حجرة من حجرات ديوانه بمصر، وكانت حجرة حسنة منمقة بالرخام من كل جانب، فجاءه قوم وقالوا له:

«قم من ها هنا».

فقال لهم: «ما الخبر؟»

قالوا: «قد أمر الملك أنه دل بأن نأخذ رخام هذه الحجرة وأن نعمر بها موضعًا آخر»

فخرج المهذب الخطير منكسراً كاسفًا خجلًا، فقيل له في ذلك، فقال:

«قد أستجيبت فينا دعوة. وما أظنني أجلس في الديوان مُنذ اليوم. أما سمعتم إذا بالغوا في الدعاء على أحد قالوا: خرب الله ديوانه. وما بعد الخراب إلا اليباب».

ثم دخل منزله ومرض به، فلم يخرج منه إلا ميتًا!

ولقد أجمعت كتب الأدب على أن المهذب الخطير كان من أرق شعراء زمانه وأعفهم، وأحسنهم خلقًا وأنزههم. ومن شعره في كتمان السر:

وأكتم السر حتى عن إعادته ... إني المسر به من غير نسيان

وذاك أن لساني ليس يعلمه ... سمعي بسر الذي قد كان ناجاني

والحق أن ما بقي لنا من شعره يدل على رقة لفظه ولطافة فكره وحسن تناوله.

الأسعد بن مماتي

وهو المقصود بهذه السيرة. وقد خلف أباه المهذب على ديوان الجيش، وبقي رئيسًا له مدة طويلة، ثم أضيف إليه في أيام صلاح الدين وأيام العزيز ديوان المال، وهو أجل ديوان من دواوين مصر في ذلك العصر، وبقي رئيسًا له مدة كبيرة أيضًا.

وإذ ذاك تعرف بالوزير عبد الرحيم بن على البيساني المشهور بالقاضي الفاضل، وحظي عنده، فحفظ الأسعد هذا الجميل للقاضي الفاضل، وقام بأمره، وأشاع ذكره، ونبه على فضله، وصنف له كتبًا عدة، وأقبل فوق هذا كله يمدح السلطان صلاح الدين بقصائد في غاية الروعة.

وأشتهر الأسعد في زمانه بالأدب، وأصبح من كبار الأدباء في مصر الأيوبية، وخاصة مُنذ إتصاله بالقاضي الفاضل زعيم النهضة الأدبية والعلمية، وإتصاله بالقاضي الفاضل زعيم فرسان هذه الحلبة. وكان القاضي الفاضل يحب الأسعد بن مماتي حبًا جمًا، ويقربه ويطلق عليه أسمًا ظريفًا هو «بلبل المجلس».

وبقي الأسعد بن مماتي يحتل هذه المنزلة الرفيعة في عالم الأدب وعالم الحكومة، حتى أعاد للناس ذكرى أبيه وجده، وبات محسودًا منهم جميعًا ولم يزل على ذلك في عهد صلاح الدين وعهد الملك العزيز وبداية عهد المنصور. ثم حدث حادث خطير في حياة الدولة الأيوبية، وهو ذلك الحادث الذي أشرنا إليه من قبل، ونعني به إنتقال الدولة من أيدي أبناء السلطان صلاح الدين إلى يد أخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وإذ ذلك تغيرت الأحوال، ودار الفلك دورته، وأعتزل القاضي الفاضل السياسة، ولزم بيته، وأصبح الأمر كله في يد ملك جبار هو (الملك العادل) وإلى جانبه وزير غدار هو (صفي الدين بن شكر)، وكان بينه وبين الأسعد ابن مماتيثأر قديم. فقد بدرت من الأسعد إهانة في حق (أبن شكر)، فحقد عليه، وأسرها في نفسه، وعزم على أن ينتقم منه متى أمكنته الفرصة.

ودارت الأيام، وجاء الوقت الذي أصبح فيه (أبن شكر) وزيرًا في دولة الملك العادل بالديار المصرية وكان العادل يكره كل أعوان أخيه السلطان صلاح الدين، ويكيد لهم، ويحاول أن يؤذيهم ما وسعه ذلك.

وكان من أكبر أعوان السلطان صلاح الدين رجال منهم عبد الرحيم بن علي المشهور بالقاضي الفاضل، وكان رجلًا له كرامته فضلًا عن عظم سطوته، فما كاد يسمع بإنتصارات العادل في عالم المؤامرات تارة والحروب تارة أخرى، حتى أعتزل السياسة لشيخوخته كما قلنا. وما زال في بيته حتى جاء الوقت الذي دخل فيه العادل من أحد أبواب القاهرة في حين خرجت جنازة القاضي الفاضل من باب آخر من أبوابها. وبذلك وقف الموت حدًا فاصلًا بين القاضي الفاضل وعدويه الكبيرين الملك العادل وأبن شكر. وكان هذا الأخير كثيرًا ما يقول:

«لم يبق لي أمل في هذه الدنيا إلا أن يتمرغ القاضي الفاضل بذقنه على تراب عتبتي!»

ولم يعلم أن القاضي الفاضل كان أكرم على نفسه وعلى الله تعالى من أن يرى في هذه المزلة!

ومهما يكن من شيء فلم يستقر المقام في (بأبن شكر) هذا في دست الوزارة المصرية حتى فكر في طريقة ينتقم لنفسه بها من الأسعد بن مماتي، فلم يجد أني على نفس الحر من العبث به وبكرامته، ولم يجد ألمًا أشد على نفسه كذلك من إكرامه قليلًا ثم الغدر به ولماله وعشيرته. وقال الوزير الخبيث في نفسه يومئذ:

«ما أحسن أن أقبل على الأسعد أولًا، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر، فأحرمه العز الذي أذيقه منه شيئًا، وأحول به وبين المنزلة التي كان ينعم بها حينًا، وأحط به من عل، وأكون بذلك كالجزار الذي يسمن خرافه ليذبحها بيده».

وأقبل الوزير صفي الدين بن شكر كل الإقبال على غريمه، وفوض إليه جميع دواوينه، وسهل له طريق العبث ببعض الأموال، وبقي على ذلك سنة كاملة.

ثم لبس الرجل لغريمه جلد النمر، وأخذ يدبر له المؤامرات ويحصى عليه السيئات، وينسبه إلى المستحيلات، ويكثر فيه التأويلات، وما زال به – كما يقول المثل العربي – حتى وضع قدميه في خف واحدة!

وإذ ذاك نكبه (أبن شكر) نكبة هائلة، وطالبه بأموال طائلة، ولم يلتفت إلى أعذاره، ولا أستمع لشيء من إعتذاره، ويصر على مطالبته بالمال. فلم يستطع الأسعد الوفاء بما طلب، لأنه كان عفيفًا ذا مروءة. فأحال الوزير عليه الأجناد، فقصدوه وطالبوه وأحرجوه، وأكثروا عليه وضايقوه. ثم راحوا يشتكونه بعد ذلك كله إلى صفي الدين بن شكر. فما كان من هذا الوزير الخبيث إلا أن حكمهم فيه وترك لهم أن يحصلوا منه على المال بالطريقة التي يرونها..

قال بعض المؤرخين:

وسمعت بنفسي الأسعد بن مماتي يقول: علقت في المطالبة بالمال على باب داري بمصر على ظهر الطريق إحدى عشرة مرة في يوم واحد. فلما رأوا أنه لا قدرة لي على تسديد المال قالوا لي: تحيل وأجعل المال أقساطًا عليك

تدفعها قسطًا قسطًا حتى تنتهي منه. فقلت لهم:

«أما المال فما عندي منه شيء. ولكن إذا أفرجتم عني، وملكت أمري، فإني أستجدي الناس، وأسأل من يخافني تارة ومن يرجونى تارة، حتى أحصل على المال بهذه الوسيلة»

قال له الجند: أختر لك طريقًا آخر...

قال الرجل: لا أعرف لي وجهًا آخر، وليس معي بعد الذي أخذتموه مني درهم واحد، فأفعلوا بي ما بدا لكم.. فقسطوا على المال، وأفرجوا عني في الحال.. وبقيت مدة بسيطة حتى حل موعد القسط الأول، ولم أكن قد أستطعت أن أحصل على شيء. فأختفيت وأستترت، وقصدت إلى القرافة ، وأخفيت نفسي في مقبرة من المقابر، وأقمت بها مدة عام كامل!

ثم ضاق الأمر بي، ففكرت في الهروب من مصر إلى الشام.. وأني لفي الطريق إليها. وإذا بفارس من الفرسان يجد في أثري، ويحاول اللحاق بي، حتى أدركني، وسلم علي، وناولني مكتوبًا في يدي، ففضضته، وإذا هو رسالة من الوزير صفي الدين بن شكر يقول في بعضها:

«... لا تحسب أن إختفاءك عني كان بحيث لا أعلم ولا أدري أين أنت، ولا أين مكانك، فأعلم أن أخبارك كانت تأتيني يومًا بيوم، وأنك كنت في مقبرة كذا بالقرافة مُنذ كذا وكذا، وأنني مررت بهذا الطريق، وأطلعت فرأيتك بعيني رأسي، وذلك لما خرجت هاربًا عرفت خبرك، ووقفت على أمرك، ولو أردت ردك لفعلت. ولو علمت أنه قد بقي لك مال أورجال لما تركتك. ولم يكن ذنبك عندي مما يستحق أن أتلف به نفسك أو أزهق به روحك. وإنما كان قصدي أن أدعك تعيش حياتك الباقية فقيرًا غريبًا شريدًا مطرودًا محزونًا.

فلا تظن أيها البائس أنك هربت مني بمكيدة صحت عني، أو حيلة نجحت في... كلا، ثم كلا، فأذهب إلى غير رحمة الله»!

قال الأسعد بن مماتي:

«وتركني الرسول وعاد سريعًا، فبقيت في مكاني مبهوتًا ثم أستأنفت سيرى حتى وصلت إلى حلب، ونزلت في دار الوزير جمال الدين الأكرم أدام الله علاه، وأبلغه من الدنيا مناه. وذلك في سنة ٦٠٤ للهجرة..

وبعد أشهر قليلة علم الملك الظاهر بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي بمكاني، فبعث إلي من يعرف أخباري، وأستدعاني فذهبت إليه، فأجرى على في كل يوم دينارًا صوريًا، وثلاثة دنانير أخرى أجرة لدار أسكنها. وهذا كله عدا تحف وهدايا وألطاف كثيرة ما كان يحرمني منها. وأقمت في جوار هذا الملك العظيم، وأبن خير السلاطين البطل صلاح الدين ولا عمل لي عنده، ولا خدمة في إستطاعتي أن أؤديها».

وفي عام ٦٠٦ للهجرة مات الأسعد بن مماتي بحلب، ودفن بظاهرها، بمقام يقرب من قبر أبي بكر الهراوي.

كان الأسعد بن مماتي زينة الدنيا في عصره، وذلك لفضله وأدبه وحسن نظمه ونثره، ولبراعته في المزاح واللهو. وقد يدل على ذلك شعره كما دلنا عليه نثره: ومن الأول قوله في علاء نحوي:

وأهيف أحدث لي نحوه ... تعجبا يعرب عن ظرفه
علامة التأنيث في لفظه ... وأحرف العلة في طرفه

والتورية واضحة في البيت الأخير.

وقال متغزلًا في غلام خياط:

وخيـــــاط نظـــــرت إليـــــ ـــــه مفتونـــــا بنظرتـــــه
أســــيل الخـــــد أحمـــــره بقلبـــــي مـــــا بوجنتـــــه
وقـــــد أمســـــيت ذا ســـــقم كـــــأني خـــــيط إبرتـــــه
وأحســـــد منـــــه ذاك الخبـــــ ـــــط فـــــاز بـــــري ريقتـــــه

ويطول بنا القول بعد ذلك لو أردنا أن نروي للقارئ بعض قصائد ابن مماتيالجميلة في مدح صلاح الدين والإشادة بوقائعه وبسالته ومجده وبطولته.

كتب ابن مماتي:

وهكذا كان ابن مماتيأديبًا من طراز أعلى. وكان له فوق هذا كله غرام بنظم الكتب القديمة، مثل كتاب كليلة ودمنة وغيره.

وأما كتبه الأدبية والعلمية فكثيرة تربو على خمسة وعشرين كتابًا في الأدب والفقه والسير والتراجم والعلوم الإسلامية المختلفة، ومنها كتاب له في سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي.

ولعل من أهم كتبه العامة كتابًا عنوانه:

«قوانين الدواوين» يعتبر وثيقة من أهم وثائق العصر الأيوبي، وقد أستطاعت الجمعية الزراعية في مصر أن تطبعه وتنشره في أيامنا هذه.

ولسنا نريد أن نشغل ذهن القارئ بأسماء هذه الكتب الأدبية أو العلمية، لأننا مكتفون هنا بالوقوف عند كتاب واحد منها فقط، هو كتاب «الفاشوش في حكم قراقوش».

ولم يكن هذا الكتاب الأخير هو وحده كل ما كتب الأسعد ابن مماتيفي التشهير بوزير أو أمير ممن كان يحقد عليهم ويريد أن يشفي نفسه بالإنتقام

منهم. فقد كتب الأسعد بن مماتي كتابًا آخر في النيل من صديق له أسمه (علم الدين بن الحجاج) كان يعمل معه بديوان الجيش، وكان بينهما ما يكون عادة بين المتماثلين في العمل.

وقد أشار المؤرخون إلى هذا الكتاب الذي كتبه الأسعد بن مماتي في علم الدين بن الحجاج ولكنه لم يصل إلينا، ولا يعرف عنه شيئًا. وأكبر الظن أنه كتبه بطريقة أخرى غير التي كتب بها (الفاشوش). يدلنا على ذلك أن التاريخ لم تحفظ من هذا الكتاب الذي كتبه في أبن الحجاج غير بيتين من الشعر نظمهما الأسعد بن مماتي في هجاء غريمه ووصفه فيهما بأثقل إذ قال:

حكـــي نهـــرين مـــا فـــي الأر ض مـــــن يحكيهمـــــا أبـــــدا

ففـــــي أفعالـــــه ثـــــوري وفـــــي ألفاظـــــه بـــــردي

وثوري وبردي نهران مشهوران بأرض الشام، وفي تشبيه الأسعد بن مماتي له بهما تورية لا تخفى على القارئ.

تلك إذن أطراف من سيرة الأسعد بن مماتي وسيرة أبيه وسيرة جده. ومنها تعلم أن كاتبنا نشأ في بيت غني ومناه، وأن أسرته كانت من أشهر الأسر القبطية بالديار المصرية، وأنها كانت تتولى أعمالًا هامة من أعمال الحكومة، في عهد الفاطميين، ثم في دولة صلاح الدين، وأنها دخلت الإسلام، فزادها الإسلام قوة على قوة، وإن أتاح ذلك لأعداء هذه الأسرة فرصة النيل منها والتهكم بها.

وكان من أشهر ما أمتازت به تلك الأسرة القبطية – عدا خصال الكرم والجود والأمانة والمروءة – صفة العلم والأدب والإستحقاق للمناصب العالية التي بقيت في أفرادها مدة طويلة.

ومن ثم برع الأسعد بن مماتي نفسه في الكتابة براعة مكنته من كتابة هذا العدد الضخم من الكتب كما أسلفنا.

أفتطن أن أسرة هنا شأنها، وتلك مكانتها في البيئة المصرية التي عاشت بها، تضرب في الحياة، وتأخذ في سبيل الغني والجاه، ثم لا يكون لها حساد كثيرون، يحقدون عليها، ويستكثرون الأموال والمناصب التي آلت إليها، ويكيدون لها، ويأتمرون بها، ويتربصون الفرص التي تمكنهم من الإنتقام منها وإزالة نعمتها؟

وبم تقابل هذه الأسرة كل ذلك؟ إنها تقابله بالسخرية والتهكم من الناس، كبيرهم وصغيرهم، وعاقلهم، وغافلهم، لا تدخر في ذلك وسعًا، حتى تبلغ ما تريد.

والحاسد من الناس يظل مشغولًا بمحسوده، دارسًا لأحواله وظروفه، حتى يسمع برجل يكرهه، أو آخر يستطيع أن يحمله على كراهيته، فما يزال به يصب في أذنه من الكذب والأباطيل، حتى يمتلئ هو الآخر من هذا المحسود، ويجمع الرأي على نكبته أو حرمانه من سطوته.

وهكذا الناس في كل زمان ومكان.. من دخل منهم هذا الميدان – ونعني به ميدان السياسة والرياسة – فإنه لا بد مع ظن نفسه على المنازلة والمنافسة، فمرة يربح ومرة يخسر، ومرة يهزم ، ومرة ينتصر.

وهو في ربحه وخسارته يفقد كل يوم جزءًا من قوته وحيويته. حتى يأتي يوم لا يقوى فيه على الوقوف على قدميه، فينسحب من ميدان الحرب والغلاب، ويرضى من الغنيمة بالإياب، ويطوي الزمن صفحته كطي السجل للكتب.

محكمة التاريخ

نص كتاب الفاشوش في حكم قراقوش على أن مؤلفه الأسعد ابن مماتي‌إنما (صنفه لصلاح الدين عسى أن يريح منه المسلمين) أي من قراقوش. ومعنى ذلك أن الكتاب –كما تدل عليه هذه العبارة – يرجع تاريخ تصنيفه إلى عهد صلاح الدين، وأن الحديث فيه موجه إلى هذا السلطان العظيم ضد صديقه الأمير بهاء الدين قراقوش.

وأن القارئ ليعجب كل العجب كيف ظهر هذا الكتاب في حياة صلاح الدين، وفي فترة شهدت عظمة الأمير بهاء الدين، وفيها شارك هذا الرجل – كما رأينا – في هدم دولة وإقامة أخرى. فقد كان في الجيش الذي أتى به أسد الدين شيركوه إلى مصر بقصد تهدئة الأحوال بها في الظاهر، والتمهيد لإزالة الدولة الفاطمي نفسها في الباطن. ثم كان حارسًا لأعلى القصر الفاطمي وحده بعد تمام الأمر لصلاح الدين، بل كان حارسًا للدولة الجديدة التي أقامها ذلك السلطان العظيم – صانها من المؤتمرات، وحماها من المكائد والدسائس، وبذل في سبيل صيانتها وحمايتها كل ما يستطيع.

وكان مرة ينوب عن السلطان صلاح الدين في حكم مصر، وأخرى يعمل له في بناء القلاع والحصون، وثالثة يأتمر بأمره في بناء السور، ورابعة يبني له سورًا في عكا، وخامسة يبقى مأسورًا محصورًا في هذه المدينة التي شاهدت أسود أيام حياته حتى من الله عليه بالنجاة والعودة إلى صلاح الدين الذي فرح فرحًا عظيمًا بمقدمه، ولم يدخر وسعًا في تقديره وتقديمه والثناء على خلقه

وشجاعته.

إلا – ما أقسى الليالي السود التي قضاها ذلك البطل المغوار، لا يبالي الحرب والإسار، ولا يضعف من قوته الحديد ولا النار، ولا الجوع ولا الحصار ولا هذه الآلاف المؤلفة من الجند نودى بهم الأوبئة الفتاكة في تلك المحنة.

وأخرى يعجب لها القارئ كل العجب، هي عدم مطابقة النوادر التي أشتمل عليها كتاب الفاشوش، وبعدها كل البعد عن الصحيح في أخلاق الأمير بهاء الدين قراقوش، وعن الحقيقة في أعماله وتصرفاته العديدة.

ولست أدري ما هي نقطة الضعف في أخلاق الأمير بهاء الدين قراقوش – بصرف النظر عن عدم تقديره للأدب أو الكتب؟ وما الثغرة التي نفذ منها الأسعد بن مماتي إلى هذا الأمير فأصاب منه مقتلًا، ونال منه كل منال، وأستطاع أن يضحك منه الناس في جميع الأزمان والأجيال.

إن النوادر التي أشتمل عليها هذا الكتاب الصغير لا تمس جانبًا حقيقيًا واحدًا من جوانب الأمير، ولا تصدق في وصف ناحية صحيحة واحدة من نواحي نقصه وضعفه.

غير أننا نعرف أن مما أخذه التاريخ على قراقوش ميله إلى الصرامة والجد، وإلى الشدة والعنف، فكان قلبه لا يستشعر الرحمة في القيام بأمر من الأمور التي يرغب فيها السلطان صلاح الدين. وكان لا يعرف طريقًا إلى الرأفة بالناس في سبيل ذلك. ثم هو فوق هذا كله – وهو من أجل ذلك كله – حل شديد الخصام، فلا يقر مبدأ المناقشة في الأمور، ولا يحتمل الإصغاء إلى جدل يصدر من كبير أو صغير.

وله رأي في معاملة السوقة والعامة من الناس، فهو يأخذهم جميعًا بالقهر والشدة، ولا يرده أحد عن أعمال العنف والقسوة ما دام مطلوبًا منه أن يقوم بكل هذه الأعمال التي لا تحتمل البطء أو الكسل، ولا يمكن أن تتم له في جو من التراخي أو التساهل في المعاملة.

هكذا فعل الأمير قراقوش بالأسرى وبعض العامة الذين أستخدمهم في بناء السور وبناء القلاع والحصون. وعذره في ذلك -كما علمنا- هو حرصه الشديد على إنجازها في الوقت الذي أراده السلطان صلاح الدين.

وأكبر الظن أن أخلاق الأمير بهاء الدين قراقوش لم تكن في يوم ما أميل إلى الغلظة والشدة، ولا أدنى من الجفاء والقسوة كما كانت أيام نيابته عن السلطان صلاح الدين في حكم القاهرة.

إذ ذاك ظهر الجانب الخشن في خلق هذا الرجل، وبدت فيه صرامة الجندي الشرس في معاملة الناس. ولا يبعد مطلقًا أن يكون قد أرتكب في تلك الفترة من حكمه القاهرة عدة أخطاء أغضبت منه العامة، وأوغرت صدور الخاصة. وجاء كتاب الفاشوش مصورًا لذلك، مبالغًا في تصويره على طريقة الأدباء وأصحاب الصحف.

فإذا لم يكن بد إذن من السخرية بهذا الأمير، فقد كان على ذلك الأديب المشهور أن يبني سخريته على شيء من الحقيقة، أو أن يحدث الصلة بين نوادره وبين نقطة من نقاط الضعف في هذه الشخصية العظيمة. وقد كان من وجوه الضعف في هذا الأمير قسوته وصرامته التي زادت على الحد، وخصومته ومعاملته للسوقة والعامة على هذا النحو، وإغراقه في الجد، وفي العمل، إغراقًا ليس له فيه ند.

فأين محاولة الأسعد بن مماتي لبيان هذه الطبيعة؟ وأين إستفادته من هذه الطريقة؟ وأين عرضه لهذه الصورة؟ لقد كان في مقدوره أن يجد في طريقة تسخيره للناس مادة للسخرية به والنيل منه ومن سياسته. ولو قد فعل هذا لإستطاع به إقناع العامة والخاصة، ولكان من الجائز أن يتأثر به رجل كالسلطان صلاح الدين فيأمر بإقصائه عن عمله، وملازمته لبيته وقطع راتبه وما شاكل ذلك.

ولكن كتاب الفاشوش على إختلاف صوره وتعدد نسخه، لم نجد فيه ما يدل على شيء من ذلك.

وأكثر من هذا وذاك أن هذه الأوصاف التي وصف بها الأمير جاءت أشبه شيء بالصفات التي يخلقها الناس عادة على «جحا» فهي صفات يمكن أن تنطبق على كل إنسان يوصف بالشذوذ وهي في ذلك كالثوب الذي يسع كل جسم ويدخل فيه كل إنسان من هذا الطراز.. وما هكذا تكون السخرية الصحيحة أو النقد الصادق، ولا هكذا الهجاء السياسي والإجتماعي ولا الرسوم الكاريكاتورية المعروفة في عالم الأدب والصحافة.

وأمعن من هذا كله في كتب الكتاب أن به فوق ذلك نوادر منسوبة إلى قراقوش مع جارية من جواريه، وقد قلنا أننا أعرضنا عنها لما فيها من الأفحاش الذي لا يليق نشره على الجمهور. فعجبنا لثبوت هذه النوادر في بعض نسخ (الفاشوش)، مع أننا نعرف من قراقوش أنه كان خصيًا!

فهل نسي واضع الكتاب حتى هذه الصفة التي تتصل بخلقة الأمير، فنسب إليه عملًا لا يتفق وهذه.. ثم إن الأقطار التي وصل إليها هذا الكتاب الصغير أضافت إليه ما ليس فيه، ولم يكن لها علم بحقيقة الرجل الذي وضع الكتاب من أجله، حتى في هذه الناحية.

وفي هذه الفترة التي عاش فيها الأمير قراقوش وعاش مؤلف كتاب الفاشوش، وهي الفترة الذهبية في تاريخ الديار المصرية، إذ هي الفترة التي نعمت بالقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وأبن سناء الملك ورجال هذه الحلبة – عاش كذلك رجل أديب أسمه «الوهراني» أتي إلى مصر من بلاد المغرب في طلب وظيفة توسل إليها بالقاضي الفاضل، فلم يشأ هذا الوزير الكبير أن يعينه عليها. فما كان من الوهراني إلا أن كتب طائفة من الرسائل اللطيفة، سخر فيها من رجال الدولة الأيوبية، وعلى رأسهم القاضي الفاضل. وجاءت رسائل الوهراني مرة على شكل أحلام ومنام، وأخرى على شكل حكم وأمثال وحكايات، وثالثة على لسان بغلته التي كان يركبها، فيجري على لسانها جميع الألفاظ التي أرادها. واستطاع أن ينال من سادة مصر وكبرائها في ذلك الحين، ويهجوهم بأسلوب لطيف. رشيق. وسنشير إلى شيء من ذلك في الكلام عن السخرية المصرية في هذا الكتاب إن شاء الله.

أما كاتبنا المصري الأسعد بن مماتي فقد بني كتابه على قاعدة «التشنيع»، وسنعرض فيما بعد لشرح هذه الطريقة والموازنة بينها وبين الطرق الأخرى في باب التهكم والسخرية.

وأيا ما كان الأمر، فالذي لا شك فيه أن كتاب الفاشوش لم يبلغ الغرض الذي كتب من أجله في زمن صلاح الدين. فلا أثر هذا الكتاب في نفس السلطان العظيم، ولا أراح هذا السلطان المسلمين من الأمير بهاء الدين، ولا ألتفت إلى هذا الحدث الأدبي الخطير – وهو ظهور كتاب الفاشوش – رأس النهضة الأدبية في عصره، وهو القاضي الفاضل. وعلى الجملة لم يحدث أن رفع السلطان يد قراقوش عن العمل الذي طلب منه، ونيط به.

وبقي كتاب الفاشوش محفوظًا في الصدور، تتداوله ألسنة الجماهير، حتى جاء الزمن الذي نرجح أنه أفاد الفائدة الكبرى من حكاياته وأقاصيصه ونعني به الزمن الذي تلا موت العزيز أبن صلاح الدين. وذلك في أثناء الفتنة التي حدثت حول عرش المنصور بعد موت أبيه العزيز. وكان المنصور صبيًا، فأحتاج الأمر إلى أن يكون له وصي. وكان العزيز نفسه قد أوصى أن يكون الأمير بهاء الدين قراقوش وصيًا على العرش.

غير أن هذا الأمر لم يصادف هوى من نفس أحد من كبار الجند. وأستشاروا في الأمر كبار الكتاب – ومنهم الأسعد بن مماتي، فأشاروا عليهم بإستدعاء الملك الأفضل. واجتمع الأمراء بالكتاب في مجلس كبير لهذا الغرض، تناول الجميع فيه الأمير بهاء الدين قراقوش بالنقد، وأشترك معهم الأسعد بن مماتي في هذا الإثم، ووصف الأمير بقوله يومئذ:

«إنه أمير مضطرب الرأي ضيق العطن»، أي ضيق الأفق، وهو وصف ذكرته المراجع التاريخية الموثوق بها.

وأكبر الظن أن كتاب الفاشوش ظهرت له شهرة كبيرة في تلك الفترة، وسمح للناس أن يتداولوه في أثنائها، لأن للسياسة من وراء ذلك فائدة كبيرة، هي النيل من هذا الأمير، وتشويه سمعته إلى الحد الذي يعتقد الناس معه أنه لا يصلح مطلقًا للوصاية على العرش.

ذهب بعض المستشرقين – وهو الأستاذ كازانوفا – إلى أن كتاب الفاشوش «يعتبر أثرًا لحادث خطير – هو سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية، وأنه يعتبر المظهر الأخير لبغض المصريين جميعًا لكل فاتح لبلادهم، وهو بغض أيقظه في نفوسهم إنهيار دولة كبيرة كالدولة الفاطمية، وقيام دولة جديدة كالدولة الأيوبية التي أفقدت المصريين إستقلالهم وإعادتهم إلى

تبعيتهم لبني العباس».

من الجائز أن يكون ذلك صحيحًا، فمصنف الكتاب وهو الأسعد بن مماتي – من صميم المصريين، وموضوع الكتاب شخصية – وإن كانت كبيرة – إلا أنها صغيرة بجانب شخصية صلاح الدين أو أسد الدين ولا يتوقع الناس خطرًا يأتيهم من جانب الشخصية الأولى، وهي شخصية الأمير بهاء الدين.

من الجائز إذن أن يكون رأي كازانوفا صحيحًا، وإن كنت لم أزل غير ميال إليه ولا معتقد

بصحته. ولا داعي هنا لأن أدخل بالقارئ في مناقشات ليس هذا مجالها، ولا مكان الأفاضة في مثلها.

الواقع أن المستشرقين من سلالة الصليبيين الموتورين من صلاح الدين ما زالوا ينظرون إلى هذا البطل العظيم نظرة لا تتفق ونظرة المصريين أنفسهم إلى أيامنا هذه. ومن ذلك أنهم زعموا لنا في كتاباتهم أن المصريين أعتبروا صلاح الدين هادمًا لقوميتهم، محطمًا لمصريتهم، راجعًا بهم القهقري إلى حيث كانوا تابعين للدولة العباسية!!

ولكن علم الله أن أهل مصر في ذلك العصر لم يكونوا يفهمون للقومية معنى، ولا للجنسية فكرة!

إنما جاءت إليهم هذه المعاني كلها مُنذ القرن الثاني عشر الهجري أو القرن التاسع عشر الميلادي. أما قبل ذلك فلم يكونوا يعرفون شيئًا من ذلك، جل أم صغر.

إن استقلال المصريين لم يتعرض للضياع من الوجود بمجيء صلاح الدين وخطبته للعباسيين، بل كل ما حدث في ذلك الحين أن أستبدل أهل

مصر دولة بدولة، وسلطانًا بآخر، وخليفة بمثله، وبقي لهم إستقلالهم الفعلي الذي لم تنقص منه تلك الإنقلابات السياسية التي حدثت. هذا كله فضلًا عن أن صلاح الدين كان في نظر المصريين والشرقيين بطل الإسلام الأوحد، والزعيم الأكبر الذي هزم الصليبيين، وطهر منهم بلاد المسلمين. وكفاه ذلك شرفًا حتى يصبح خليقًا بحبهم وإعجابهم وزعامته لهم!

***

وندع هذه الأقوال كلها، سواء ما نسب إلى المؤرخين الأقدمين أو المؤرخين المحدثين، ونصل إلى الحكم الفصل في هذه القضية التي يريد أن يحكم فيها التاريخ.

فقد سمع التاريخ قصة هذا الأمير العظيم بهاء الدين قراقوش، ونظر إلى صحيفة أعماله وأخلاقه، ثم إستعرض ما جاء بشأنه في كتاب الفاشوش فوجده على صغره ودقة حجمه مشحونًا بحكايات صغيرة يراد بها ذمه والسخرية منه والزراية عليه. فلم يتردد في أن يحكم للأمير بهاء الدين قراقوش بالعظمة الخلقية والبراءة من كل ما إتهم به من هذه الأفعال التي نسبت إليه والأقوال التي وضعت على لسانه. فلم يكن بهاء الدين إلا رجلًا من عظماء التاريخ قد إستحق ثناء السلطان صلاح الدين، كما إستحق تقدير وزيره الكبير عبد الرحيم وكبار الدولة الصلاحية التي نعمت به وبثمرة جهده.

ثم ما كان بهاء الدين إلا أهلًا لتقدير الصليبيين أنفسهم، فقد وصفوا شخصيته في كتبهم بقولهم:

-«إنها شخصية رجل محارب، له روح غريبة أدهشت الصليبيين، وأثارت إعجابهم الشديد بشخصية صاحبها ومهارته وقدرته وجلده وعزيمته، حتى نظروا إليه على أنه جندي وقديس في وقت معًا».

ونظر التاريخ يوم وفاته، فرأى كبار المؤرخين في زمانه يذكرونه بكل تقدير وتبجيل، ويعترفون له بالفضل الجزيل، ويقول أحدهم –وهو عماد الدين الأصفهاني في وفيات سنة ٥٩٧ للهجرة، وهي السنة التي مات فيها الأمير بهاء الدين قراقوش، ما نصه:

«وفيها توفى الأمير بهاء الدين قراقوش وهو من القدماء الكرماء، وشيوخ الدولة الكبراء. أمير الأسدية ومقدمها، وكريمها ومكرمها. ولم أر غيره خصيًا لم تقاومه الفحول، ولم يؤثر في عظم ما ثره المحول، وله في الفتوحات والغزوات مواقف معروفة ومقامات موصوفة، وهو الذي إحتاط على القصر حين أستتبت على متوليه أسباب النصر.. ذلك أنه لما خطب لبني العباس بالديار المصرية، تسلم القصر بما فيه، وأستظهر على أقارب العاضد وبنيه، وتولى عمارة الأسوار المحيطة بمصر والقاهرة، وأتي فيها بالعجائب الظاهرة.. وكان معاذ الإلتجاء؟ وملاذ الإرتجاء، غير أنه نسب إلى اللجاج في الخصومة، لشدة ثباته وفرط جموده، فلا يكاد بعجم لصلابة عوده إلخ»

قرأ التاريخ هذه الشهادة، وإستعاد في ذاكرته هذه العبارة وراح يرددها، ويتفحصها، ويتبينها، ويقف عند كل لفظ من ألفاظها، ويفكر في كل معنى من معانيها. وأخيرًا أصدر حكمه للمرة الثانية مؤيدًا به الحكم الذي أصدره في المرة السابقة.

ثم راح التاريخ ينحي باللائمة على هذا الأديب المشهور، الذي كتب فيه هذا الكتاب الغريب، فإعتذر الأديب عن ذلك بفظاظة في خلق الأمير، وإستشهد عليها بكلمة من كلمات العماد الأصفهاني الذي مر ذكره، وهي وصفه للأمير باللجاج في الخصومة، ثم بالعناد والصلابة والبعد كل البعد عن المرونة، حتى كرهه الناس أجمعون، إلا قليلًا من كبار الدولة كالسلطان صلاح

الدين وصديقه ووزيره عبد الرحيم

غير أن التاريخ لم يقتنع بهذه الحجة الأخيرة، ولم يدع للكاتب القبطي أن يتم هذه العبارة، ثم قاطعه بقوله له في حزم وصدق:

«لقد أسأت أيها الكاتب الأديب إلى هذا الأمير الجليل. ولو إستطعت لحكمت عليك بأن تمحو هذه السيئة بحسنة من حسناتك، فتكتب فيه كتابًا يذيع فضله، ويعلن عن مجده، ويسبح بحمده، ويدعو الناس إلى إحلاله المنزلة العليا»

* * *

أصدر التاريخ هذه الأحكام ثم لم يشأ أن يترك الأديب الأريب حتى همس في أذنه بهذه الكلمات:

«.. ومع هذا. وذاك فلا يسعني إلا أن أعجب بقلمك، وأقر لك بالقدرة على هزيمة خصمك، فتنحط به من السماء إلى الأرض، ثم لا يكفيك ذلك حتى تقبره تحتها في أكفان الذل والسخرية، بعد أن جرعته غصص الندم على سوء العاقبة!!»

فخرج الأسعد بن مماتي من محكمة التاريخ، وهو يتأذي من الحكم الذي صدر عليه، ويشعر في الوقت نفسه بلذة الفخر أو النصر على غريمه التي انهزم له، ولم يزل ابن مماتيبين عذاب الأولى ونعيم الآخرة إلى اليوم!

***

وبعد، فقد فرغنا من بحث بهذه القضية العجيبة من قضايا التاريخ. ونجحنا في أنصاف بهاء الدين قراقوش من غريمه الذي ترك في عقبه هذا الكتاب الصغير الذي شحنه بالنوادر الكاذبة والحكايات الموضوعة!

ويكفي هذا القدر في الحديث عن كتاب الفاشوش من الناحية التاريخية الصحيحة، لننتقل من ذلك إلى الكلام عن هذا الكتاب من الناحية الأدبية الخالصة.. فالذي لا شك فيه أن كتاب الفاشوش صفحة من صفحات الأدب المصري الشعبي، بنيت على السخرية، وقامت على التهكم اللاذع المرير، وجاءت مادة لا نظير لها في باب التشنيع.

ولكن ما نوع السخرية التي نجدها في كتاب الفاشوش؟ أهي سخرية من النوع الراقي؟ أم هي سخرية من نوع غير راق؟ ذلك ما نريد أن نتعرض له في الفصل الأخير من فصول الكتاب الذي بين يديك.

السخرية في الأدب

ربما كان المصريون من أكثر أُمم الأرض ميلًا إلى الضحك، ورغبة في التفكه حبًا لما نسميه في لغتنا العامية الحاضرة «بالقفشة» يعبرون بها عن إحساسهم نحو الناس والأشياء. وقد حار الباحثون في السبب الذي من أجله أغرم المصريون بالنكتة، وشغفوا مُنذ عرفهم التاريخ بالتورية أو القفشة. فمن قائل إنه من وقع الظلم عليهم، وكثرة الفاتحين لبلادهم، ووقوعهم تحت نير الأجانب أكثر من غيرهم. ومن قائل إنه الرخاء التي يعمهم والخصب الذي يأتي به نيلهم، وعدم وقوعهم في البلاء الذي وقع فيه غيرهم من الأمم حين تقسو الطبيعة عليها، وتحرمها أحيانًا الأمن والدعة، فضلًا عن سهولة الحصول على لقمة الخبز.

وللفيلسوف الفرنسي برجسون كتاب في الضحك علل فيه هذه الظاهرة. فقال إننا نضحك من شخص ما إذا أصابه تحول ما خرج به من طبيعته العادية إلى طبيعة أخرى غير عادية، وأصبح أشبه شيء بالآلة الصماء نحركها كيف نشاء. ومن أجل ذلك لا نضحك– إلا في القليل النادر من تصرفات الحيوان، وإنما إعتدنا الضحك من تصرفات الإنسان حين يفارقه المألوف لنا من طبائع الإنسان. وذلك على النحو الذي سنشرحه في السطور الآتية..

ونحن نريد فيما يلي من الكتاب الذي بين يديك أن نتحدث معك في بواعث السخرية أولًا، وضروبها وأشكالها المختلفة في الأدب بعد ذلك. ونريد أن ننتقل بك إلى الحديث عن السخرية في الأدب العربي عامة، وعن

السخرية في الأدب المصري خاصة، وعن السخرية في الأدب الأوروبي كذلك، ثم نقف بك وقفة خاصة عند الأسعد بن مماتي صاحب الكتاب الذي جرنا إلى هذه الأحاديث، أو الأثر الأدبي الشعبي الذي أتاح لنا هذه الفرصة.

***

لقد يغضب الأديب ويثور، وتشتد الخصومة بينه وبين من أثارها في نفسه، فيعمد أحيانًا إلى السباب، ينال به من خصمه، ويشفي قلبه من الحقد الذي يشعر به نحوه. وهذا ما يسمى في الأدب «بالهجاء».

وقد يغضب الأديب ويثور، ويؤثر أحيانا أن يخفي في نفسه الغضب والثورة، ويقصد إلى ضبط أعصابه متكلفًا الضحكة أو البسمة، لينال من خصمه بطريقة أخرى، هي هذه الطريقة التي يعدل فيها عن الهجو والسباب إلى لون أخر من ألوان الأدب يسمى (السخرية)!

ومعنى ذلك أن الهجاء أدب الغضب المباشر، والثورة المكشوفة، في حين أن السخريه هي أدب الضحك القاتل، والهزء المبني على شيء من الغموض. ودواعي هذا الغموض في شتى أنواع السخرية كثيرة ومتعددة: منها حرص الأديب على حياته حينًا، ومنها رغبته في إخفاء غضبه حينًا آخر، ومنها علو كعبه في العلم والثقافة. ولا غرابة في هذا فالعلم يشحذ الذكاء، والذكاء يسعف صاحبه عادة في هذه المواطن، فترى الأديب المثقف ينال من خصمه في هذه الحالة بطريقة ملتوية لا بطريقة ساذجة وهذا هو (التهكم).

وبين الهجاء والسخرية والتهكم صلات شتى تجعل كل واحد منها قريبًا من الآخر بحيث يمكن أن ينظر إليها كلها على إنها تنبع من نفس واحدة، هي النفس الحاقدة أو النفس الراغبة في الإيذاء والتنقص.

والأمور التي تبعث على السخرية توشك أن تتلخص كلها في أمر واحد هو (الغرابة) كرؤية الأقزام في بلاد العمالقة، أو رؤية السود في بلاد البيض، أو كرؤية إنسان ما وهو يتردى في حفرة على حين غرة، وهكذا.

والضحك من الناس في كل حالة من هذه الحالات قد يكون خطأ في ذاته، فليس للعملاق ذنب في طوله، ولا للقزم يد في قصره، وليس للأبيض فضل في بياضه، ولا على الأسود وزر في سواده. ولا قدرة لأحد من البشر على أن يغير من خلقته بل أنه أولى بنا أن نستشعر الشفقة والعطف على إخواننا في البشرية ممن أصابهم هذا النقص أو العيب. لولا أن هذا العيب يحمل في طياته معنى الغرابة أو إنعدام التكييف في الحياة الواقعة.

وقد تزيد هذه الغرابة التي تثير فينا الضحك حتى تصل أحيانًا إلى درجة الشذوذ أو الوضع المقلوب، أو البعد الشديد عن الطبيعة، كأن نرى رجلًا بتشبه بالنساء، أو امرأة تتصرف تصرف الرجال، أو شيخًا يتصابى، أو صبيًا يتكلف أخلاق الكبار، أو حاكمًا يركب رأسه، أو رجلًا يهرف بما لا يعرف، أو قسيسًا يتدله في الحب، أو عجوزًا تلتمس لها صبيًا يتزوجها، أو بخيلًا يبالغ في الحرص على المال، أو جبانًا يسرف في الحرص على الحياة إلخ.. والسخرية في كل هذه الحالات قائمة على فكرة المقابلة بين الحق والباطل، أو بين الصدق والكذب، أو بين الصحة والزيف، أو بين الكمال والنقص، أو بين الطبع والتكلف. وبعبارة مختصرة بين ما يكون وما ينبغي أن يكون!!

أمثلة من السخرية في الأدب العربي

في العصر الجاهلي كان الفرد يفني في القبيلة، فإذا سخر أحد من أحد فإنه يوجه السخرية للقبيلة التي ينتمي إليها، وهو واثق أن الألم لا يأتيه

ولا يحس به إلا من هذه الناحية. ومن ثم غلب على الهجاء الجاهلي ما يسمى (بالنزعة القبلية)، وذلك أن حياة العرب قبل الإسلام كانت تخضع لنظام واحد، هو نظام القبيلة.

وإستمر الهجاء العربي قبليًا طوال العصر الجاهلي ثم العصر الأموي. ومن الذي لا يعرف من الشعراء في خلافة بني أمية كلًا من جرير والفرزدق والأخطل، وقد إشتهروا في ذلك العصر بفن الهجاء. وكان أحدهم يقول لصاحبه:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابًا

فانظر إلى هذا الشاعر كيف يعبر صاحبه لا بشخصه ولكن بأنه من قبيلة «نمير» التي ليست شيئًا بالقياس إلى قبيلة «كعب» أو قبيلة «كلاب»

أغار قوم من قبيلة في العصر الجاهلي على إبل لرجل من قبيلة أخرى، وإستنجد الرجل بقبيلته فلم تنجده، فأخذ يعيرها ويهجوها بذلك، وطفق يقول لها إني لو كنت من قبيلة كذا لنصرني رجالها ولم يناموا حتى يردوا إلى الإبل التي أخذت مني:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن أساءه أهل السوء إحسانًا

كان ربك لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع الناس إنسانًا

فانظر إلى هذه الأبيات الثلاثة وحدها كيف تصور لنا حياة جاهلية صحيحة، وشعورًا جاهليًا صحيحًا، وخلقًا جاهليًا حقيقيًا، هو خلق أدنى إلى الشر، وأبعد من التسامح والتقوى وغيرهما من الأخلاق التي دعا إليها

الإسلام.

وهكذا عبر الشاعر قبيلته بأنها أضعف من أن تأخذ له بالحق! وما قيمة العربي إذا ضعفت قبيلته، وقل فيها عنصر الشر؟

ولقد أراد شاعر آخر أن يذم رجلًا من قبيلة تسمى «بني العجلان» فقال:

إذا الله جازي أهل لؤم ورقة فجازى بنى العجلان رهط ابن مقبل
قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل!!
ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوداد عن كل منهل

فانظر إلى هذا الشاعر الجاهلي كيف يعير هذه القبيلة بأنها لا تستطيع الغدر، وبأنها لا تقوى على الظلم، وبأنها لضعفها وهوانها على القبائل كلها لا ترد الماء في الصباح حين تتزاحم القبائل على الماء، وإنما ترد الماء في المساء حين تتأكد أن القبائل كلها قد إستقت ورجعت إلى خيامها.

***

وندع العصرين الجاهلي والأموي، ونصل إلى العصر العباسي فنلتقي بعدد كبير من الشعراء والكتاب كان كل منهم يحسن فن السخرية. ونطيل على القارئ إذا وقفنا عندهم، أو أخذنا نعدد أسماءهم ومواقفهم. ولكنا مكتفون هنا بطائفة قليلة جدًا من النوادر اللطيفة التي تنسب إلى بعضهم..

فمن هؤلاء «الجاحظ»:

وكان الجاحظ رجلًا واسع العلم والثقافة، فوق أنه كان من أشهر الذين حذقوا فن الكتابة.

والمهم أن يُقال أن السخرية في العصر العباسي لم تصبح قبلية، كما كانت في العصرين الجاهلي والأموي، ولكنها أصبحت على أنواع: فمن السخرية ما يقصد به إلى ذم الفرد، ومنها ما يقصد به إلى ذم الجماعة أو طائفة من طوائف الدين أو المهنة أو المجتمع.. وفي الأدب العباسي أمثلة كثيرة من النوعين معًا.

وقد سخر الجاحظ من كل طائفة من طوائف المجتمع العباسي... سخر من المعلمين، وسخر من كتاب الدواوين، وسخر من الباعة في السوق، وسخر من الجند، وسخر من المجانين، وسخر من النساء، وسخر من الرجال. وإعترف الجاحظ على نفسه بأنه ما غلبه أحد قط إلا امرأة. ثم قال ما معناه:

إنه تعقب يومًا ما امراة جميلة من نساء بغداد في الطريق، فتركته المرأة يمشي وراءها حتى وصل إلى دكان صايع يحفر الصور فقالت لصاحب الدكان: «كنت قد طلبت منك صورة عفريت تحفرها على خاتمي هذا، وقد أتيت لك بنموذج منه، فإصنعه على هذا النحو» وأشارت إلى الجاحظ، فخجل الجاحظ من نفسه وعاد مسرعًا إلى بيته!

وحكي عن الجاحظ أنه ألف كتابًا في نوادر المعلمين، وما هم عليه من الحمق والغفلة. ثم رجع عن ذلك، وعزم على تقطيع الكتاب ثم عاد إلى كتابته، وأخبر بذلك عن نفسه. قال: «دخلت يومًا مدينة، فوجدت فيها معلمًا في هيئة حسنة، فسلمت عليه، فرد على أحسن رد، ورحب بي، فجلست عنده، وباحثته في القرآن، فإذا هو ماهر فيه. ثم فاتحته في الفقه والنجوم وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الأداة. فقلت: هذا والله مما يقوى عزمي على تقطيع الكتاب، ثم كنت أختلف إليه وأزوره. فجئت يومًا

لزيارته، فإذا الكتاب مغلق ولم أجده. فسألت عنه فقيل لي: مات له ميت، فحزن عليه، وجلس في بيته للعزاء. فذهبت إلى بيته، وطرقت الباب، فخرجت إلى جارية وقالت: ما تريد؟

قلت: سيدك

فدخلت إليه، وإذا به جالس. فقلت: أعظم الله أجرك. فقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة... كل نفس ذائقة الموت. فعليك بالصبر... إلخ

ثم قلت له:

- هذا الذي توفي ولدك؟ قال: لا

قلت: فوالداك؟ قال: لا

قلت: فأخوك؟ قال: لا

قلت: فزوجتك؟ قال: لا

قلت: فما هو منك؟ قال: حبيبتي

قلت في نفسي: هذا أول المناحس!

وقلت له: سبحان الله. النساء كثير، وستجد غيرها..

قال: أتظن أني رأيتها؟

قلت: وهذه منحسه ثانية!

ثم قلت وكيف عشقت من لم تره؟

قال: أعلم أني كنت جالسًا في هذا المكان، وأنا أنظر من الطاقة إذ رأيت رجلًا عليه برد، وهو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردي على فؤادي أينما كانا (إلخ)

فقلت في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر. فعشقتها، فلما كان مُنذ يومين من ذلك الرجل نفسه وهو يقول:

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت: إنها ماتت! فحزنت عليها، وأغلقت الكتاب، وجلست في الدار.

فقلت: ما هذا! إني كنت ألفت كتابًا في نوادركم يا معشر المعلمين، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه، والآن قد قويت عزمي على إبقائه. وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله!

وللجاحظ رسالة عنوانها «التربيع والتدوير» وهي رسالة كبيرة كتبها في ذم رجل إسمه «أحمد بن عبد الوهاب»، وكان هذا الرجل من كتاب الديوان العباسي، فأراد الجاحظ أن يسخر بالكتاب الديوانيين جميعًا في شخصه. ولكنا نعتذر للقارئ عن وصف هذه الرسالة الأخيرة، وعن الطريقة التي إتبعها الجاحظ في السخرية من أحمد بن عبد الوهاب ومن عقله، ومن قصره، ومن جهله، ومن غفلته، ومن إدعائه العلم والطول والذكاء في نفس الوقت.

نعتذر عن ذلك لأن الجاحظ بنى هذه السخرية على طريقة لا يفهمها غير العارفين بالنحو واللغة والعروض والفلسفة اليونانية وعلم الكلام وغير ذلك من الثقافات التي لا أحسب الكثيرين من قراء هذا الكتاب يعنون بها لعدم حاجتهم إلى ذلك.

***

وندع الجاحظ بكتبه الساخرة التي لا حصر لها وننتقل إلى طائفة أخرى من الشعراء نمر بهم سر، ونكتفي بالأمثلة القليلة لكل واحد منهم على حدة

ولست أريد أن أحدثك عن بشار ولا أبي نواس ولا عن والبة إبن الحباب، ولا عن رجل من رجال هذه الحلبة. ففي سخرية هؤلاء ضرب من ضروب الأفحاش لا يسيغه ذوق القارئ المثقف في أيامنا هذه!

وإنما أريد أن أمر بك سريعًا على رجل كإبن الرومي وآخر كأبي الطيب المتنبي، وربما وقفنا وقفة قصيرة أيضًا عند أبي العلاء المعري. وسنكتفي بهؤلاء الثلاثة خشية الإطلالة، فليس قصدنا في هذا الكتاب إلا إضحاك القارئ من جهة، وعرض النماذج المختلفة من السخرية والهجاء من جهة ثانية، ثم الموازنة السريعة بين هذه النماذج العربية والنماذج المصرية التي سنلم بها إلمامه أخرى كذلك فيما بعد

تعرض «ابن الرومي» لهجاء رجل ذي لحية فقال:

لو غاص في الماء بها غوصة صاد بها حيتانه أجمعًا

وتعرض لهجاء رجل طويل الأنف فقال:

حملت أنفًا يراه الناس كلهمو من رأس ميل عيانًا لا بمقياس
لو شئت كسبًا به صادفت مكتسبًا أو انتصارًا مضى كالسيف والفأس

وقال يصف بخيلًا اسمه عيسى:

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

وأما المتنبي فقد إشتهر في تاريخ الأدب العربي بالسخرية المرة من كافور الأخشيدي. وكان هذا الرجل ملكًا على مصر، وكان أسود اللون، وقيل أن المتنبي قصده وهو بمصر، وخذ يمدحه لا طمعًا في أن يجود علبه بمال،

ولكن طمعًا في أن يجود عليه بولاية من ولايات مصر يكون أميرًا عليها، ولكن كافورًا لم يكن من الغفلة بحيث يجيب هذا الشاعر المغرور إلى ما طلبه من ملك مصر– لا بطريق المشافهة، ولكن بطريق السؤال غير المباشر أو الخفي– فلم يكن من أبي الطيب المتنبي– بعد أن إستيأس من كافور– إلا أن إنهال عليه ذمًا وقدحًا وسخرية وتجريحًا، وعاد بعدها من مصر إلى العراق.

ولم يجد المتنبي في كافور إلا موضعًا واحدًا يمكن أن يدخل عليه منه، وهذا الموضع هو أنه أنه أسود في لون العبيد، فهجاه هجاءً مقذعًا من هذه الناحية.

ومن أقواله في ذلك، وما أكثر ما قال:

وأسود مشفره نصفه يقال له أنت بدر الدجى

وكم ذا بمصر من المضحكا ت ولكنه فحك كالبكا

وقال:

وتعجني رجلاك في النعل إنني رأيت ذا نعل وإن كنت حافيًا

وأما داليته المشهورة فلعلها أشد ما نظمه المتنبي في هجاء كافور وهجاء المصريين، وهي القصيدة التي أولها:

عيد بأي حال عدت يا عبد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

ومنها في ذم أمراء مصر وغنيمهم:

نامت نواطير مصر عن تعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد[١]

---

[١] نواطير جمع ناطور، وهو خشبة يلبسها الفلاح ثوبا ليزجر بها الطيور والحيوان عن الحقل. وبشمن أي شبعن إلى حد التخمة

ومنها في ذم كافور نفسه:

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد

لأشتر العبد إلا والعصى معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

وندع المتنبي كذلك ونصل إلى «أبي العلاء»، وهو شاعر فيلسوف سخر من الحياة كلها ومن الناس كلهم. وشعره ونثره كلاهما مملوءان بهذا السخر الذي لا ينتهي. ومما كتبه نثرًا في السخرية رسالته التي عنوانها: «رسالة الغفران»، وفيها يتصور أن صديقًا له إسمه «إبن القارح» إلتقى بالشعراء والعلماء في اليوم الآخر، فوجد نصهم في جهنم، ووجد بعضهم في الجنة، لأن الله تعالي غفر له بسبب بيت من الشعر. وهناك في اليوم الآخر شهد «إبن القارح» بنفسه معارك شتى بين الشعراء، كالمعركة التي دارت بين شاعرين من شعراء العصر الجاهلي، هما «الأعشى» و «النابغة الذبياني». وفيها يتعدى كل من الشاعرين على صاحبه بألفاظ نابية، ويقول أحدهما لصاحبه الذي ظفر دونه بدخول الجنة:

«ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت إنه غلط بك»

وفي هذه العبارة وأمثالها من عبارات أبي العلاء في رسالة الغفران، من السخرية بالأديان ما لا يخفي..!

ثم يطوف «إبن القارح» برياض الجنة، فيشهد فيها منظرًا يدعو إلى الضحك من أهلها. إذ يمر على جماعة من الأوز الذي وهبها الله القدرة على التكلم فيقول لها: ما شأنك هنا؟

فتقول الأوز: ألهمنا الله تعالى أن نسقط على هذه الروضة وتغني لمن فيها..

فيقول: على بركة الله التدبر.

فينتفضن فيصرن جواري كواعب يرفلن في حرير الجنة، وبأيديهن آلات الموسيقى. فيقول إبن القارح لبعض شعراء أهل الجنة:

«إن الله جلت قدرته من علينا بهؤلاء الحور العين، واللواتي حولهن عن خلق الأوز، فإختر لنفسك واحدة منهن، فلتذهب معك إلى منزلك لتغني لك أرق الألحان، وتسمعك ضروب الأوزان».

فيقول شاعر آخر من شعراء الجنة:

«إن أخذ هذا الشاعر مغنية، وأخذ غيره مثلها، أليس ينتشر خبرها في الجنة فلا يؤمن أن يسمي هؤلاء جميعًا أزواج الأوز..؟» .. إلخ.

وفي موضع آخر من مواضع رسالة الغفران يقول أبو العلاء:

«... فيقول الملك خذ ثمرة من هذا الثمر فإكسرها، فإن هذا الثمر يعرف «بشجر الحور». فيأخذ سفرجلة، أو رمانة، أو تفاحة، أو ما شاء الله من الثمار، فيكسرها، فتخرج منها جارية حوراء عيناء، فتقول: من أنت يا عبد الله؟ فيقول: أنا فلان بن فلان. فتقول:

إن الله يمنيني بلقائك قبل أن يخلق الدنيا بأربعة آلاف سنة» ...

على هذه الطريقة يجري ابو العلاء على ألسنة الشعراء ألفاظًا يفهم منها الناس معنى السخرية بأهل الجنة.. ولم لا يستحق هؤلاء السخرية..؟ أليس منهم أزواج الأوز..؟

وأزواج السفرجل؟ وأزواج التفاح؟ وأزواج الرمان؟ وما شاءوا وشاء الله من الثمار..؟

وهكذا يضحك «إبن القارح» من أهل الجنة، ثم يضحك أخيرًا من نفسه، فلقد جعله أبو العلاء في رسالة الغفران بمشي على الصراط، فلا يستطيع أن يتماسك، ويخشى على نفسه الزلل والوقوع في نار جهنم، فينادي على جارية من جواري فاطمة الزهراء كانت قريبة منه، ويدعوها إلى إنقاذه ومساعدته، ويقول لها بعد ذلك:

ســـــت إن أعيـــــاك أمـــــري فـــــــــاحمليني زقفونـــــــــة!

وإذا ذهبت تسأل أبا العلاء نفسه عن معنى «زقفونة» لتعثر في الجواب، ولربما قال: زقفونة– أي تحمله ظهرًا لظهر كما يفعل الصبيان في بعض ألعابهم.

والمعري في كل ذلك يسخر من يوم القيامة، ومن الجنة، ومن النار، ومن الشفاعة، ويجعل من علي بن أبي طالب مصلحًا بين الملائكة، قاضيًا بينهم، ثم يجعل منه حارسًا على الحوض، لا يسقي منه أحدًا إلا أن يكون من شيعته. ويجري أبو العلاء على لسان «أوس بن حجر» من شعراء الجاهلية قوله: «ولقد دخل الجنة من هو شر مني، ولكن المغفرة أرزاق كأنها النسب في الدار العادلة!».

ولا ينجو من سخرية المعري في رسالة الغفران كل من الكفرة والزنادقة، وعلماء الكلام أو الجدل الديني. كما لا ينجو منها المؤمنون والصالحون، ولا ينجو منها حتى إبليس، فيعذبه في النار عذابًا أليمًا بأيدي زبانية جهنم، ويحدث بينهم وبينه قصصًا شتى.

ولا ينسى أبو العلاء أن يسأل بسخرية كذلك العلماء واللغويين وأصحاب النحو. وأخيرًا بعمم في القول فيسخر من الأديان السماوية كلها

سخرية مرة، وينقل في ذلك قول يهودي في هجاء عمر بن الخطاب، وكان عمر يكنى بأبي حفص.

يصول أبو حفص علينا بدرة[1] رويدك أن المرء يطفو ويرسب
فلو كان موسي صادقًا ما ظفرتمو علينا، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المين[2] فإعرفوا لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا ومطلبكم في أن تسودوا وترهبوا

وعلى هذا النحو يمضي المعري في رسالة الغفران فيضحك هذا الضحك الهادئ المتصل، وهو ضحك يصدر فيه الفيلسوف عن خلق وادع، ومزاج رقيق، وحس دقيق، وحذر شديد، وحياء من الناس أشد.

هذه صورة من صور السخرية في المشرق خليق بنا أن نذكر صورة مقابلة لها في المغرب. وذلك قبل الخوض في السخرية المصرية.

وربما كانت «الرسالة الهزلية لإبن زيدون الأندلسي» في ذلك من خير الأمثلة، فلا بأس من أت نلم بها إلمامه عاجله.

قيل في سبب إنشاء هذه الرسالة:

إنه كانت بقرطبة إمرأة ظريفة من نساء الخلفاء الأمويين تسمي «ولادة بنت المستكفي بالله» نكب أبوها وقتله ملوك الطوائف. ثم صارت هذه المرأة العظيمة تجلس للكتاب والشعراء، وتعاشرهم وتحادثهم وتسامرهم. وتعشقها الكبراء منهم، وكانت فوق جمالها ذات خلق حسن، وأدب غض، ونوادر

([1]) الدرة بكسر الدال وتشديد الراء عصا كان يمسك بها عمر ويؤدب بها الناس في الطريق.
([2]) المين هو الكذب.

عجيبة ونظم جيد.. إلخ. وكان إبن زيدون كثير الشغف بها، والميل إليها، والغزل بمحاسنها.

ثم أن الوزير (أبا عامر بن عبدوس) كان هو أيضًا قد هام بها وكلف بمعاشرتها، وكانت ولادة كثيرة العبث به، ولها معه نوادر ظريفة.

أما الباعث المباشر لإبن زيدون على كتابة هذه الرسالة، فهو أن إبن عبدوس لما سمع بها أرسل إليها إمرأة من قبله تستميلها إليه، وتذكر لها محاسنه ومفاخره، وترغبها في التفرد بمواصلته. فبلغ ذلك إبن زيدون، فكتب هذه الرسالة، وضمنها سب أبي عامر والتهكم به، وجعلها جوابًا على لسان ولادة. فذاعت هذه الرسالة، وطال ذكرها، وإشتهر أمرها. وتاب ابن عبدوس عن حب ولادة، ولم يعد له طمع فيها، حتى إنتقل إبن زيدون إلى أشبيلية ومات بها.

ويبدأ (الرسالة الهزلية) بقوله:

«أما بعد! أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين غلطه الفاحش سقطه سقط، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب، فإن الغضب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب.. إلخ».

ومضى إبن زيدون في رسالته هذه وقد بناها كلها على قاعدة: «التبكت» لإبن عبدوس، قائلًا على لسان المرأة التي بعث بها إلى ولادة:

«.. وإنه لأجمل من يوسف، وأغنى من قارون، وأعظم من كسرى، وأجل من قيصر، وأكبر من الإسكندر.. وبنات الملوك في فارس تتنافس في حبه، وبلقيس غايرت الزباء من أجله، والسموأل إنما قلده في الوفاء بالعهد، والأحنف بن قيس إنما تشبه به في الحلم، وإن حاتمًا لم يفعل أكثر من أنه

لقي الأضياف على طريقته، وإياس بن معاوية إنما إستضاء بمصباح ذكائه.. إلى آخر ما أتى به بن زيدون من هذه الأوصاف الدالة على معرفة بالتاريخ العربي والأمثال العربية وأبطال العرب في ميدان من ميادين الحياة العامة.

ثم ينتقل إبن زيدون من طريقة التبكيت في رسالته إلى طريقة الذم الواضح والهجاء الصريح، فيقول:

«كلامك تمتمة، وحديثك غمغمة، وبيانك فهفهة، وضحكك قهقهة، ومشيك هرولة، وغناك مسألة، وعلمك مخرفة..».

ولا شك في أن إبن زيدون لم يبلغ في سخريته على هذه الطريقة بعض ما بلغه رجل كالجاحظ أو أبي العلاء المعري وغيرهما من كتّاب الشرق وشعرائه، ولا يصح أن يقاس بهم أو يوزن بميزانهم. ولذلك لا نريد أن نمضي مع ابن زيدون في رسالته هذه، لأنه لم يتخذ لها أساسًا غير أساس التبكيت من جهة، والذم الصريح على عادة العوام من الناس من جهة ثانية.

وكأني بقارئ هذه الرسالة الهزلية يهش لها أول الأمر، ثم لا يلبث أن يضيق بها، ويسأم من طُرق أدائها.

السخرية في مصر

قلنا أن مصر ربما كانت من أكثر أمم الشرق ميلًا إلى الضحك وإلى السخر. وقلنا أن من أسباب ذلك في حقيقة الأمر طول وقوعها تحت سيطرة الأجنبي.

فحين يعجز أهلها عن التغلب على الحكام الأجانب عنهم لا يجدون أمامهم سوى الضحك والسخرية: تكون مكشوفة حينًا، وتكون مستورة أحيانًا. ويسلك المصري في سبيل ذلك طرقًا شتى، فمرة يعتمد على السباب السافر مع تكلف الجنون الذي لا يعاقب صاحبه على مثله.

وذلك كما حدث من رجل يسمى في التاريخ بإسم (سيبويه المصري)، ربما سقنا لك طرفًا من نوادره. وأخرى يسلك سبيل التشنيع الذي يقصد به رجل بعينه من رجال الدولة الأجنبية في الظاهر، ويراد به جميع رجال الدولة كلها في الباطن، كما كان من أمر الأسعد بن مماتي في كتاب الفاشوش– وذلك إن صحت آراء الباحثين الأوربيين في هذا الكتاب كما أسلفنا ، وفي ثالثة يختفي الأديب الساخر وراء الرؤى والمنامات يحكي فيها كل ما يريد حكايته عن كبراء الدولة، كما كان الأمر مع أديب مغربي اسمه «الوهراني» حين سخر من رجال الدولة الأيوبية، وسيأتي ذكر ذلك.

والمهم أن الكلام كله في هذه السخرية بأنواعها موجه إلى الحاكم الذي يبغضه المصريون في الباطن، ولكنهم مضطرون إلى إظهار الرضى عنه والطاعة له.

ومن السخرية المصرية ما كان موجهًا إلى نقد طبقة بعينها من طبقات المجتمع، أما لإظهار عيوبها، وإما لحث ذوي السلطان على إصلاحها، كما كان الشأن مع صاحب كتاب (هز القحوف) الذي سخر فيه من أهل الريف، وكان الريف المصري في العهد العثماني مبالغًا في إهماله حتى أصبح يخيم عليه الجهل في أبشع صوره، والجوع والعرى في أحط درجاتهما.

ثم من السخرية المصرية ما قصد به كذلك إلى ذم طائفة من الأخلاق الخاصة كخلق التطفل، وخلق البخل، وخلق التنطع، وخلق التزمت، ونحو ذلك. وسنرى أمثلة منه في سخرية البهاء زهير.

ثم من السخرية المصرية ما بنى على المفارقات العجيبة، كما هو الشأن مع رجل من أكبر الساخرين الماجنين من المصريين، وإسمه (إبن سودون).

وأما في العصور الحديثة فقد بنيت النكتة المصرية على التورية وإستغلال المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة. ومن ثم جاءت النكتة المصرية _وما زالت إلى يومنا هذا_ لفظية في أكثرها، وربما عرضنا لأمثلة منها في نهاية هذا الفصل...

***

في العصر الطولوني وبعض العصر الإخشيدي عرفت مصر شخصية عجيبة كل العجب في تاريخها، هي شخصية (سيبويه المصري) وكان رجلًا يظهر الحمق والجنون، واشتهر عنه ذلك. فإختفى هو وراء هذه الصفة، وأخذ يهجو الحكام والأمراء ولا يستطيع أحد منهم أن يأخذه بقوله لأنه مجنون. ولكن الناظر في نكاته وأهاجيه يحس إحساسًا عميقًا إنه في الواقع إنما يعبر عن الشعب المصري في زمانه أصدق تعبير.

وكان من عادته أنه يغشي الأسواق العامة. ويهجو السادة والحكام بصوت عالٍ، فيجتمع الناس حوله، ويستمعون له ويضحكون ثم ينصرفون.. والعجيب في الأمر أن هجاء سيبويه لم يكن بذيئًا في لفظه، أو نابيًا في صورته، وإنما كان هجاء يمكن أن يوصف بأنه عفيف، وكان كثيرًا ما يشتمل على آيات قرآنية، أو أحاديث نبوية، أو حكم ومواعظ، أما من تأليفه أو تأليف سواه.

فمن ذلك أنه كان يطوف بحماره يوم جمعة، فرأى الناس محتشدين لرؤية موكب الأخشيد أثناء مروره للصلاة، فتوسط الجموع وصاح فيها قائلا:

«ما هذه الأشباح الواقفة، والتماثيل العاكفة، سلطت عليهم قاصفة، يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة.. إلخ..».

فقال له رجل من الواقفين: «هو الأخشيد نزل إلى الصلاة» فقال: «هذه للأصلع البطين، المسمن البدين، قطع الله منه الوتين، ولا سلك به ذات اليمين. أما كان يكفيه صاحب، ولا صاحبان، وحاجب، ولا حاجبان، وتابع ولا تابعان؟ لا قبل الله له صلاة، ولا قرب له زكاة، وعمر بجثته الفلاة!».

وعلى هذا النحو طفق سيبويه المصري يذم الأخشيد، ويشير العجب في نفوس الجماهير المحتشدة لإستقباله في الطريق. والجماهير نفسها، تضحك من أسجاع سيبويه، وتجد في أعماق قلوبها رضى عما يقوله هذا الشاعر الذي يتكلف الجنون والتمثل.

***

وضاق المصريون ذرعًا بالدولة الفاطمية، وذلك مُنذ أخذت تستخدم اليهود في الدواوين الحكومية، وتغدق عليهم من الهبات والأعطيات والتحف والهدايا: فتهكم بعضهم من اليهود وبالدولة الفاطمية في ذلك الزمان فقال:

يهـود هـذا الزمـان قـد بلغـوا غايـة آمـالهم وقـد ملكـوا
العـز فـيهم والمـال عنـدهمو ومـنهم المستشـار والملـك
يا أهل مصر إني قد نصحت لكم تهـودوا قـد تهـود الفلـك

وقد كان لهذه الأشعار وأمثالها أثر كبير في سياسة الفاطميين الذين أخذوا يعدلون شيئًا فشيئا عن الإستهانة باليهود في وظائف الدولة.

ونحن نعرف أن الفاطميين دخلوا مصر وإدعوا فيها لأنفسهم نسبًا إلى فاطمة الزهراء، فأخذ المصريون يتغامزون عليهم من هذه الناحية، وبلغت الجرأة بأحدهم أن رمي للخليفة الفاطمي «العزيز» ورقة في المنبر، فلما صعد الخليفة للخطبة يوم الجمعة، أخذ الورقة، فإذا مكتوب فيها:

إنـا سـمعنا نسـبًا منكـرًا يتلـى علـى المنبـر فـي الجـامع
إن كنـت فيمـا تـدعى صـادقًا فـاذكر لنـا بعـد الأب الرابـع
أو فـدع الأنسـاب مسـتورة وادخـل بنـا فـي النسـب الواسـع

والنسب الواسع هنا هو نسب الناس جميعًا فيما عدا بنى هاشم الذين منهم السيدة فاطمة رضي الله عنها.

ولم يكتف المصريون بذلك، بل أخذوا يتغامزون كذلك على الفواطم في أمر آخر زعموه لأنفسهم أيضًا، وهو علم الغيب. فجرؤ في بعض المصريين ورمي في المنبر ورقة أخرى قال فيها:

بـالظلم والجـور قـد رضـينا ولـيس بـالكفر والحماقـة
إن كنـت أعطيـت علـم غيـب فقـل لنـا كاتـب البطاقـة

أما العصر الأيوبي فلسنا ندري لماذا كثر فيه الساخرون من الكتّاب والشعراء كثرة عظيمة، ولماذا شاع فيه الضحك والمرح إلى درجة كبيرة، مع أن العصر عصر جد، ويكفي أن تعرف أنه عصر الحروب الصليبية وما أدراك ما الحروب الصليبية، فإنها قد أصابت المصريين وأهل الشرق القريب بطائفة من المحن والبلايا لا يستطيع هؤلاء نسيانها، وما زالت الإنسانية ترتجف حين تذكرها.

ولكن للقدر مفارقاته العجيبة، فحيثما تجد الغنى الفاحش، لابد أن ترى إلى جانبه الفقر المدقع، وحيثما تجد الكرم المشرف تجد إلى جانبه الشح القاتل، وحينما تجد الحزن والكآبة تجد معها المرح والدعابة.

وبحسبنا هنا أن نشير من الشعراء الفكهين إلى البهاء زهير ومن الكتاب الساخرين – فيما عدا الأسعد بن مماتى – إلى الرجل الذي أشرنا إليه من قبل، وهو الوهراني.

كان البهاء زهير مشهورًا بشعبيته في الشعر، وخفة روحه حتى في الهجاء. وليس هجاء هذا الشاعر المصري في الحقيقة إلا ضربًا من ضروب الفكاهة المصرية والدعابة الشعبية التي نطلق عليها نحن في أيامنا هذه إسم (التريقة).

قال مرة يذم إمرأة:

كـــم ذا التصـــاغر والتهـــابي غالطـت نفسـك فـي الحسـاب

لـــم تبـــق فيـــك بقيـــة إلا التعلـــــل بالخضـــــاب

لا أقتضـــــيك مـــــودة رفـــع الخـــراج مـــن الخـــراب

وقال ينم عائدًا عاده في مرضه:

وعائـــــد هـــــو ســــــقم   لكــــل جســــم صــــحيح
لا بالإشــــــارة يـــــدري   ولا الكــــــلام الصــــــريح
ولـــــــيس يخـــــرج إلا   تكــــاد تخـــرج روحــــي

وقال يذم شخصًا بالثقل:

بحـــــــق الله متعنـــــــي   مـــــن وجهـــك بالبعــــد
فمـــــا أشـــــوقني منــــك   إلــــى الهجـــران والصـــد
ومـــــا تصــــلح للهــــزل   ومـــا تصـــلح للجـــد
فــــلا صـــبحت بـــالخير   ولا مســــــيت بالســــــعد

وقال يذم شيخًا:

كلمــــا قلـــت اســــترحنا   جاءنـــا الشـــيخ الإمــــام
فاعترانـــــا كلنــــا منـــــه   انقبـــــاض واحتشـــــام
وعلــــى الجملــــة فالشــــيخ   ثقيــــــل والســـــلام

وقال يذم رجلًا ذا لحية:

وأحمـــــــق ذي لحيــــــة   كبيـــــرة منتشـــــرة
طلبــــت فيهــــا وجهـــه   بشــــــدة فلـــــم أره

وقال يداعب صديقًا له:

لـــك يــــا صــــديقي بغلـــة   ليســـت تســاوي خردلـــة

تمشي فتحسبها العيون على الطريق مشكلة[1]
وتخال مدبرة إذا ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطويلة حين تسرع أنملة
تهتز وهي مكانها فكأنما هي زلزلة

وأما «الوهراني» فهو عبد الله محمد الوهراني، أحد الفضلاء الظرفاء. قدم الديار المصرية في أيام صلاح الدين، فلما دخل البلاد ورأي بها القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، وتلك الحلبة، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، ولا تنفق سلعته مع وجودهم، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل، وعمل المفاجآت والرسائل المشهورة، وهي كثيرة الوجود بأيدي الناس، وفيها الدلالة على خفة روحه، ورقة حاشيته، وكمال ظرفه.

هكذا حدثنا مؤرخ من مؤرخي الدولة الأيوبية وإسمه (إبن خلكان).

والواهراني نسبة الى (وهران) في بلاد المغرب. وكان المغاربة مكروهين من أهل مصر في ذلك العصر، أي مُنذ العصر الفاطمي الذي كان يعامل فيه الخلفاء الفاطميون بني جنسهم من المغاربة معاملة طيبة تفوق معاملتهم لأهل مصر. فكثر تهكم المصريين بالمغاربة، وإستمروا على ذلك طوال العصر الفاطمي. ومن ذلك أن أهل مصر كانوا إذا، وصفوا رجلًا بكثرة الكلام مع الغلظة والإدعاء والسفه والغباوة سموه «بالمغربي»!

وجاء الوهراني هذا من بلاده إلى مصر في طلب وظيفة من وظائف ديوان الإنشاء، فحيل بينه وبين ذلك. فلم يسعه إلا أن أخذ يتهكم بعلماء

(1) مشكلة مقيدة.

مصـر وقضـاتها، وفقهائهـا وكتابهـا وشـعرائها ووزرائهـا، وكـان الغـرض الأول والأخير من سخرية الوهراني هو النيل من كبار الدولة الأيوبية، حتى يخافوه ويضطروا إلى إسكاته بمساعدته في الحصول على وظيفة.

ومن رسائل الوهراني التي كتبها على لسان بغلته إلى الأمير عز الدين موسك (من أمراء الدولة الأيوبية وإليه ينسب شارع الموسكي المشهور بالقاهرة):

بسم الله الرحمن الرحيم

المملوكة (ريحانة) بغلة الوهراني، تقبل الأرض بين يدي المولى عز الدين حسام أكبر المؤمنين، نجاه من حر السعير، وعطر بذكره قوافل العير، ورزقه من القرط والتبن والشعير، وسق مائة ألف بعير، وأستجاب فيه صالح الأدعية من الجم الغفير، من الخيل والبغال والحمير.. وتشكو ما تقاسيه من مواصلة الصيام، وسوء القيام، والتعب في الليل والدواب نيام. قد أشرفت مملوكته على التلف، وصاحبها لا يحتمل الكلف، ولا يوقن بالخلف، ولا يحل به البلاء العظيم إلا في وقت حاجتي إلى القضيم، لأنه أقل في بيته من الأمانة في الأقباط، والعقل في رأس قاضي سنباط. فشعره أبعد من الشعري العبور[1]، لا وصول إليه ولا عبور. وقرطه أعز من قرط مارية ، لا يخرجه بيع ولا هبة ولا عارية. والتبن أحب إليه من الإبن، والقضيم بمنزلة الدر النظيم. وأما الفول فمن دونه ألف باب مقفول. فما يهون عليه أن يعلف الدواب إلا بعيون الآداب، والفقه اللباب، والسؤال والجواب. وما عند الله من الثواب.

---

(1) نجم في السماء

ومعلوم يا سيدي أن البهائم لا توصف بالحلوم، ولا تعيش بسماع العلوم، ولا تطرب إلى شعر أبي تمام، ولا تعرف الحارس إبن همام، ولا سيما البغال التي تشتغل في جميع الأشغال. حفنة من القصيل أحب إليها من كتاب التحصيل، وقفة من الدريس أحب إليها من فقه محمد إبن إدريس[1] ، ولو أكل البغل كتاب المقامات مات، فإن لم يجد إلا كتاب الرضاع ضاع. ولو قيل له أنت هالك إن لم تأكل (موطأ) [2] مالك، ما قبل ذلك

وكذلك الجمل لا يتغذي بأشعار الجمل، وحزمة من الكلأ أحب إليه من شعر أبي العلا، وليس عنده بطيب شعر أبي الطيب.

وأما الخيل فلا تطرب إلا لسماع الكيل. وإذا أكلت كتاب الذيل، ماتت في النهار قبل الليل، والويل لها ثم الويل.. وإذا أطعمت الحمار شعر إبن عمار، حل به الدمار، وأصبح منفوخًا كالطبل على باب الإصطبل.

وبعد هذا كله قد راح صاحبها (يريد صاحب ريحانة يعني نفسه) إلى العلاف، وعرض عليه مسائل الخلاف [3] وطلب من تبنه خمس قفاف، فقام إليه بالجفاف [4] فخاطبه بالتقعير، وفسر له آية العير، وطلب منه ويبة شعير، فحمل على عياله ألف بعير.

فانصرف الشيخ منكسر القلب، مغتاظًا من الثلب [5]، وهوانجس من إبن بنت الكلب! إلتفت إلى المسكينة (يريد ريحانة)، وقد سلبه الغيظ ثوبه

([1]) هو الإمام الشافعي رضي الله عنه

([2]) إسم لكتاب الامام مالك في الفقة

(٢) يريد مسائل الخلاف في النحو

([4]) جمع خف وهو النعل

([5]) الثلب السباب والشتم

السكينة، وقال لها: إن شئت أن تكدي فكدي، لاذقت شعيرًا ما دمت عندي.

فبقيت المملوكة حائرة، لا قائمة ولا سائرة. فقال لها العلاف: لا تخرجي من حباله، ولا تبعدي عن سباله [1] ولا تنظري إلى نفقته، ولا يكون عندك أحسن من عنقفته.

هذا الأمير عز الدين، سيف المجاهدين، أندى من الغمام، وأمضى من الحسام، وأبهي من البدر ليلة التمام، يرثي للمحروب، ويفرج عن المكروب، وهو من بني أيوب، لا يرد قائلًا، ولا يخيب سائلًا..

فلما سمعت المملوكة هذا الكلام، جذبت الزمام، ورفست الغلام، وقطعت اللجام، وشقت الزحام، وطرحت خدها على الأقدام. ورأيك العالي والسلام».

ما أظرف هذه الرسالة؟ لا شك أن الوهراني حين عمد إلى هذه الطريقة في الطلب كان موفقًا في غرضه، وكأنه كان مدفوعًا إلى ذلك بيأسه من الوظيفة التي أتى إلى مصر من أجلها.

ثم من رسائل الوهراني كذلك رسالة تهكم فيها برجال الدين، وبكثرة ما يقومون به من الصلاة والصيام، وموائد الطعام في رمضان.

فقال في رسالته هذه مخاطبًا بعض القضاة:

«كلما ذكرت تلك الموائد الخصيبة، وما يجري عليها من الخواطر المصيبة، علم أن التخلف عنها هو المصيبة. لكنه إذا ذكر ما يأتي بعدها من القيام والقعود، والركوع والسجود، علم أن أجرة ما يأكله في تلك الوليمة،

---

(1) سباله: شواربه.

نحو من عشرين تسليمة، كل لقمة بنقمة، ما تحصل له الشبعة إلا بأربعين ركعة، فتكون الدعوة عليه لا له، والحضور في الشرطة أحب إليه.

فزهدت حينئذ في الوصول، وقنعت بالمحصول. إذ ليس لي من الدين، ولا قوة اليقين ما أترك معه الراحة تحت المراويح إلى القيام بسنة التراويح، فموعد الإلمام إنقضاء شهر الصيام».

وتهكم الوهراني بالشعراء في رسالة له سخر فيها من شاعر إسمه (الكندي) فخر بنفسه في قصيدة جاء فيها قوله:

سبقت إلى غايات كل فضيلة سبقت إلى إدراكها العرب والعجما

قال الوهراني: فهذا البيت المصيبة العظمى، والطامة الكبرى، وليس ينبغي أن يجاوب فيه إلاإلا في بجواب الفتي الأمي لعدي بن الرقاع، وهو أن يحضره بعض السلاطين ويقول له:

أنت قلت سبقت إلى غايات كل فضيلة (البيت)

فيقول له: نعم.

فيرمي له قوسًا، ويقول له: إنزع هذا القوس بكل قواك.

فيقول: ما أقدر.

فيقول السلطان: أصفعوه. فيصفع.

ثم يقدم له فرسًا ورمحًا ودرعًا، ويقول له: قاتل هذا الغلام بهذا السلاح

فيقول: ما أقدر ولا أعلم. فيصفع.

ثم يقول له: حل لنا شكلًا من إقليدس.

فيقول: لا أعلم.. فيصفع.

فيقول له السلطان: يا بن عشرة آلاف قحبة. وأي شيء تعلم حتى تقول: سبقت إلى غايات كل فضيلة....

فيقول: أعلم شيئًا من النحو والتصريف لا غير..

فيقول له: ولأجل النحو والصرف تقول: سبقت إلى غايات كل فضيلة.

ثم قال الوهراني.. وكذلك يكون حاله في البيت الذي بعد هذا، وهو قوله:

وملكنـــي رق المناقـــب أننـــي أحطت بآداب الورى كلها علمًا

فهذا البيت والله من الشعر النحس الذي لو بقي في بطنه الأخذة القولنج[1].

وبهذه الطريقة الفكهة أخذ الوهراني ينقد القصيدة الشعرية بيتًا بيتًا حتى فرغ منها.

وللوهراني – فيما عدا ذلك مقامات ومنامات إشتمل عليها كتابه الذي نحن بصدده. ومن أهمها «المنام الكبير» وفيه تخيل أنه رأى فيما يرى النائم كأن القيامة قامت، والمنادي ينادي: هلموا إلى العرض على الله. قال:

«فخرجت من قبري أيمم الداعي، إلى أن بلغت أرض المحشر. وهناك إلتقيت بأناس كثيرين، قدامى ومحدثين، منهم الفقهاء والعلماء، ومنهم الخطباء والأدباء والشعراء، ومنهم الفلاسفة والمتكلمون، والمتصوفة والملوك والسلاطين..» وذلك كله على نحو يذكرنا برسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

---

[1] يظهر أنه مرض انتفاخ البطن.

واتخذ الوهراني من منامه هذا وسيلة إلى السخرية بهؤلاء جميعًا، وذلك بأسلوب يمتاز بالخفة والطرافة والرشاقة، إذا قبس بأسلوب المعري الذي يمتاز بشيء من الجد والتكلف والميل أحيانًا إلى الأغراب في اللفظ، والغموض في المعنى.

وأنظر إلى الوهراني يسخر ببعض الشخصيات الكبيرة في العمر الأيوبي، بهذه الطريقة، قال:

«عشرة أشياء من أبواب البر تسخط الله وترضى السلطان، وهي:

انقطاع ابن الصابوني إلى الله عز وجل في القرافة.

وتعصب الخبوشاني لقبر الإمام الشافعي.

وتنقل القاضي قبل صلاة الجمعة وبعدها.

وصلاة السديد الطبيب التراويح في شهر رمضان.

وبكاء بهاء الدين الفقيه على المنبر يوم الجمعة.

وقراءة الوهراني السبع في صبيحة كل يوم.

وسماع إبن عثمان لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمعه واحدة.

وإقراؤه لذلك على رءوس الأشهاد.

وحضور ابن مماتيمجالس الوعظ في القرافة وبكاؤه عند قراءة القرآن.

وبناء بن أبي الحجاج لقبر السيدة آسية، وترتيب القراء فيه كل جمعه.

ذكروا أن هذه الأعمال الصالحة لا يعبأ الله بها، وهي أحب إلى إبليس من كبار الذنوب».

هكذا كان تهكم الوهراني، يجيء مرة على شكل رسالة، وأخرى على شكل تهكم في صورة مقامة، وفي ثالثة يكون على هيئة منام، ورابعة يكون على شكل حكم وأمثال، وخامسة يكون على شكل أسئلة. وذلك بخلاف ما رأينا عند الأسعد بن مماتي من إعتماده في السخرية على طريقة واحدة.

ومع ذلك لم تبلغ رسائل الوهراني – على تنوعها وطرافتها وفصاحتها – بعض ما بلغته نوادر الأسعد بن مماتي على قصرها وقلتها وعاميتها. وسنعرض فيما بعد لأسباب ذلك.

ويمضي العصر الأيوبي، ويليه عصر المماليك، ويظل الروح المصري أدنى إلى الفكاهة والتندر.. وخاصة بالحكام والأمراء. غير أن النكتة المصرية مُنذ العصر المملوكي أصبحت تبني في أكثرها على «التورية»، وهي اللفظ الذي له معنيان؟ أحدهما قريب تحمير مقصود والثاني بعيد وهو المقصود.

ومن ذلك على سبيل المثال:

«حكى عن الشاعر المعروف (بالسراج الوراق) أنه جهز غلامًا له يومًا ما ليبتاع له زيتًا طيبًا المأكل به، فأحضره، فوجده زيتًا حارًا، فأنكر على الغلام ذلك، وأخذه وجاء إلى الشارع وقال له: لم تفعل مثل هذا؟

فقال له الغلام:

الله يا سيدي مالي ذنب. لأنني قلت لبائع الزيت: أعطني زيتًا للسراج!!»

وفي كلمة «السراج» تورية كما تعلم. وهي مثال من أمثلة الفكاهة المصرية التي شاعت في زمن المماليك. ولم تزل شائعة إلى اليوم، ونعني بها الفكاهة أو النكتة المبنية على «التورية».

واجتمع محدث ونصراني في سفينة، فصب النصراني من ركوة كانت معه في مشربة، وشرب وصب بعد ذلك، وعرض على المحدث. فتناولها المحدث من غير تفكير ولا مبالاة. فقال النصراني

جعلت فداك، هذا خمر!

فقال المحدث: من أين علمت أنها خمر؟

قال النصراني: إشتراها غلامي من خمار يهودي. وحلف إنها خمر عتيق!

فقال المحدث للنصراني:

أنت أحمق، نحن أصحاب الحديث نروي عن الصحابة والتابعين. أفتصدق نصرانيًا عن غلام عن يهودي؟ والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد!».

وقد لا يفهم النكتة الأخيرة إلا علماء الفقه أو الحديث. لأنهم يفهمون المقصود من كلمة (الإسناد) ومعناها عندهم نقل الحديث عن فلان عن فلان عن فلان. ولذلك يسمون الإسناد أحيانا باسم (العنعنة).

ولقد كانت أسماء الشعراء والأدباء في العصر المملوكي يوحي الكثير منها في ذاته بمعنى الفكاهة. فشاعر إسمه السراج وآخر إسمه الحمامي (نسبة إلى الحمام)، وثالث إسمه الجزار. وهي أسماء تدل على المهن التي يشتغلون بها ومع ذلك تدل على معنى المرح.

وكان الجزار من هؤلاء شاعر إذا روح خفيفة، ونكتة لطيفة، وتورية تبعث دائمًا على الضحك، قال الجزار يصف داره:

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت إلى السابعة

فلا فرق ما بين أني أكون بها أو أكون على القارعة

تســـــاورها هفـــوات النســـــيم فتصـــــغى بـــــلا أذن ســــامعة

وأخشـــى بهـــا أن أقـــيم الصـــلاة فتســـــجد حيطانهـــا الرابعـــــة

إذا مــــا قــــرأت (إذا زلزلـــــت) خشـــيت بـــأن تقـــرأ (الواقعـــة)

وذم الجزار رجلًا بالبخل فقال:

لا يســــــتطيع يـــــرى رغيفًـــــا عنـــــــده بالبيــــــت يكســـــــر

فلـــــو أنــــه صــــلى وحــــا شــــاه لقـــال (الخبـــز أكبـــر)!

وندع هؤلاء جميعًا لنذكر مضحك العصر المملوكي غير مدافع وماجنهم غير منازع، ونعني به:

ابن سودون

هو صاحب كتاب «نزهة النفوس ومضحك العبوس» وهو: سارة عن ديوان شعر بني كله على الهزل بألفاظ أكثرها عامية.

(ابن سودون) من الشعراء الذين توفروا على ضرب واحد من ضروب الشعر هو الهزل والفكاهة، وقد إعتمد هذا الشاعر الظريف في ديوانه هذا على المفارقة بين الجد والتفاهة. وهذا نوع من الهزل ولا يصح أن يطلق عليه اسم السخرية.

تراه يبدأ قصيدة من قصائده بداية جادة تشعر بأنه سيقول ما قيمًا مفيدًا، ثم لا يلبث أن ينتقل بك إنتقالًا مفاجئًا إلى نوع من التفاهة في القول والشذوذ في التفكير، وهما مصدر الإضحاك في شعره، والطرافة في مذهبه. وهو في شعره لا يفتأ ذكر طائفة من البديهيات التي يعرفها الأطفال الحديثو العهد التكلم. ولكنه يقدم لها بكلام تشم فيه رائحة المنطق، وتشعر بأنه يريد أن

يحدثك عن بعض العجائب في هذا الكون.

هذه الطريقة من طرق المفارقة ترى إبن سودون ينتزع الضحك من أفواه الخاصة والعامة. وإذا هؤلاء وهؤلاء مغرقون في الضحك شاعرون بالمرح، راغبون في الإستزادة من شعر هذا الشاعر العجيب.

ومن شعره قوله

إذا ما الفتى في الناس بالعقل قد سما ... تيقن أن الأرض من فوقها السما

وأن السما من تحتها الأرض لم تزل ... وبينهما أشيا متى ظهرت ترى

وإني سأبدى بعض ما قد علمته ... لتعلم أني من ذوي العلم والحجي

فمن ذاك أن الناس من نسل آدم ... ومنهم أبو سودون أيضا وإن قضى

وأن أبي زوج لأمي وأنني ... أنا ابنهما والناس هم يعرفون ذا

وكم عجب عندي بمصر وغيرها ... فمصر بها نيل على الطين قد جرى

وفي نيلها من نام بالليل بله ... وليست تبل الشمس من نام في الضحى

بها الفجر قبل الشمس يظهر دائمًا ... بها الظهر قبل العصر: قبل بلا مرا

وبالشام أقوام إذا ما رأيتهم ... ترى ظهر كل منهمو وهو من ورا

بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه ... بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا

ويسخن فيها الماء في الصيف دائمًا ... ويبرد فيها الماء في زمن الشتا

وفي الصين صيني إذا ما طرقته ... يطن كصيني طرقت سوا سوا

بها يضحك الإنسان أوقات فرحه ... ويبكي زمان الحزن فيها إذا ابتلى

وفيهـــا رجـــال هـــم خـــلاف نســـائهم لأنهمـــو تبـــدو بـــأوجههم لحـــي

ومـــن قـــد مشـــى وســـط النهـــار بطرقهـــا تراه بها وسط النهار وقد مشى... إلخ

أرأيت إلى هذه الفوضى المضحكة في الكلام؟ أريت إلى تلك البدهيات المعلومة لكل إنسان؟ أي فرق بين هذه الأشعار وقول المناطقة عندما يمثلون (للدور) في المنطق:

كأننـــا والمـــاء مـــن حولنـــا قـــوم جلـــوس حـــولهم مـــاء

وليس ديوان ابن سودون كله شعر، بل بعضه نثر، ولكنه من نفس هذا الضرب، وله نفس هذا المنزع في المرح واللهو. ومنه قوله:

«قال الزلبياني: كنت – وأنا صغير– بليدًا لا أصيب في مقال، ولا أفهم ما يقال. فلما نزل بي المشيب زوجتني أمي بإمرأة كانت أبعد مني ذهنًا، إلا أنها أكبر مني سنًا، وما مضت فترة طويلة حتى ولدت، وإلتمست منى طعامًا حارًا، فتناولت الصحفة مكشوفة ورجعت إلى المنزل آخذًا المكبة (يريد غطاء الصحفة) فنسيت الصحفة. فلما كنت في السوق تذكرت ذلك، فرجعت وأخذت الصحفة ونسيت المكبة، وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى! ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس. فقلت: لا أشتري لها في هذه الليلة شيئًا، وأدعها تموت جوعًا. ثم رجعت إليها وإذا هي تئن، وإذا ولدها يستغيث جوعًا، ففكرت كيف أربيه، وتحيرت في ذلك. ثم خطر ببالي أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها وإلتقط الحب، ثم يأتي ويقذفه في فم إبنه، وتكون حياته بذلك. فقلت: لا والله لا أكون أعجز من الحمام، ولا أدع إبني يذوق كأس الحمام. ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز، فجعلته في فمي، ونفخته في فمه فرادى وأزواجًا، أفواجًا أفواجًا، حتى إمتلأ جوفه وصار فمه لا يسع

شيئًا، وصار يتناثر من أشداقه، فسررت بذلك وقلت لعله قد إستراح. ثم نظرت إليه وإذا به قد مات. فحسدته على ذلك. وقلت: يا بني: قد إنحط سعد أمك، وسعدك قد إرتفع، لأنها ماتت جوعًا وأنت مت من الشبع. وتركتهما ميتين، وخرجت لأحضر لهما الكفن والحنوط. ولما رجعت لم أعرف طريق المنزل. وها أنا في طلبه إلى يومنا هذا!»

وسأل بعضهم إبن سودون عن الدجاجة هل هي من البيضة أم العكس؟ فأجاب بقوله:

«لا تقل عندي في هذه المسألة، والأمران محتملان: وإلا ظهر أن الدجاجة كانت أولًا، ثم باضت وحصل التناسل. ومما يؤيد ذلك الحدوتة المشهورة وهي:

«أحدثك حدوتة بالزيت ملتوتة: كان ما كان في قديم الزمان، أولاد حمدان طلبوا نانا، والنانا في التنور. والتنور يريد لو حطب، والحطب في الجبل، والجبل يريد لو فأس. والفأس عند الحداد. والحداد يريد لو بيضة. والبيضة في الدجاجة. والدجاجة تريد لها لقط. واللقط في الحظيرة. والحظيرة تريد لها مفتاح، والمفتاح عند رباح، ما يجي من الساعة لشق الصباح، فقال: والبيضة في الدجاجة. ولم يقل الدجاجة في البيضة. ولا يختص هذا بالدجاجة بل الوزة كذلك أيضًا».

ومازالت هذه الحكاية وأمثالها تدور على ألسنة العوام عندنا في مصر إلى اليوم.

وقد شهد العصر المملوكي ضربًا أخر من ضروب الهزل كان يعرف بإسم (خيال الظل) وهو مسرح شعبي قديم لعله (الأراجوز) فيما بعد. وقد نبغ فيه

شاعر مصري يقال له محمد بن دانيال.

ويؤخذ من كلام المؤرخين أن هذا الفن أصبح في مصر حرفة وأصبح في إستطاعة الخيال أن يعبر به عن الأحداث التاريخية لكن في صورة هزلية.

قال ابن دانيال عن نفسه

«لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية في الدولة الظاهرية، وجدت مواطن الإنس دراسة، وأرباب اللهو والخلاعة غير آنسة، ومن لذة العيش آيسة. وقد أمر السلطان بإهراق الخمور وإحراق الحشيش.. وشاعت بذلك الأخبار، ووقع الإنكار، وإختفى المسطول في الدار.. فدعاني بعض أصدقائي إلى محله، وأنزلني من عياله وأهله، وإعتذر إليّ عن تقصيره في الإكرام، إذ لم يأتني بمدام. ثم قال: لقد غلب على ظني أن أبا مرة (يريد إبليس) قد مات، وعد من الرفات، فقم بنا نبكيه، ونصف الحالة ونرثيه. فقلت:

مات يا قوم شيخنا إبليس وخلا منه ربعه المأنوس

ورماني حدسي به إذ تولى ولعمري مماته محدوس

هو لم يكن كما قلت ميتًا لم يغير لأمره ناموس

كم خليع يقول: ذا اليوم يوم مثل ما قيل: قمطرير عبوس

وقضيب ونرجس وسعاد باكيات وزينب وعروس»

وعلى هذا النحو من التهريج يسير إبن دانيال في قصيدة له افتتح بها بعض مسرحياته التي هزئ فيها من أوامر السلطان بيبرس ومن سعيه لإغلاق الحانات وأماكن اللهو.

وبهذه الطريقة أخرج إبن دانيال طائفة من المسرحيات أهمها ثلاث: عجيب وغريب، والمتيم، ولعب التمساح.

ثم في القرن العاشر الهجري كان العثمانيون من الأتراك قد ملكوا البلاد، وكانت أسباب اللهو والمجون قد إتسعت لأكثر الناس. وفي ذلك الوقت ظهر ميل الشعب إلى شرب القهوة، وإلى إتخاذ أماكن لشرابها تحمل هذا الإسم. وفي القهوة كان يجتمع الشباب المصري للنكات والمداعبات، ولسماع «الشاعر» الذي يقص عليهم القصص الشعبية المعروفة، على نحو ما نشاهده في كثير من الأحياء الشعبية بمدينة القاهرة إلى يومنا هذا.

وقد ترك لنا ذلك العصر العثماني طائفة كبيرة من الفكاهات المصرية العجيبة. ولكنا مكتفون هنا بعرض صورة واحدة لتلك الفكاهة، تلك الصورة التي نحدها في كتاب «هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف» ليوسف الشربيني.

وهو كتاب لطيف يسخر فيه صاحبه من أهل الريف، ويصف ما هم فيه من الفقر والجهل والذل والبؤس والإنحطاط الذي يهبط بهم عن درجة البهائم. وفيه يقول المؤلف:

«لا تصحب الفلاح لو إنه نافجة أباحها صاعدة

ثيرانهم قد عبرت عنهمو بأنهم من طينة واحدة»

وزعم المؤلف في كتابه هذا أن رجلًا من أهل الريف يدعى «أبا شادوف» نظم قصيدة في وصف الريف. وقد أحب المؤلف أن يشرح للناس هذه القصيدة التي نظمها باللغة العامية، ووصف فيها بؤس الفلاح المصري، وبالغ في تصوير تعاسته، كما وصف أكله وشربه ولبسه وطريقة نومه وأتي على بعض

عاداته في الأفراح والمآتم والأعياد ونحو ذلك. ومن ثم جاء كتاب الشربيني هذا جزأين أولهما في السخرية من أهل الريف. والثاني في شرح قصيدة أبي شادوف.

وإن قارئ هذا الكتاب لا يسعه في الواقع إلا أن يصب لعناته على ذلك الحكم العثماني البغيض، الذي أورث الريف المصري كل هذه الهموم، وصب على رأسه كل هذه الآفات والمظالم من جانب الحاكم نفسه تارة، ومن جانب (الكشاف) أو المدير تارة، ومن جانب الملتزمين ممن يجمعون الأموال والضرائب تارة، ومن جانب الموظفين الآخرين الذين قاموا على تنفيذ نظام السخرة أو (العونة) كما كان يسمي بهذا الإسم في ذلك العصر.

أراد الشربيني أن يصف لنا في كتابه صورة الجهل الذي خيم على ريف مصر فحكى لنا أن رجلًا من الفلاحين سأل آخر:

«إيش هجاك إبريق؟»

فأجابه بقوله: «ب، ر، ب، ق، واو».

فقال له الأول: «إيش عرفك أن فيها واو؟»

فأجاب: «دلتني عليها النقطة اللي فوق الواو»

فقال له: «إن عشت تبقي فصيح لأخوالك»

وعطس رجل منهم، فقال له ففيه من أهل الريف:

«يرحمك اللي عطسك، ولو شاء لفطسك، وأخرج العطسة من فرافير اللي خلقك»

فقال له الفلاح: «يا فقي– لأعادت تنسانا من دي السورة، تقرأها علينا في المسا والصباح وأعطيك أيام المقات أربع بطيخات وتقرأ السورة لأم

معيكة، وتهديها لأبو زعبل، فأنه مات من مدة شهرين». فضحك منه الرجل ومضى إلى سبيله.

ودخل رجل منهم قرية على شاطئ النيل يوم الجمعة، فرأي الناس قاصدين إلى صلاة الجمعة فإعتقد أنهم ذاهبون إلى ضيافة صنعها لهم أمير البلد. فذهب مع الناس إلى أن دخلوا المسجد، وجلس في بعض الصفوف، إلى أن أقبل الخطيب وصعد على المنبر فصار الفلاح ينظر إليه وهو مرتاب وخائف ومتحير، إلى أن فرغ من خطبته، وأقيمت الصلاة وسمع ضجيجهم بالتكبير والتهليل فإعتقد أنها هرجة وقعت بينهم!

وصاح: يا آل سعد! إلحقوني. وسحب النبوت وخرج هاربًا وهو يقول: خدوك القوم يا أبو كتكوت! ولم يزل في خوف وكرب حتى وصل إلى الكفر!

ودخل عالم من علماء الريف مسجدًا في القرية ليصلى صلاة الجمعة. وتعجب حين رأي الفلاحين يدخلون المسجد للصلاة وبيد كل منهم قفة من خوص وفيها مغرفة، وخشبة، وسكين من حديد، وفأر ميت معلق من عنقه. وبعد قليل جاء خطيب المسجد في نفس الصورة التي دخل بها الفلاحون من قبله. فقرب العالم من خطيب المسجد وسأله السبب في ذلك. فأجابه الخطيب بأنه هو الذي أمر الفلاحين وأمر نفسه بذلك. وإلا كانت صلاة الجميع باطلة. قال العالم للخطيب: وما الحكمة في ذلك؟

قال الخطيب: حديث قرأته في كتاب عندي يقول:

حدثني فلان عن فلان عن فلان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

لا تصح جمعة أحدكم إلا بقفة ومغرفة وخشبة وسكينة وفار.

فطلب العالم منه الكتاب وقرأ الحديث، فاذا هو:

لا تصح جمعة أحدكم إلا بعفة ومعرفة وخشية ووقار!

وأما غفلة الفلاح المصري فقد أبان عنها مؤلف الكتاب في كثير من قصصه، ومنها هذه القصة الطويلة التي قصها عن فلاح مصري ترك الكفر الذي يعيش فيه وجاء لزيارة المدينة قال:

«إتفق لثلاث نسوة من أهل مصر أن خرجن يتفرجن في أزقة المدينة.. فلقين رجلًا من قحوف الريف، وهو في حالة رديئة، وعلى رأسه قفص ملآن من الفراخ يريد أن يبيعها ويسد بثمنها مال السلطان. فقالت إحداهن للأخرى:

ما تقولي في اللي يأخد الفراخ من الفلاح ده؟

فقالت الأخرى: وأنا آخذ ثيابه..

وقالت الثالثة: كل ده ما هو شطارة. الشطارة في اللي يبيعه بيع العبيد.

ثم أن (الأولى) اللي إلتزمت بأخذ فراخه أقبلت عليه ورغبته بزيادة في الثمن. فمضى معها إلى أن وصلت إلى درب من دروب مصر، وبيت له بابان، وقالت له:

أقعد هنا على الباب ده، فانه باب بيتي، وأصبر حتى أجي لك بالفلوس. ثم أخذت القفص بالفراخ ومضت لحال سبيلها من الباب الثاني. ولم يزل الفلاح جالسًا على الباب الأول، ولم يأته أحد، فتحير في نفسه وسأل عن المرأة التي أخذت الفراخ. فقال له الناس: يا قليل العقل، وسقيع الدقن، البيت ده نافد.

فصاح الفلاح ولطم على وجهه. وبينما هو على هذه الحال إذ أقبلت عليه (المرأة الثانية) وقالت له:

إيش صابك ودهاك يا مسكين وأنت راجل غريب وعليك مال السلطان، وضحكت عليك العاهرة وأخذت منك الفراخ؟

فقال لها: وحياة عيونك يا مليحة ما معي غيرهم!

فقالت له: إمشي معاي إلى بيتنا وأنا أعطيك شيء من النقود صدقة عني.

فقال لها الفلاح: الله يجزيكي خير. وأنا لآخر لما أروح الكفر أزورك بحزمة لحلاح، وحزمة بصل، وشوية فول، وتبقى صاحبتي. وإن شاء الله أجيب لك كمان عشرين قرص جلة.

فأخذته وسارت إلى أن وصلت الى بيت كبير عالي البنيان.. فسألت عن صاحبه. فقالوا لها: هذا بيت الأمير فلان، وقد خرج هو وبعض أصحابه إلى بعض المتنزهات، فدخلت البيت فلم تر فيه أحدًا سوى رجل كبير بواب، ودخل الفلاح معها إلى وسط الدار فرأت فيه بئرًا من الماء تملأ منه الحريم. فوقفت ونظرت في البئر ثم ولولت وصرخت وبكت بكاءً شديدًا. فقال لها الفلاح: تبكين ليه يا مليحة؟

فقالت له: يا فلاح كعبك شؤم على. فقد وقعت أساوري الذهب في البئر، قال لها: ما تخافيش يا مليحة. أنا أنزل وأجيبهم لكي من البئر.

فقالت له: تعرف تغطس في المية؟

قال لها: دي صنعتي. وطول عمري في الهم والغم!

ثم قال لها: أربطيني في حبل البكرة دي، ودليني في البئر.

ثم أنه قلع ثيابه، ودلته في البئر إلى أن وصل إلى الماء فأرخت الحبل عليه وأخذت ثيابه وذهبت إلى حال سبيلها!

هذا ما كان منها. وأما ما كان من الفلاح فإنه لم يزل يغوص في الماء ويفتش في قعر البئر حتى كلّ ومل، وإسود جلده من البرد وكانت أيام شتاء. فلما إشتد الأمر صار يصيح وينادي المرأة، فلم يجبه أحد!

فبينما هو في هذه الحالة إذ أقبل الأمير وأصحابه وسمعوا الفلاح يصيح في البئر وينادي:

– طلعيني يا صبية! طلعيني يا مليحه! ده ماهوش مليح منك! ده عيب عليكي! أنا مت من السقيع والبرد.. إلخ

فقال له الخدم: أنت إنسى أم جني؟

فقال لهم: أبو زعبل بن حنجل من كفر ال..

فقال بعضهم لبعض: ده عفريت من غير كلام!

فقال لهم الفلاح: والله يا وجوه الخير ما أنا عفريت. أنا راجل فلاح. وحكى لهم قصته. فدلواله الحبل، فتعلق فيه وطلع. فلما رأه الخدم، علموا إنه إنسي، ثم قال بعضهم لبعض ده حرامي ووقع في البئر. فنزلوا عليه ضرب، وطردوه، وراح يجري وهو عريان بردان جعان سقعان. ولا يدرى أين يذهب؟

فأقبلت عليه (الثالثة) وهو في هذه الحالة، وقد صارت الأولاد تضربه، وتقول: المجنون! المجنون!

فوضعت المرأة يدها على ظهره، ومسحت وجهه بمنديل كان معها، وسترته بفوطة، وقالت له:

أمراء إلى الله يا مسكين، يا حزين. ضحكت عليك نسوان مصر، خلوك في دي الحالة، وأنت راجل غريب، وعليك مال السلطان!

فبكى الفلاح وشكا وقال لها:

يا مليحة: وحياة شلشولك. خدوا فراخي وخدوا ثيابي، وخدوا حزامي الليف، وخدوا مشدي ومركوبي، وما عدت أصدق كلام النسوان أبدًا!

فقالت له: لا تظن يا فلاح إني من نسوان مصر. أنا عمري ما خرجت من بيتي غير النهاردة: ولما رايتك في دي الحالة شفقت عليك، ومرادي أعمل معاك جميل، وآخذك إلى بيتي... وألبسك لبس مليح، وأخليك شاب ظريف، وأعملك مملوك، وأحط لك خنجر في حزامك وأعلمك التركي، وتبقي تقول: شندي بندي.. إلخ.

فقال لها الفلاح: أنا في عرضك يا مليحة تعمليني جندي، وتعلميني التركي. وأنا على الحلال من أم شحيبر كل من عاد يقول لي كإني ماني في زماني قطعت رأسه ولو كان أبو عوكل شيخ الكفر.

فقالت له: سر بنا يا فلاح على بركة الله!

فسار معها إلى أن وصلت إلى منزلها. فأدخلته فيه، ووضعت بين يديه الطعام، فأكل وشرب، وارتاح في نفسه. ثم أتته بماء ساخن، وغسلته بالليفة والصابونة، وألبسه قميص وشخشير جوخ، وقاووق قطيفة، وشاش قصب، وحزمته بحزام وفيه خنجر، وحلقت لحيته وشاربه، وجعلته مملوك حليق. وقالت له:

إذا كلمك أحد فلا ترد عليه جواب. بس هز رأسك. فاذا ألح عليك في الكلام بالحماقة، وشدد عليك، قوله له: «كرته هريف يوك يمه[1] ولا تزد على ذلك. فإن الكلمة دي أصل التركي. إذا عرفتها ما يمضي عليك شهر زمن إلا وأنت صنجق ويبقى لك طبل وزمر.

---

(1) عبارة قذف، قريبة المعنى من قولهم: أيها الرجل القذر ليس معي طعام لأمثالك.

فقال لها الفلاح: أنا في عرضك يا مليحة تخليني أبقى صنجق، وبصير لي سطوة في الكفر. وأبقي إن شاء الله أزورك بشوية كشك، وعشر طورات كعك من اللي بتعمله أم شحيبر، وأعمل لك قاعة وأكبسها لك بالوحل والجلة، وأفرشها لك بالتبن والقصل. وتبقى تنامي فيها. ويبقوا يقولوا الجدعان: أبو شحيبر طلع المدينة فلاح ورجع جندي، يقول شندي بندي، ويقطع الروس.

ثم إنها أخذته ونزلت به إلى سوق خان الخليلي، وجلست في دكان من الدكاكين يبيع أنواع الأقمشة، والخز، والأطلس. والشاشات إلخ.. فقالت للتاجر: أريد كذا وكذا، مما يساوي ألف دينار.

فأحضر لها التاجر ما قالت عليه. وربطته في بقجة، وقالت له: يا سيدي يكون المملوك ده عندك رهن حتى أروح لبيت الأمير وأعرض على حريمه القماش وأجيب لك الدراهم الدراهم: فقال لها التاجر: توجهي على بركة الله.

فأخذت الحوائج وتركت الفلاح، ومضى نصف النهار ولم ترجع المرأة إلى التاجر. فتضايق، وإلتفت إلى الفلاح وقال له: ستك بطت علينا! فهز الفلاح رأسه كما أوصته ولم ينطق بكلمة. فكرر عليه التاجر الكلام، فهز رأسه ولم يتكلم. فتضايق التاجر وقال لجيرانه التجار: ما هذه البلية في هذا المملوك: كلما كلمته هز رأسه كأنه ما يعرف إلا بالتركي.

فبينما التاجر على هذه الحال، إذ أقبل عليه رجل عسكري، فقال له التاجر: بالله عليك يا سيدي تكلم لنا هذا المملوك بالتركي. وعرفنا عن حاله. فكلمه الجندي بالتركي فهز رأسه فإغتاظ منه وسل عليه السيف وأراد أن يضربه. فلما رآه الفلاح يريد ذلك صاح قائلًا: «كرته هريف يوك يمه».

فلما سمع الجندي منه ذلك نزل عليه بالضرب، فصار الفلاح يتكلم ويصيح بكلام الفلاحين و يقول:

– أنا في جيرتك يا بو زعبل.

فضحك عليه الجندي وبقية التجار، واستخبروه، فحكي لهم القصة من أولها إلى آخرها. فعرفوا أنها حيلة عملت على التاجر والفلاح، فقام التاجر وعراه وأخذ جميع ما عليه وباعه بعشرين دينارًا، ومكث الفلاح سنة، ثم خلص روحه وهرب إلى الكفر».

السخرية المصرية في العصر الحديث

بقي المصريون غارقين في لهوهم ومرحهم ونومهم وكسلهم إبان الحكم العثماني. وكانت النكتة المصرية في ذلك الوقت لا تحمل معنى من المعاني، ولا تهدف إلى غرض ما سوى المزاح والعبث، وتزجية أوقات الفراغ، ونحو ذلك، وإن كانت يومئذ صورة للحياة التي يحياها المصريون في تلك الفترة من فترات التاريخ. فهي لا تهدف مثلًا إلى إصلاح حاكم، ولا إلى منفعة محكوم.

ولا تقصد إلى عيب من عيوب الأفراد وعيوب المجتمعات. ولا غرض لها -كما قلنا- سوى الضحك والأضحاك. وقد أعان على ذلك شيوع «القهوات» التي يجتمع الناس فيها لشرب التبغ أو البن وسماع القصص أو المزمار.

غير أن الحال أصبح غير الحال، وذلك مُنذ بداية القرن التاسع. فإذ ذاك إستيقظ المصريون من سباتهم، ونهضوا قليلًا قليلًا ببلادهم. وأعان على ذلك أمور كثيرة، من أهمها ظهور أداة جديدة من أدوات الحضارة، هي «الصحف».

ومُنذ أصبحت الصحيفة في متناول كل إنسان، وأصبحت الصحافة تحمل أمانة الإصلاح السياسي والإجتماعي في مصر بنوع خاص، وجد الأدباء أنفسهم مضطرين إلى أن يرضوا بأدبهم أكبر عدد ممكن من الشعب المصري والشعوب الشرقية التي تقرأ العربية. وهنا نقطة التحول الهائلة في حياة الأدب بصوره المختلفة.

خذ لذلك مثلًا واحدًا، هو الشعر. فقد كان الشاعر قبل القرن التاسع عشر يخص بشعره الأمير وحاشية الأمير، فإضطرته ظروف هذا القرن أن يتجه إلى الجمهور، وأن يرضى بشعره الذي ينشره في الصحف ذوق هذا الجمهور فأثر ذلك تأثيرًا واضحًا في معاني الشعر، وألوان الأساليب. ولم يكتف شاعر كشوقي أو حافظ أن يكون كل منهما شاعر مصر أو النيل، بل أراد أن يكون شاعر الشرق العربي كله يفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، ويعبر عن إما الشعوب الشرقية جمعاء.

وإذا كان هذا صحيحًا بالقياس إلى الشعر، فهو كذلك صحيح بالقياس إلى السخرية. ومعنى ذلك في وضوح أن السخرية المصرية لم تعد فردية، ولا غاية لها إلا تزجية أوقات الفراغ، كما كانت قبل القرن التاسع عشر، بل إنها أصبحت سخرية يقصد بها إلى إصلاح المجتمع، وإصلاح الأخلاق والعادات، وإصلاح الحكام والطرق التي يحكمون بها الشعب في نهاية الأمر.

ونحن مكتفون هنا بأن نضرب المثل بثلاثة فقط من كتاب القرن التاسع عشر، وهم عبدا لله النديم، وإبراهيم المويلحي، ويعقوب بن صنوع.

السخرية في أدب النديم

بقي عبد الله بن النديم غارقًا مع أهل الإسكندرية في أحاديثهم التافهة، ومجالسهم المضحكة، وأسمارهم المسلية، حتى جاء يوم فإذا أهل الإسكندرية – وعليهم طابع الجد – يتحدثون في أمور كثيرة، ومشاكل عويصة، منها مشكلة صندوق الدين، ومنها مشكلة التدخل الأجنبي، ومنها الشورى، ونحو ذلك. وإذ ذاك ولد النديم ميلادًا جديدًا، وترك ما كان عليه من قبل من الإنغماس في اللهو والعبث، وقضاء الوقت كله في المرح

والضحك، ودخل فيما دخل فيه الناس يومئذ من الجد، وكان من ذلك إنه إتجه إلى الصحافة وشارك فيها بنصيب كبير على النحو الذي نوجزه فيما يلي:

حصل النديم من الحكومة على إذن له في إصدار جريدة سماها «التنكيت والتبكيت»، كتبها يومئذ باللغتين العربية والعامية، الأولى يخاطب بها الصفوة، والثانية يخاطب بها العامة، وكما فرق بين هاتين اللغتين، فكذلك فرق بين طريقتين من طرق السخرية: الطريقة التي يكتب بها للخاصة، والطريقة التي يكتب بها للعامة. أما الطريقة الأولى فتعتمد على الرمز، وأما الطريقة الثانية فتعتمد على التصريح.

مثال الأولى إنه أحب أن يتحدث عن الخراب الذي أصاب البلاد بسبب إسراف إسماعيل، فكتب في جريدة «التنكيت والتبكيت»، مقالًا ساخرًا بعنوان: « مجلس طبي على مصاب بالأفرنجي».

(والأفرنجي) كلمة كان يطلقها المصريون في القرن الماضي على مرض الزهري، والكاتب يستعمل اللفظ هنا إستعمالا مجازيًا أو رمزيًا. لأنه يرمز به إلى الخراب الذي عم البلاد نتيجة لإسراف الخديوي، وأما (المصاب) هنا فيرمز به إلى مصر التي أصبحت تعاني المرض والفقر من جراء هذه الحالة السيئة، وأما (المجلس الطبي) فيرمز به إلى العقلاء والناصحين في الأمة المصرية.

قال النديم: كان هذا المصاب صحيح البنية قوى الأعصاب لطيف الشكل، ما رآه فارغ القلب إلا صبا، ولا سمع بذكره إلا طار إليه شوقًا. وبقي أهله يحفظونه من الأعداء، ويدفعون عنه الوشاة والرقباء، وهو هو غزال في الخفة، وغصن في اللين، وبدر في البهجة، وجنة في المنظر، تمر عليه الدهور فتزيده حسنًا. ويتولى عليه العشاق فيزدادون به هيامًا وشوقًا. وقد أتفقوا على

توحيد كلمتهم في حفظه، وجمع شتاتهم في رحابه، وصرف حياتهم الطيبة في بقائه في الوجود معززا بأهله، مؤيدًا بعشائره، حتى لا تمد إليه يد عدو، ولا يتوجه إليه فكر محتال، ولا يقرب منه مغتال.

وبينما هو يتيه بحسنه، ويدل بجماله، صحبه أحد المضلين، وإستعماله بنفاق تميل إليه النفوس.. فظن أهله أن هذا المضل من الأتقياء الذين لا يعرفون اللهو، ولا يميلون إلى المفاسد، وسلموه جنة حياتهم، وروضة ثروتهم. فدار به في الأسواق والطرقات، وعرضه للعشاق تقبله جهارًا، وتسلبه حلى أصابعه، وزينة صدره..

.. إلا أن هذا الغزال الطاهر العرض لما رأي أهله أهدروه وأهملوه.. أستسلم للقضاء، وسار في الطريف لا يرى فيه أحدًا من أهله.

فما هي إلا رشفة كأس حتى إصفر وجهه، وإرتخت أعضاؤه. وذهبت بهجته، فسلم جسمه الشريف إلى الفرش يتململ عليه، ففطن له واحد من أهله وزاره في خربة لم يجد فيها غير شبح يعلل نفسه بالأماني، ويصعد الزفرات.. فبكى وإنتحب وقال:

أي حياتي. أي جنتي. أي نزهتي. أي مطلع عزي، ما الذي أصابك.. إلخ.

فتنفس المصاب تنفس الضعيف، ورمقه بعين لا يكاد يتحرك جفنها. وقال بصوت خفي:

لا يعز عليك جسم أمرضه أهله!!

فقام هذا الزائر يضرب الكف على الكف أسفًا، ويعض أنامله غيظًا. وأسرع إلى الحي ونادي:

أيتها القبور الصامتة! إنشقي وإنفرجي، وإبعثي من فيك من الأموات، فقد أتت الطامة الكبرى وإنكدرت نجوم النشور.. إلخ.

فلم يكن إلا كلمح البصر حتى مليء الفضاء بأناس لا عدد لهم، يتقدمهم طبيب بارع قد إستصحب معه جملة من الأطباء. وساروا إلى تلك الجيفة، وإحتاطوا بها يقبلونها عن اليمين وعن الشمال، ويقرعون صدرها، ويجسون نبضها، حتى وقفوا على دائها، وعلموا أصل مصابها..

وبعد تبادل الأفكار بينهم، قر الرأي على أنهم يركبون له دواء يوقف سريان الداء الآن. وبعد ذلك يتداولون فيا يزيل المرضى ويعيد الصحة..

قال الراوي: وبينما أنا أبكي وأنوح مع أهله المساكين، وإذا بالمؤذن ينادي: حي على الفلاح. وقمت لأقضى الفرض، وأعود لمباشرة الخدمة مع إخواني، إذ لم أر قبل هذا إجتماع «مجلس طبي على مصاب بالأفرنجي».

تلك هي السخرية العابثة التي كانت تصدر عن النديم في مخاطبة الخاصة من طبقات الأمة يصور لهم بها خطورة الداء الذي سرى في البلاد، (وهو الخراب) ويوضح لهم أن الشفاء منه بسيط إذا ترك الأمر للعقلاء في الأمة، فهم الذين يصونون كرامة البلاد من الناحية المالية، وهم الذين لا يدعون الحكومة تعلن الإفلاس، وتسيء بذلك إلى سمعة مصر.

أما الطريقة الثانية التي إتبعها النديم في سخريته ونعني بها الطريقة الشعبية التي كانت تكتب باللغة العامية، والتي كانت تبني على الضحك والمرح، وتهدف إلي الإصلاح الخلقي والإجتماعي في وقت معًا، فمثالها ما يلي:

في العدد المتقدم من صحيفة «التنكيت والتبكيت»، نشر النديم حكاية بعنوان: (محتاج جاهل في يد محتال طامع)

قال: أحتاج أحد الزراع لإستدانة مائة جنيه، فقصد أحد التجار وطلب منه المبلغ. فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور بعض النبهاء.

الزارع: عاوز ميت جنيه بالفرط (يريد الربح) يا سيدي.

التاجر: فرط الميه عشرين كل سنة.

الزارع: أعمل اللي تعمله.

التاجر: شيل عشرين من الميه تبقى كام؟

الزارع : هو أنا كاتب! شوف يفضل كام.

التاجر: يبقى سبعين.

الزارع: يدوب كده

التاجر: دلوقت صار لي ميت جنيه. ضم عليهم عشرين وأكتب الكمبيالة.

الزارع: أكتب وخد الختم أهو...

وفي وسط السنة، قدم له الزارع: عشرة قناطير قطن، وعشرة أرادب سمسم، وعشرين أردب قمح وثلاثين أردب فول، وأربعين أردب شعير.

ثم جاء يحاسبه، فكانت الحكاية هكذا.

الزارع: طلع لي ورقة الحساب يا سيدي.

التاجر: إنت جبت قطن بعشرين جنيه، وقمح بعشرين جنيه، وشعير بعشرة جنيه. تبقى كام؟

الزارع: ما قلت لك من ديك المرة ما أعرفش أحسب.

التاجر: يبقى أربعين جنيه، شيلهم من ميه وعشرين يبقى الباقي كام؟

الزارع: من يعرف شيء يامه...

التاجر: الباقي تسعين جنيه. وفرطهم عليهم عشرين يبقى مية وخمس عشر. طالب أنت كمان ثلاثين. يبقى مية وستين ضم عليهم أربعين فرط. تبقى الكمبيالة تكتب بمائتين وعشرة ونصف!.

الزارع: هو إيه، من الأصل سبع عشرات، وعشرتين، وجالهم تلاثين وثلاثين، سلمت منهم ثمن البتوعات اللي جبتهم. يبقى لك دلوقت مية وعشرة بس. والنص ده جبتو منين؟

التاجر: النص أجرة كتابتي، ولا له دعوة بالأرباح

الزارع: أي دلوقت صحت الحسبة.

والسنة دي أبيع لك خمسين فدان في عشرة جنيه.

يبقى لك إيه بعد كده؟ يا جنيهين يا ثلاثة. خدلك بهم جاموسة. ويبقى على رأي المثل شيل ده عن ده يستريح ده من ده.

فقال النبيه للتاجر: أما تتقي الله في هذا المسكين. أخذت محصوله وصار دائنًا لك. فلفقت له حسبة لا أصل لها، وجعلته مديون. فإن حسبتك معه هكذا:

٧٠ بفائدة قدرها ٢٠٪ فيكون المطلوب ٨٤. وقد أورد لك هذا القدر:

١٠ قنطار قطن سعر القنطار ٣ جنيه فالمجموع ٣٠.

١٠ أرادب سمسم سعر الأرد ٢١/٢ جنيه فالمجموع ٢٥

٣٠ أرادب قمح سعر جنيه للأردب فيكون المجموع ٢٠

٢٠ أردب فول سعر جنيه فالمجموع ٣٠

٤٠ أردب شعير سعر نصف حثيه فالمجموع ٢٠

وبذلك يكون المجموع الكلي ١٢٥جنيه. فيكون له عندك ٤١ جنيه. فكيف جعلته مدينًا بمبلغ ٢١٠,٥ جنيه..؟

إن هذا هو السلب بلا خوف!

التاجر: يا خبيبي. الزاري خمار. وأنا إذا كان مش يعمل كده مش لازم ييجي تاجر بنكير بعد خمسة سنة.

فقال النبيه: قد تغيرت حياتنا، وتنبهت حكومتنا. فهي تسعى في عمل نظام يحفظ الحقوق، ويمنع تعدي مثلك على هذا المسكين حتى لا يقع بعد ذلك «محتال جاهل في يد محتال طامع»

وإليك أيها القارئ: حكاية أخرى بعنوان:

سهرة الأنطاع

وفيها عرض النديم لقرائه صورة قوم جلسوا في دارهم، وعلائم الهم والتفكير بادية عليهم، فدخل عليهم من سألهم عن تلك الهموم، وأخيرًا وبعد أخذ ورد، عرف أن الذي أهمهم هو «عادة الكيف»، التي شغلتهم عن كل شيء في حياتهم الخاصة والعامة ولم تجعل لهم حظًا من النشاط، ولا رغبة ولو بسيطة في معرفة أخبار الوطن، سيئة كانت أم حسنة. ومالهم ولكل هذا؟

«أن هذا شيء يوجب وجع الدماغ، ويشتت الفكر، ولا يشتغل به إلا من ليس له شغل».

عربي تفرنج

ثم في حكاية (عربي تفرنج) أتي النديم بقصة ولد لأحد الفلاحين إسمه (زعيط)، وإسم أبيه (معيط)، وقد ترك الوالد إبنه في أول الأمر يحيا حياة الفلاحين في العزبة. ثم أرشده الناس إلى ضرورة إرسال ولده إلى المدرسة، فأطاعهم في ذلك. فلما أتم علومه أرسلته الحكومة إلى أوروبا، ثم عاد إلى بلاده بعد أربع سنوات. وحضر أبوه لإستقباله في رصيف الإسكندرية، ولما وصل الإبن إليها إندفع الأب يحتضنه ويقبله، فإبتدره الإبن قائلا:

سبحان الله! عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دي قبيحة جدا!

معيط: أمال يا بني نسلم على بعض إزاي؟

زعيط: قول بون اريفى Bonne Arrivée وحط إيدك في إيدي مرة واحدة وخلاص.

معيط: لهو يا بني أنا بقول مانيش ريفي!

زعيط: موش ريفي يا شيخ، أنتم يا أبناء العرب زي البهايم.

معيط: الله يسترك يا زعيط: والله جا خيرك.. إلخ

و كما تهكم النديم من جهل الفلاحين في الريف، وإحتيال التجار الأروام المنتشرين في أعماق هذا الريف، وعجرفة الشبان الذين خرجوا من قراهم إلى التعليم، ثم عادوا إلى قراهم بروح الإستهزاء بآبائهم وأمهاتهم وأصحاب الفضل عليهم في بلوغهم هذه الدرجة من التعليم. فكذلك سخر النديم من (رجال الإدارة) وجهلهم وسوء تصرفهم في الأمور.

ومن ذلك أن أحد المأمورين إرتكب خطأ في عمله، فأرسل له رئيسه كتابًا يوبخه فيه ويسأله الإجابة. فطلب المأمور رئيس كتابه، فكتب له جوابًا

سخيفًا في لغته، سخيفًا في معناه. فلم يسترح المأمور إلى هذا الكتاب. وأخيرًا دله بعض جلسائه على شاب عنده في الديوان، لا يتجاوز راتبه ثلاثة جنيهات شهريًا: ولكنه يحترف الكتابة، فكتب الإجابة المطلوبة بلغة صحيحة ومفهومة. فلما قرأها المأمور كاد يطير فرحًا بنجابة الشاب وقال:

كيف يكون هذا بثلثمائة قرش ورئيسه بألف قرش؟

فقال له الوكيل: هذا من أولاد الفقراء. وليس له محسوبية على أحد الأمراء، ولا يعرف النفاق، ولا يعقل أفعال المحتالين التي تقدمه إلى ذوي الغايات!

وبعد أن فرغ النديم من إجراء (التنكيت)، بقي عليه أن يتبع ذلك بإجراء (التبكيت) فقال:

«أعظم مصيبة من رئيس كتاب لا يعرف الإنشاء وجود مأمور لا يحسن كتابة جواب من شأنه أن يكون من أسراره الخفية».

وأخيرًا نقدم للقارىء من تهكم النديم هذه الحكاية التي سخر فيها من شيوع الخرافات بين المصريين شيوعًا جعلهم يوصفون بالجهل والغفلة. والحكاية بعنوان:

خد من عبد الله واتكل على الله

جاء فيها

«سافر لأحد الأغنياء ولد، فلما طالت مدة غيبته توجه إلى بعض الرمالين (ممن يضربون الرمل والودع) وقال له:

– خط لي الرمل وشوف نجمي إزيه.

فخط الرمل وقال له:

ما شاء الله. أنت طالعك سعود، وأيامك سعود. شوف النجم يخبر بأنك بتأكل وتشرب، و تقوم وتقعد، وتفرح وتزعل، وتركب وتمشي، وتنام وتستيقظ، وتكسب وتخسر. وفوقك سما وتحتك أرض. وفي فكرك كلام وطالب حاجة وبدك تبقى غني..

فغمز الغبي رفيقه وقال له:

شفت. أنا ما قلتلكش يعرف كل شيء.. مين قال له على اللي بعمله دا كله، النجم يبين كل حاجه!

ثم إلتفت المسكين إلى الرمال وقال له:

شوف أبو الزلفي إبني ماله غاب كده؟

فقال الرمال: دلوقت حصل سحاب كثير، والنجم ما يصحش في السحاب.

فقال الغبي: أظن نجم الواد ساقط

فقال الرمال: الظاهر كده..

فشنق الغبي نفسه بعمامته ونادي: آه يا بني. يا أعز الرجال يا بو الزلفي! فسمعته أمه فخرجت صارخة مولولة قائلة: إيه جرى لإبني؟

فقال لها أبوه: المنجم خبر عنه إنه مات!

فصاحت وصرخت وإجتمعت إليها النساء من كل فج، وأحضرن الدف، وإبتدأن بالندب والعويل، حتى قامت الناس على ساق. وجلس أبوه يتقبل العزاء ودموعه تسيل على خدوده!

وبينما هم في شياط وعياط وإذا بالولد داخل عليهم حاملًا زكيبة الزوادة. فإبتدره والداه، وإحتضناه، وقالت أمه لأبيه:

شفت الرمال بتاعك الكداب ده؟

فقال لها:

والله يا ولية الراجل مالو دعوة. الراجل قال لي السحاب كتير ما سمعتش منه. والله برده كلامه حق!»

إنتهت حكاية النديم على هذا الوجه، ثم عقب عليها كالمعتاد في بقية الحكايات فقال:

(التبكيت): أنظر إلى الغفلة وإستحكامها في العقول السخيفة، وكيف رأى هذا الغبي أن الرمال كذب فيما يفتريه. وحضر ولده من سفره، ولم يرض أن يكذبه، وحمل عدم صدقه على وجود سحاب. وتأمل قوله إنه يعرف كل شيء بعد كونه يخبر عن أشياء من ضروريات البهيمة فضلًا عن الإنسان!

أن الناظر في سخرية النديم لا يسعه إلا الحكم بأن المجتمع المصري في زمانه كان يعاني (الجهل) إلى درجة تذكر بما كان عليه المصريون تحت الحكم العثماني، وهو الحكم الذي صور لنا جهله بوضوح كتاب «هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف» الذي مر ذكره.

والمؤرخ الأدبي ينظر إلى صحافة النديم في (التنكيت) و(التبكيت) على إنها الأرهاص الذي يسبق المعجزة.

ونعني بالمعجزة هنا ظهور القصة المعروفة في الأدب المصري (بحديث عيسى بن هشام). فقد كتبها محمد المويلحي لينتقد بها المجتمع المصري في كثير من المواضع والعيوب التي عابها النديم في الميدان الصحفي.

وتلك قضية من قضايا الأدب الحديث لها مكان غير هذا المكان أو كتاب غير هذا الكتاب.

وهناك صفحة أخرى من صفحات السخرية في أدب النديم، هي تلك الصفحة التي كتبها الرجل في نقد شخصية كبيرة من شخصيات البلاط العثماني في عهد السلطان عبد الحميد. ونعني بها شخصية (أبي الهدى الصيادي)، وهو شيخ من شيوخ الدين كان قد إستولى على قلب السلطان عبد الحميد، وملك عقله، واستأثر بحبه، على النحو الذي سنعود إليه عند الكلام عن إبراهيم المويلحي.

ذهب النديم إلى الإستانة، وتعرض له الشيخ أبو الهدى الصيادي، ولكن ما كل طير يؤكل لحمه كما تقول العامة عندنا في مصر. فقد كان أبو الهدى ريحًا وكان النديم إعصارًا. وقد إنبرى النديم لأبي الهدى فكتب فيه كتابًا سماه «المسامير» ونكتفي ببعض سطوره على وجه التمثيل:

قال النديم في وصف ميلاد أبي الهدى، وقد سماه في كتاب المسامير: «بأبي الضلال»:

«حين سبق القضاء المحتوم بتكوين الضليل من هذا المشئوم، غابت النجوم بعدما أشرقت، وأرعدت السماء وأبرقت، وزلزلت الأرض زلزالها، وقال الإنسان مالها، وإرتج الكون رجة، وصار العالم في ضجة.

وقضى الله ألا تحمل أنثي في تلك الليلة من الجن أو الأنس، حتى ينفرد إبن الصياد بهذا الطالع النحس. ثم نادى مناد بين الأرض والسماوات، يسمع صوته ولا ترى منه الذات:

أيتها الأمم الحاضرة، والعوالم الناظرة، إستعدوا للبلايا وهجوم الرزايا، وحدوث الكروب والهموم، والشدائد والغموم، فقد آن ظهور مثير الفتن، وغارس الأحقاد والأحن، وموغر الصدور، وجالب الشرور، ومظهر الفساد،

ومضل العباد، ومفسد مذاهب الأئمة، ولا عن الإشراف وعلماء الأمة، وعدو محمد وعيسى، وخصيم إبراهيم وموسى.. ثم قال:

عـــزوا الهـــدى وشـــريعة الإســـلام   عـــزوا العلـــوم وحكمـــة الإعـــلام

عـــزوا النبـــي وأهلـــه فـــي ســـنة   عـزوا الصـحاب وجـامعي الأحكـام

عـزوا الأئمـة فـي نفـائس كتـبهم   عـــزوا الهـــداة وثلـــة الأقـــلام

السخرية في أدب المويلحي

كـان إبـراهيم المـويلحي صـاحب جريـدة أدبيـة مشـهورة إسـمها «جريـدة مصـباح الشـرق». وقـد كـان الطـابع الأدبـي يسـود هـذه الصـحيفة. وذلـك أن شخصـية صـاحبها إبـراهيم كانـت إلـى الأدب أميـل منهـا إلـى السياسـة. وكـان إبراهيم مـن الكتـاب الصـحفيين ذوي الأسـاليب الممتـازة، وكـان لأدبـه عشـاق كثيرون في مصـر والشرق منهم الشيخ عبـد العزيز البشـري، الـذي حدثنا أن جريـدة مصـباح الشـرق كانـت بهـا صـفحة النقـد العظمـاء والأكـابر فـي الأمـة المصــرية. وطريقهــا إلــى هــذا النقــد هــو: التصــوير الكاريكــاتوري بــالحروف والألفاظ، لا الخطوط والألوان.

وكـان النـاس ينتظـرون مسـاء الخمـيس مـن كـل أسـبوع ظهـور (المصـباح) بفارغ الصبر خشية أن يكون فيها نقد موجه إلى بعضهم، أو سخرية قصد بها واحـد مـنهم. غيـر أن الـذي بقـي لنـا مـن أعـداد (المصـباح) ليسـت فيـه صـورة واحدة من الصور التي حدثنا عنها البشري في كتابه (المرأة).

ولكـن في دار الكتب المصـرية نسـخة فريـدة مـن كتـاب قـديم ننسـبه إلـى إبراهيم المويلحي، وعنوانه «ما هنالك» إذا أطلع عليـه القـارئ وجـده سـخرية مريرة بالبلاط العثماني في أيام السلطان عبد الحميد.

وكان هذا السلطان قد إستدعى إليه بالأستانة إبراهيم المويلحي، فصدع الأديب بالأمر، وعاش إلى جانب السلطان عشر سنوات شهد في أثنائها الفساد في الأخلاق، والإختلال في الأحوال، مما أدى في النهاية إلى إنهيار الدولة العثمانية، وزوال السلطنة التركية.

وقد إشتمل كتاب «ما هنا لك» على ثلاث عشرة مقالة كتبها في وصف أحوال السلطنة العثمانية، والقصر السلطاني ، والدوائر التي كان يحتوي عليها هذا القصر، كدائرة الأمناء، ودائرة الحريم وغيرهما.

وفي الأخيرة من تلك المقالات حدثنا الكاتب عن (المشايخ) الذين استولوا على عقل السلطان عبد الحميد، ذلك المخلوق العجيب الذي قضى العمر كله في الوساوس والهواجس، وأضاع من حياة الدولة العثمانية ثلاثين سنة في الجري وراء ذلك الدجال المحتال الذي يسمى (أبا الهدى الصيادي).

وهو أحد مشايخ أربعة دجالين محتالين، وهم السيد ابو الهدى الحلبي الصيادي والسيد أحمد أسعد المدني، والسيد فضل المكي، والشيخ محمد ظافر المغربي.

زعم له هؤلاء الأربعة أنهم يعلمون الغيب، وأوهموه أن الأمم العربية كلها في أيديهم، وزينوا له حمل هذا اللقب القديم عند المسلمين، وهو لقب خليفة. وفتح المسكين صدره لهم، وصغت جوارحه إليهم، حتى أعموه عن الحق، وحيل بينه وبين معرفة الحقيقة في كل شيء.

وأنظر إلى هذه الطريقة التي دخل بها أولهم، وهو أبو الهدى الصيادي على السلطان عبد الحميد:

قيل أن هذا السلطان رأي رؤيا قصها على أحد رجال البلاط، فدله هذا على الشيخ أبي الهدى، فأحضره السلطان وقص عليه الرؤيا، ففسرها الشيخ تفسيرًا أعجب به السلطان. وبعد أيام قال الشيخ للسلطان:

قد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أمس في الرؤيا، فأمرني أن أبلغ عنه جلالة الخليفة كلامًا، وأمرني أن يكون ذلك مني إليه من غير واسطة.

فإهتزت السراي السلطانية لهذا الخبر. وكانت الدولة تستعد للحرب الروسية. فزاد جلالة السلطان في عيونهم قدرًا للإتصال بالحضرة النبوية الشريفة، وفرح السلطان، وأمير الشيخ أبا الهدى أن يبلغه بالواسطة ما أمره به النبي صلى الله عليه وسلم: فامتنع الشيخ وقال:

إنما أمرت أن أبلغ ذلك مشافهة.

فقيل له: أن جلالة مولانا السلطان لا يعرف اللغة العربية، وأنت لا تعرف اللغة التركية، فكيف يمكن أن تخاطبه بلا واسطة؟ فأصر الشيخ على ذلك. وفي الغد أمر السلطان أن يكون المترجم (بهرام أغا)، فأبي الشيخ مرة ثانية، وقال لا أفعل إلا ما أمرني به النبي صلى الله عليه وسلم. وبعد يومين عاد الشيخ ووجهه متهلل بالبشر وقال: قد جئت لأبلغ السلطان بنفسي من غير واسطة، فأنا الآن أتكلم التركية.

فسألوه: وكيف إستطعت ذلك. فقال أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءني في الرؤيا وتغل في فمي، فتكلمت بالتركية. فلما سمع السلطان بذلك أحضره وسمع منه الرسالة النبوية، ولا يعلم أحد عن هذه الرسالة شيئًا ما إلى الآن.

ومن ذلك اليوم أصبح الشيخ أثيرًا عند السلطان. بل قل أصبح الرجل الأول في البلاط الحميدي.

وطفق المويلحي يسخر من الشيخ أبي الهدى وسائر المشايخ بالقصر السلطاني، ومن ذلك:

«أن الشيخ ظافر المغربي لما رأى أن الإعتقاد قد رسخ فيه بالسراي توسع في الأمر، ومن ذلك أنه كان جالسًا في الحضرة السلطانية مع السيد أبي الهدى، وفي أثناء الحديث قام من فوره، وقال بهيئة الخضوع والخشوع: «على الخالي وعليكم السلام ورحمة الله!».

فسأله السلطان بعد أن قام الشيخ أبو الهدى عن هذه التحية، فقال: أن الخضر عليه السلام قد مر بنا وسلم علينا. فرددت عليه السلام.

وخرج الشيخ ظافر من حضرة السلطان فإلتقى بإخوانه من المشائخ، وفيهم أبو الهدى، فعنفوه وأنبوه وبكتوه وتوعدوه أن عاد إلى مثل ذلك. فقال لهم: إعذروني فقد أخذني الحال!

ترى لماذا عنف الشيوخ واحدًا منهم – هو الشيخ ظافر– على ذلك؟ لا لأنه كذب وإحتال على السلطان، ولكن لأنه أوشك أن يكون أكثر منهم سلطانًا على نفسه، وهم لا يريدون ذلك.

إلى هذا الحد سخر المويلحي من مشايخ السلطان عبد الحميد. وهي سخرية بنيت على ذكر الوقائع التي صدرت عن أولئك الشيوخ. وأتي المويلحي فسرد هذه الوقائع بهذه الطريقة التي تضحك الناس من السلطان عبد الحميد وتضحكهم كذلك من أبي الهدى الصيادي وزملائه.

ولم يكد يسمع السلطان عبد الحميد بنبأ هذا الكتاب الخطير حتى أصدر أمره بمصادرته وإحراقه، ولم يسع المويلحي إلا الإنصياع لهذا الأمر، فجمعت النسخ وأرسلت سريعًا إلى الأستانة، وتولي البلاط العثماني إحراقها. ولكن نسخًا قليلة تسربت إلى دار الكتب، منها هذه النسخة التي رجعنا إليها.

***

وثم صفحة أخرى من صفحات الأدب الساخر في مصر، تتصل بالمساجلات التي كانت تدور بين الشيخ على يوسف صاحب المؤيد، وإبراهيم المويلحى صاحب مصباح الشرق.

حدث أن إلتقى محمد المويلحي نجل ابراهيم المويلحي بشاب من (أبناء الذوات) في القاهرة، وإسمه محمد نشأت.. وكان لقاؤهما في حانة من الحانات إسمها (حانه در كوس) وتعدي محمد المويلحي على محمد نشأت، وسب أباه، فما كان من الشاب الثري إلا أن لطم محمد المويلحي على خده.

وذاع نبأ هذه اللطمة في الأوساط الأدبية بمصر في ذلك الوقت، وكان للمويلحى الكبير والمويلحي الصغير أعداء كثيرون. منهم الشاعر المصري المعروف (إسماعيل صبري). فإتخذ من هذه اللطمة موضوعًا للسخرية والتندر. وكذلك فعل الكثيرون من الأدباء في مصر وقتئذ.

ونشرت المؤيد هذه الإشعار والمقالات. وأطلقت على العام الذي نشر فيه هذا الأدب الهجائ، وهو عام ،١٩٠٢ إسم (عام الكف)!

وانتقم المويلحي بعد ذلك من صاحب المؤيد في حادث زوجته السيدة صفية السادات، وطلب أبيها طلاقها منه بدعوى أنه ليس كفؤًا هذه الزوجة. وكان ذلك عام ١٩٠٤.

ونشرت صحيفة (مصباح الشرق) كثيرًا من المقالات الساخرة في هذا المعنى، وأطلقت على المقالات التي نشرت يومئذ إسم (عامل كفء).

أما الشاعر إسماعيل صبري فقد نظم في هذا الموضوع إثنتي عشرة قطعة نقتطف من الأولى على سبيل المثال:

إذا فـــتح العـــداة عليـــك حربًـــا وخفـــت بـــوادر المتحـــز بينـــا

فقـــل وارفـــع عقيـــرة مـــن ينـــادي فـــلا يجـــد المـــؤازر والمعينـــا

أعرنـــي بـــابن إبـــراهيم صـــدغًا أخـــوض بـــه غمـــار الصـــافعينا

فـــإن هـــو قـــد أعـــارك مـــا ترجـــى رأيتهمـــــو أمامـــــك هاربينـــــا

كمـــا هـــرب الفتـــي الصـــفاع يومًـــا أمـــام الكاتـــب بـــن الكاتبينـــا

ومن الثانية تحت عنوان «الأسلحة الجديدة»:

قلـــت لنجـــل الصـــافعين احتـــرز مـــن صـــدغ ابـــراهيم يـــوم الكفـــاح

ولا تمـــــازح إن رأيـــــت ابنـــــه شـــاكي صـــدغ لا يجيـــب المـــزاح

فقـــال لـــي: ان كـــان كفـــي معـــي مـــا دمـــت حيـــا لا أهـــاب الســـلاح

ومن الثالثة:

يـــا صـــريع الأكـــف صـــدغك أمســـي خلقًـــا مثـــل طيلســـان ابـــن حـــرب

أنـــت فـــي ألحـــان فـــي أمـــان وســـلم وهـــو فـــي معمعـــان حـــرب وضـــرب

ومن الرابعة:

قفالـــك محمـــد نعـــم الســـلاح إذا التـــف بالعســـكر العســـكر

وصـــــدغك أن نقـــر النـــاقرو ن عليـــــه يـــرن ولا يكســـــر

من الخامسة بعنوان (النصيحة):

يا بن الأولى رسخت أحلامهم ورست اذ الأكـــف مجـــانين مهـــاويس

لا تــدخل الخــان والصــفاع ثــائرة حتــى تقــام حواليــك المتــاريس

وقــل لصــدغك يســتقبل وفودهمــو بالبـــاب إنهمـــو قـــوم منـــاحيس

وأما القطع البائية فهي (مناجاة) بين الأب وإبنه ومحاورة بينهما في نفس المعنى المتقدم.

أبو نظارة
إمام السخرية في العصر الحديث

لا نستطيع أن نتحدث عن السخرية في القرن الماضي دون أن نذكر امام الصحافة الساخرة غير مدافع، ذلك الفتى الإسرائيلي الأصل «يعقوب بن صنوع»، المعروف في التاريخ المصري بإسم (أبي نظارة).

وقد كان هذا الفتي كذلك من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغاني، وممن نفخ فيهم هذا الزعيم الشرقي الخطير من روحه، ودفعهم بيده، ورسم لهم طريق الكفاح عن الشعوب الشرقية المستضامة ضد حكامها الظالمين، وضد الإستعمار الأوروبي البغيض، فمن تلاميذ السيد جمال الدين من إختار لنفسه الصحافة الجادة، مثل محمد عبده وغيره. ومنهم من إختار النفسية الصحافة الهازلة مثل أبي نظارة هذا، ومنهم من جمع بين الأمرين مثل النديم.

وقد عاش «ابن صنوع» يسخر من الخديو إسماعيل، وينال منه ويحرج صدره بالنقد حتى إضطر إسماعيل إلى إصدار أمر بنفيه من مصر إلى فرنسا، حيث عاش معظم حياته الصحفية.

والمهم أن يعقوب بن صنوع سلك في سبيل سخريته طريقين، هما طريق الصحف، وطريق المسرح، ونجح فيهما نجاحًا عظيمًا أوغر صدور حاسديه، وأخاف منه الخديو إسماعيل، فلم يجد بدا من نفيه كما رأينا.

أصدر إبن صنوع أول عدد من مجلته الفكاهية، المسماة «أبو نظارة زرقاء»، بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٩٥ هجريًا، و به فصل بعنوان:

«حكم قراقوش»، وهو لعبة تياترية حصلت في قبلي في أيام الغز سنة ١٢٠١ هجريًا، و أشخاصها السنجق ظالم أوغلو وطرطور أغا القواص، وأبو نفوسة شيخ البلد – ويصف لنا هذا الفصل الطريقة القاسية التي كانت تجمع بها الضرائب من الفلاحين، إذ يطلب السنجق إلى أبي نفوسة شيخ البلد. أن يجمع العوايد والمال، والإعانة والمكايلة، والسخرة، فيرد أبو نفوسة قائلًا: هو إنتو خليتو في البير بكرة ولا سلبه! والثور، وحياة السنجق، بعناه بربع الثمن. أجيب من الهوا المحابيب (أي النقود) للعوايد، والمجابلة، والدواهي الحارة دي كلها إلخ».

وتوالت أعداد (أبي نظارة زرقاء) وهي تبين مظالم العهد تارة، وتذم الجهل وتمدح العلم تارة، وتوضح فضائل الحرية وتحارب التعصب الديني تارة، وهكذا ولما رسخت أقدام هذه المجلة الفكاهية في الميدان، وأحبها الجمهور المصري إذ ذاك، ووزعت من أعدادها الآلاف في الوقت الذي كانت فيه أكبر الجرائد إنتشارًا لا تبيع من أعدادها إلا نحو الخمسمائة على أكثر تقدير.. لما حدث كل ذلك لجريدة يعقوب بن صنوع رأي الفرصة سانحة لتوجيه النقد اللاذع للخديو إسماعيل.

وبنى الرجل سياسته في هذه الجريدة على التقريب بين المصريين والدول الأوروبية كلها، ما عدا إنجلترا التي تنظر مُنذ بداية القرن الماضي إلى إحتلال مصر وتتحين كل فرصة ممكنة لبلوغ هذا القصد.

وبدأ أبو نظارة من ذلك الحين يصف الظلم الذي يقع على المصريين، وهو ظلم يصور عهد إسماعيل، ولكن أبا نظارة كان يخفي ذلك بقوله في آخر كل محاورة من محاوراته:

«يارب العالمين، إحفظ لنا عزيز مصر لكونه يحب عبادك، ويسعى في سعدهم»[1].

ومما يدل على أن إبن صنوع كان يقصد الخديو إسماعيل بهذه المحاورات التي أشرنا إليها، أمور كثيرة نكتفي بواحد منها على سبيل المثال:

شاع في أيام إسماعيل إنه كان إذا غضب على أحد من أصدقائه دعاه الى القصر وقدم إليه فنجانًا من القهوة فيه سم، فما بكاد هذا الرجل يصل إلى بيته حتى يخر صريعًا وتخفى الأسرة مع ذلك سبب موته.

شاعت هذه الأخبار وأمثالها في أيام إسماعيل، فأشار إليها إبن صنوع إشارة خفية في بعض محاوراته حيث يقول:

«أبو الشكر: يا مرحبًا بك يا أبو نظارة»!

أبو العينين: تفضل أقعد يا عم وإنجلي..

خلاط: تريد تشرب إيه؟

أبو الشكر: أبو نظارة قتيل البيرة!

أبو العينين: لا_ الراجل يحب القهوة.

أبو نظارة: لا يا خويا– القهوة ما أحبهاش لأنها خطرة في الأيام دي. واللي يشرب منها فنجان واحد يبرم!

وطفق أبو نظارة يهاجم في مجلته كذلك الوزراء والأمراء والموظفين من

---

(1) العدد السادس في ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٢٩٥، نقلًا عن كتاب أبو نظارة للدكتور إبراهيم عبده. وقد خصصنا هذا الكتاب بالإشارة كمرجع من المراجع والسبب واحد، هو أن صحف أبو نظارة لا وجود لها تقريبا في مكتبات مصر ولندن وباريس. ولولا أن الدكتور إبراهيم عبده عثر عليها مصادقة عند إحدى بنات يعقوب بن صنوع، وإلا عرفها أحد من أبناء هذا الجيل.

الأتراك والأوروبيين. وذلك فضلًا عن مهاجمته الخديو. وكان لا يذكر الخديو بالشكر والثناء إلا في المواضع التي لا محل فيها للشكر والثناء. وكأن هذه الطريقة الأخيرة كانت هي الأخرى من الطرق التي أخذ يسخر بها من الخديوي. وكان يشير إليه دائمًا في المحاورات بإسم «شيخ الحارة»، كما يشير إلى الفلاح المصري بإسم: «أبي الغلب» ويشير إلى نفسه باسم «السيد الحبيب القريب»، ويشير إلى الأمير حليم عم الخديو إسماعيل باسم «الكريم الحليم»، وكان هذا الأمير أمل المصريين في عهد إسماعيل وتوفيق.. والظاهر أن أبا نظارة كان يدعو لهذا الأمير في مجلاته.

وهذه علة الإكثار في مجلة «أبي نظارة زرقاء» من عبارة (ربنا كريم وحليم) في كل مناسبة من المناسبات المختلفة. وبقي المصريون على ذلك حتى مات الأمير حليم، ثم تولى العرش عباس حلمي الثاني.

نفي (ابن صنوع) إلى باريس سنة ١٨٧٨. وهناك أصدر طائفة كبيرة من الصحف هي في الحقيقة أسماء لصحيفة واحدة. وقد إضطر إضطرارًا إلى هذه الطريقة الأمور كثيرة، من أهمها محاربة الخديو إسماعيل، ومجلس النظار المصري، ورجال الإحتلال البريطاني، لهذه الصحف مهما كان إسمها أو لونها.

ومنع هذا وذاك فقد إحتال إبن صنوع بكل الطرق الممكنة حتى نجح في نشر جريدته سرًا في ربوع مصر والشرق. وهال ذلك إسماعيل في نهاية الأمر فكان لا يملك نفسه من الغضب حينًا، وكان يلجأ إلى الحيلة أحيانًا. ومن ذلك إنه كتب إلى يعقوب بن صنوع في باريس يدعوه إلى العودة إلى مصر، ويمينه بالرتب ونحوها، فما كان من يعقوب إلا أن أجاب عن ذلك بقوله:

إني أفضل أن أعيش في المنفى على أن اكون غنيًا في خدمة طاغية!

والعجيب أن يعقوب بن صنوع لم يكتف بذلك، بل نشر هذا الرد في بعض أعداد مجلته ضمن صحف أخرى مصورة، وبعث بها إلى الخديو إسماعيل ليقف بنفسه على طريقة من الطرق التي ينشر بها أبن صنوع جريدته سرًا في العالم الشرقي، فجن جنون إاسماعيل ولم يجد حلًا مع هذا الفتى الإسرائيلي العجيب.

وما أكثر تلك الطرق التي إبتدعها ابن صنوع لإذاعة صحيفته، وما أكثر الأسماء التي إخترعها كذلك لهذه الصحيفة، حتى يوهم أولي الأمر بمصر إنها صحيفة جديدة، فمرة يسميها (مجلة أبو نظارة زرقاء) وأخرى يسميها (النظارات المصرية) وثالثة يسميها (أبو صفارة)، ورابعة يسميها (الحاوي) وهكذا.

وقد صدرت هذه الصحيفة في ٧ أغسطس ١٨٧٨ بإسم «رحلة أبي نظارة زرقاء»

وجاء في عددها الأول محاورات منها:

(شيخ الحارة) – (وهو الخديو إسماعيل): التوبة من دي النوبة، أشفق يا أبو نظارة على عمك شيخ الحارة. جريدتك ضربها قاسي، أخاف منها على رأسي، دي حطت في قلبي الرعبة، بأقوالها المخيفة الصعبة إذا رفعت عني الجريدة، أرجع لطرايقي الحميدة.

أبو نظارة– أنت عمرك ما تتوب، ولو رجموك بالطوب. ده أنت أمرك عند الجميع معلوم. بقى كيف أشفق عليك يا مغموم. والله ما أرحمك، يا مطعم الناس للسمك. يا خبيث يا مسموم الريق. يا قاتل الأمير الصديق.

أبو الغلب (الفلاح المصري): ما نشفجش يا أبو نظارة.

الشفجة في الغاير ده خسارة. ده جتلنا من الظالم والجور، ونازل علينا زي ما ينزل الوأج عالتور. جبر يلمه، ويعتقنا من ظلمه!»

وفي وصف الخراب الذي عم البلاد في أيام إسماعيل، وإدعاء هذا الأمير بأن الأجانب في مصر هم السبب الأول والأخير في هذا البلاء العظيم، يأتي (إبن صنوع) بمحاورة من محاوراته لتكذيب كل هذه المزاعم من جانب الخديو: وعنوان المحاورة هكذا:

(البرلمنتو المصري)

الرئيس: (يوجه نظرة إلى الأعضاء: ويتف وينف ويقول):

سعادة ناظر المالية، إسل إلينا إفادة رسمية باللغة الإنجليزية، لأجل الضرائب الميرية، لسداد الديون المصرية، وتحصيل الأموال المتأخرة لغاية ثمانية وسبعين أفرنجية، ودفع المتأخر من الماهية، والذي يتأخر عن السداد بالطريقة الخبية، يعامل بالقوة الجبرية، وتباع أطيانه وموجوداته بمعرفة المديرية، وأفندينا قر على هذه القضية. فكلا منكم يبدي رأيه بالحرية. ولا تخافوا من شيء بالكلية.

أبو جموس: إن كانت المادة نفاق، فإحنا نقر بالوفاق، وإن كانت حرية، نبدي أفكارنا القلبية.

الرئيس: شوف يا شيخ عبد العال. أنا لا أعرف النضال ولا المحال، وأنا أحب الحرية، فتكلم بخلوص نية، وسلامة طرية .

أبو جموس: المادة مش حاوجه مداولة، ولا كثر محاولة، إحنا قبلنا كل النوايب، اللي مرت علينا مع جميع المصائب، وبعنا ما ورانا وقدامنا. ولا

خدناش حاجة أمامنا. ده إحنا عشمنا من سى فلسن. يريد المستر ويفرز ولسن ناظر المالية في الوزارة المختلطة) والجماعة الأوروباوية، أن يخلصونا من العبودية. لما سمعنا بأنهم ناس طيبين، يكرهو الظلم المبين، وبسلامتهم مأفلحوش. ربنا يغنينا بفرجه العميم، ويولي علينا راجل كريم حليم (يريد الأمير حليم أصغر أولاد محمد علي). ويعتقنا من جور شيخ الحارة اللعين. اللي سخمط وش الحمارة طين، وأنا وحياة رأسك ما فيش ولا كبلة غلة، ولا جاموسة ولا عجلة، ولا قرص جله. فيكفانا ظلم وخسارة. والله أعلم بما في الضمائر وما تنطوي عليه السرائر.

الرئيس: وأنت قولك إيه يا شيخ محمد؟

الشيخ محمد: إحنا لا نعرف مدير مالية، ولا ناظر خارجية. دول ناس ملاعين يرطنوا بلسانهم الأعوج، وهم لابسين بتوع طول إسمهم برانيط.. ويردعوا نبيذ كثير ويتغدوا بلحم الخنزير أما إحنا ناس هوارة، نعرف طيب في قناية الفرس والحمارة، وأعرف سعادتك إننا ما قبلش زيادة ضرائب، ولا كتر مصايب.

وعاوزين نخفف المربوط، ولا نسأل عن فلسن ولا مريوط. وإن إنفلق شيخ الحارة، ما لنفع ولا بارة.

وإلا– إن كان القصد بحضورنا الآن الضحك عبناري زمان فإحنا وحلانين وعن ذاتكم مستغنيين. وإن كنتم عارزين النياشين بتوعكم خدوها، والفلاحين أهي قدامكم كلوها. لأن بلدنا وحياة ربك بعد ما كانت حايزة كمال اللطافة. أصبحت من كتر الظلم كوم شقافة.. والله يجازي إبن الحرام. إلخ.

وفي تلك المحاورة السابقة يقف أعضاء البرلمان المصري موقف

المعارض لهذه الضرائب التي يفرضها إسمعيل من حين إلى حين. وبهذه الطريقة نفسها أوغر إبن صنوع قلوب العسكريين كما أوغر صدور المدنيين.

وحين علم (أبو نظارة) أن الخديو إسمعيل نزل من أملاكه لتسديد الديون، وسخر من حالته سخرية لا تخلو من لذع وشماتة، وذلك في زجل من أزجاله. يقول فيه على لسان الخديو:

إيـــه دي العبـــارة المتعوســـــة صـــــبحت دوايـــــري معكوســـــة

والحســــــرة فـــــي مغروســــــة دي وقعتـــــي وقعـــــة خرفـــــان

شرم برم حالي غلبان

مـــا أعـــرفش إيـــه مـــن دا الطـــالع مقصـــــودهم أبقـــــالهم خـــــالع

وإطلــــع كـــــدا مغتـــــاظ والـــــع يـــــا محـــــلا لمـــــا أصـــــبح عريـــــان

شرم برم حالي غلبان

دول ســـــلطوا المســـــتر فلـــــن أكمشــــوا مجـــــدع وملســـــن

لعـــــن خاشـــــي بركـــــات ورســـــن مـــــا خلاليـــــش فـــــي الـــــدار أمـــــان

شرم برم حالي غلبان

وجـــابولي عمـــي الشـــيخ نوبـــار وعملـــــوه رئـــــيس لكبـــــار

يحمـــــر لـــــي عينـــــه زي النـــــار وأنـــــا قاعـــــد قصـــــاده جربـــــان

شرم برم حالي غلبان

ويمضي يعقوب بن صنوع في مهاجمة إسمعيل بعد إن وصل إلى هذه الحال السيئة من الخوف ومن الذل. وبعد أن حاول إرضاء الشعب المصري

بطرق كثيرة، منها إسناد الوزارة إلى (شريف) الذي كانت تحبه الطبقة المستنيرة من هذا الشعب ويكتب يعقوب في صحيفته رسالة بعنوان:

من أبي نظارة معظمة في مصر

إلى أبي نظارة زرقا بباريس

وفيها:

لا تظن الوزارة الجديدة بطول عمرها. بل تستعفي عن قريب. لأن مازال الجندي (يريد إسمعيل) يلعب بديله كسوابقه، وأوامر يصير أجراءها بدون علم أبو شرف، وبابا راغب، والظلم والجور على حاله. وصدق من قال:

لا تفرحوا لمن يروح لما تشوفوا مين يبجي.

شوف يا عزيزي:

إذا رب العالمين عين سيدنا موسى ناظر مالية، وسيدنا عيسى ناظر خارجية، وسيدنا محمد ناظر جهادية، كن ميقن أن فرعون يعمل شغله بسحره ويضحك عليهم. وكلما مسكوه بسرقة وقالوا له: جزاء الحرامي قطع يده، يقول لهم :(والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس)، توبة من دي النوبة.

لذلك أقول – وهذا رأي جميع أبناء مصر– إنه إذا ما إسعفناش مولانا الأعظم بحلمه (يريد الأمير حليم) تحصل أشياء عمرها ما حصلت لأن العالم هنا يئسوا وقطعوا الرجا والدنيا صبحت سودا أمام عيونهم، ولا حد يشفق عليهم)...

ونريد أن نختم الكلام عن سخرية إبن صنوع بالخديو إسمعيل بقطعة من لعبة تياترية له بعنوان:

شيخ الحارة

وفيها يصور لنا الخيو إسمعيل بصورة رجل حزين تكاثرت عليه الهموم، وأصابه الأرق والسهاد بسبب ذلك. فهو لايذوق طعم النوم والراحة ولا يعرف كذلك طعمًا للأكل والشرب، ولا يستجيب لدواعي اللهو أو المرح. وقد سهر في ليلة من الليالي حتى طلعت الشمس في اليوم التالي، وأخذ يحدث نفسه إذ ذاك بهذا الحديث:

(... راحت عليك يا بو السباع. الله يلعن اليوم اللي فيه توليت شيخ حارة. ده كان يوم نحس. وأنا كان مالي وكان مال الشبكة دي اللي زي الطين. المكتوب على الجبين تراه العيون. نعمل إيه في قمع الدنيا؟ أدينى صبحت أشقى مخلوقات الله، والخوف قاتلني. مائتين عسكري ومدفعين حول سرايتي وبرضو مرعوب. وكل ما أسمع حد جي على أتفزع وقلبي يطب، وأقول في نفسي: أهم ضباط الجهادية، وتلامذة المدارس وأولاد البلد، والفلاحين جايين ينتقموا مني، ويقبضوا روحي، ويأخذوا مفاتيح السهاريج، وينهبوا الأموال اللي لميتها بغاية التعب والمشقة، ويولوا عمي الحليم شيخ حارة.. بلا هلس.. ده أنا سيدهم في المكر، ولا أخاف من ملك الشياطين. أما الجماعة مستحلفين ليه بقطعة علقة صنعة. ما يطلعش من يدهم حاجة. البصاصين كثير. ومأمور الضبطية جدع، ولي حبايب أصدقاء بين الضباط والتلامذة. وبيعرفوني بكل اللي يحصل يومي. أما أبو نضارة اللعين راح جدد له جورنال ثاني وقال في حب الوطن. أهو زي الكلب اللي ينبح. خليه يعوي..

آه يا سماعيل: أنت بتسلي غلبك وهمك بالكلام ده.. إنما قلبك بيرجف. وضميرك في قلق. أهو الليل بيفوت بطوله عليك ما بتذوق النوم.. أديني سامع تشخير الأغاوات. يا بختهم دول مبسوطين. ولا هم عارفين الدنيا

بتعمل بهم إيه. والناس اللى ما يفهموش الصورة أيه يقولوا عليهم دول مساكين، تكونهم محرومين من لذات الدنيا. آه يا مغفلين. والله ما حد محروم غيري أنا. لكوني ما بستلذ لا بأكل ولا بشرب من خوفي أن خداميني يسمعوني، ولما أخرج من البيت كلما أعدي على شارع وأجد فيه زحمة يبان لي أن يوم القيامة جه. وأنظر يمين وشمال. ومن لحظة للحظة يتراءى لي أن العالم رايحة تهجم على عربيتي وتهلكني.. يأخي لا.. والله إين مجنون. هو أنا في أوروبا؟ إحنا في مصر. وأولاد مصر يخافوا من خيالهم. دول ناس ظرطة من غير مؤاخذة تطيرهم، ولا ما كنتش خلصت من أيديهم يوم قيامة الضباط.

أديني بأعمل بكيفي. ولا حد قادر عليّ. غبار طلعت عليه خناقة وشقلبته رغمًا من أنف مشايخ حواري إلا فرنج.. وفلسن، وبلاتور دسيتهم في جيوبي. وبأذن الله أنتصر على (شيخ التمن)– يريد سلطان تركيا– وأحطه هو ووزيره في الجراب.

أما اللي غايظني أنا هو أبو الحلم –يريد الأمير حليم–، لأن كل الشعب هنا بيحبه. وإلا ما كانوش يكتبوا لشيخ اليمن ولأعظم ملوك الأفرنج، ويشنكرا من جوري وظلمي، ويقولوا عاوزين لهم شيخ حارة كريم حليم. الله ينعلكم يا أهل مصر يعني أنا عملت لكم إيه؟ أنا شاريكم من عبد العزيز (يريد السلطان عبد العزيز سلطان تركيا). ودايما السيد يفعل في عبده كما يشاء. فلوسكم دي فلوسي. وأنتم ملزومين تخدموني بالسخرة. وإلا يكون الفرق بيني وبينكم إيه؟

أما الفلاحين بيموتوا من الجرع. إن شاالله ما فضلوا. العلاج ماهوش بني آدم. الفلاح بهيم وربنا خالقه للتعب زي الثور. والثور أنفع منه. لأنه بيعطيني لحمه آكله. أما الفلاح فإنه نتن وهو حي، وبعد موته القبر فيه خسارة. لو

كان هنا الخنزير أبو نظارة.. كان يقول في القبر خسارة فيك يا فرعون؟ لكونك بتظلم خلق الله. وإنما أبو نضارة نفيناه من حارتنا. وآهو قاعد بيشحت في بلاد فرنسا.

أهي الشمس طالعة. وأنا ليه ما نمتش. آه من عيشتي ما أمرها، والعمل إيه؟ الشيطان يدبرني!).

***

وفي المنظرين الرابع والخامس من اللعبة التياترية السابقة بعنوان «شيخ الحارة» أحب أبو نضارة أن يحض المصريين على الثورة على إسمعيل، وتخيل لهم ثورة بالفعل، وأجرى الحديث في هذين الفصلين السابقين على لسان كل من: شيخ الحارة (إسمعيل)، وتوفيق أفندي (الخديو توفيق) وتحسن وتحسين ورياض (حاملين أكياسًا على أكتافهم، وأوراقًا تحت آباطهم) ووراءهم عدد من الموظفين وشيخ الأزهر:

«رياض: إتلحلحوا يا جماعة مانتوش سامعين الزعيق من بعيد!»

الجميع يرمحوا.

مشايخ الأزهر: (على بعد): ربنا كريم حليم يأبو نضارة. الله ينصرنا على شيخ الحارة.

توفيق: حتى المشايخ ضدنا ده أنا يوم الدوسة عملت لهم مقام. (الدوسة عادة من عادات مشايخ الطرق يجتمعون لها وينبطح المريدون على الأرض وتمر فوق أجسادهم بغلة الشيخ وتحدث لهم البركة بزعمهم من أجل ذلك).

شيخ الحارة: جعانين نعطي لهم لقمة جراية يسكتوا.

مجدع (يسلت سيفه ويقول لشيخ الحارة): طالع ترمح على فين يا فرعون؟

حدق: الأكياس دي والأوراق ثقيلة عليكم. (يأخذها منه ويعطيها للتلامذة والضباط).

عمر شهامة: آه يا غاير. ياما عملت فينا!

أبو الخير: (يقول لشيخ الحارة): إقرا هذا الفرمان من مولانا السلطان!

أبو الحلم (الأمير حليم). أنا نصحتك يا إبن الأخ من مدة سنة بجوابي فلو كنت سمعت كلامي كان البر إنصلح. وأنت فضلت عليه شيخ حارة. إنما أنت خربته وهتكت إسم مصر وأهلها.

حدق: لما توليت يا فرعون البر ما كانش مديون. واليوم عليه ميت مليون. والمبالغ دي كلها راحت فين؟

مشايخ الأزهر: بنى بها سرايات. وصرفها في الفسق والفساد.

عمر شهامة: وبدل ما يساعد الفلاح ويصلح أحوال الزراعة اللي هي سعادة أهالي القطر، فرعون بسلامته نهب وباع أطياننا ومواشينا، وموتنا من الجوع.

مشايخ الأزهر: فرعون كافر وآخرته الجحيم، وربنا كريم حليم!

أبو الخير (إلى الضباط): تسليمكم شيخ الحارة وأولاده ووزيره. إذهبوا بهم إلى الإسكندرية. وأنت يا مجدع باشا سلمهم إلى قبطان مركنا العثمانية. وهو يجري اللازم.

(الضباط ومعهم حدق يفعلوا ذلك ويضربوا كل من يتجاسر على المعارضة)

شيخ الحارة: (يزعق ويقول): الحارة حارتي! وأنا شيخها وأنتم مالكم ومالي.

مشايخ الأزهر: جرجره. ما تسمعوش كلامه

(الجميع يغنون):

أنـــت فـــين يـــأبو نضـــارة تيجـــي تشـــوفنا منصـــورين

علـــى عمـــك شـــيخ الحـــارة وعلـــى ولادة المنحوســـين

النهـــارده يـــوم عظـــيم افرحـــوا يـــا أهـــل النيـــل

الله ينصـــر ســـي حلـــيم ويعـــذب إســـمعيل!

ويشاء القدر الحكيم أن يعزل إسمعيل ويتولى مكانه إبنه توفيق. وكان الشعب يتمنى أن يكون مكانه (الأمير حليم). وبذلك تحقق له نصف أمله. ولم يتحقق له الأمل كله.

***

هذا قليل من كثير مما كتبه ذلك الفتى الإسرائيلي الغيور (يعقوب بن صنوع) في صحفه الهزلية وهي كثيرة بأسمائها، ولكنها واحدة بأهدافها. فهي أبو نضارة زرقا، وهي النظارات المصرية، وهي أبو صفارة، وهي أبو زمارة، وهي الحاوي وهكذا.

وكلها مكتوبة بتلك اللغة العامية، وكلها تهدف إلى نقد الأمراء من نسل محمد على، كما تهدف إلى نقد وزرائهم وأعوانهم. وحكوماتهم، وطرقهم في الحكم ونظرتهم إلى الشعب.

رحم الله أبو نظارة لقد كان أمه وحده، وكان جيلًا كاملًا في نفسه، كان

ثورة عارمة، وسخرية قاتلة، وقبسًا من نور الله تعالى في غبار مصر في القرن الماضي وكفاحه.

خيال الظل والسيف والكشكول

ومنذ أوائل القرن الحالي نشطت الصحافة الهزلية في مصر، وظهرت مجلات فكاهية كثيرة، منها على سبيل المثال: (حمارة منيتي)، و(المسامير)، و(خيال الظل)، و(مجلة السيف) إلخ.. وكانت تعني جميعها بالنقد السياسي قبل كل شيء. ولنضرب لذلك أمثلة قليلة منها:

صدرت مجلة «خيال الظل» سنة ١٩٠٧، وأرادت مهاجمة «حزب الأمة» وصحيفة «الجريدة» والتي كان يحررها الأستاذ لطفي السيد، وكانت لسان حال الحزب يومئذ. فكتبت «خيال الظل» تقول:

«سأل أحدهم بعض مستخدمي «الجريدة» عما إذا كان كل ما يكتبه فيها لطفي بك السيد بريشة عربية أو بقلم أمريكاني؟ فأجاب المستخدم بأنه يرى لطفي السيد يكتب بقلم إنكليزي أهداه إليه سعادة وكيل نظارة الحقانية!»

تريد المجلة بهذه النكتة أن تتهم كاتب الجريدة بميوله الإنجليزية، وقد بقي لهذه التهمة أثرها في كثير من أذهان الخاصة والعامة. والحقيقة أن الأستاذ لطفي السيد براء من كل ذلك.

وفي مجلة: «خيال الظل» يرى القارئ صورة «زفة الوداع» لكرومر. وفي الصورة يرى الأستاذ فارس نمر صاحب المقطم، ومصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء. وتحت الصورة كلام لهذا الأخير فيه يقول للورد كرومر:

– فأيتنا لمين يا سيدي؟

فيرد عليه اللورد كرومر بقوله:

– معلهش يا أبو درويش شد حيلك!

كما يرى القارئ بهذه المجلة صورة قصد بها التهكم من المصريين وذلك بعنوان:

«حديث الاعتصاب بين حمار وحصان»

الحمار: لو كان الحمارة يتعصبوا زي العربجية كنا على الأقل نستريح كام يوم!

الحصان: يا حسرة.. دول ما يتكلموش عمرهم. أنت مش عارف المصريين؟

وفي مجلة «السيف» باب بعنوان «باب الدلع» وفيه: سئل أحد النظار المصريين:

ـ إلى متى لا تعارض في أي أمر يصدره الإحتلال البريطاني؟ فقال: دارهم ما دمت في دارهم!

وفي المجلة السابقة كذلك باب بعنوان «يصح» ومما جاء فيه:

– يصح يا ناس أن البوليس ينام في الدورية؟

– يصح أن حكيم بباب الشعرية يبقى مغسل وضامن جنة؟

– يصح أنه يبقى قبطي صعيدي ولونه طحيني ويلبس برنيطة؟

– يصح أن الأفندي من دول يفتح قزازة بيرة في قهاوي الرقص ولمبة بيته من غير قزازة؟ إلخ.

ووجهت المجلة نقدًا إجتماعيًا من نوع آخر قالت فيه:

قولوا له

قولوا للبوليس	ولا كل من نامت عينه
قولوا لسنجر	ماكينات ولا غزل البنات
قولوا للطلياني	تعاود تيجي البر
قولوا للطلياني	جاك غرقة
قولوا للترمواي	مالك حايس ودايس
وكمان قولوا له	اطلع يا قاتل
وكمان قولوا له	دوس على رقبة اللى يعجبك
وكمان قولوا له	اللي تعرف ديته إقتله
وكمان قولوا له	ناس تتباس وناس تنداس. إلخ

***

وأخيرًا نصل إلى مجلة «الكشكول»، وقد صدرت سنة ١٩٢١، والمظاهرات الشعبية لم تزل على أشدها، والتصوير الكاريكاتوري قطع أشواطًا بعيدة في مجال التقدم.

وفي العدد الذي صدر بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٢١ نجد سعد زغلول يخطب في مواقف مختلفة..

يخطب بعد حادث سرقة وقتل من الحوادث الخطيرة، فيقول:

«يقولون إنه من اللصوص الأشقياء. فليكن. ولكن تناسوا عمدًا أنه كان يهتف بإسمي. فكانت هذه الروح الطاهرة البريئة ضحية الظلم والإستبداد.. إلخ».

ويخطب بين العُمال قائلًا:

«يقولون أن المفكرين مع عدلي يكن. كذبوا. من هم المفكرون؟ أنتم المفكرون لأنكم تهتفون لي: وهذا أكبر دليل على أنكم أنتم العقلاء المفكرون. إلخ»

ويخطب سعد بين الفتوات، فيقول:

«يقولون إنكم خطر على الأمن. كلا.. بل أنتم قوة لا يستهان بها.. أنتم عماد الوطن المحبوب. ولقد أصبحتم موضع إعجاب الأمم المتمدنة. إلخ»

(تصفيق حاد وهتاف متواصل)

ويخطب بين الطلبة في «بيت الأمة» فيقول:

«أنتم جنودي. وبكم أفاخر الأمم. أنا لا أمنعكم من إستعمال كل الوسائل ضد من لا يخضع لإرادتي، وأنصح لكم ألا تقرأوا الجرائد المخالفة لي. أسحقوها بأقدامكم، ولتحيي الرياسة. وليحيي رمز أمانيكم. إلخ.

(تصفيق حاد وهتاف متواصل)

ويخطب في الإتحاد الأزهري:

«يقولون.. يقولون.. ماذا يقولون.. أنا رئيسكم، ووكيلكم، ورمز أمانيكم وإستقلالكم وغير إستقلالكم، أنا وطنكم العزيز، ولقد تاب بعضكم فقبلت توبته، أن الوطن كان توابًا رحيمًا»

وفي مجلة «الكشكول» منظر لغد أمام ضاربة الودع، ومعه شنطتان إستعدادًا للسفر، وهي تقول له: «أرم بياضك. جايلك تجريدة في شنطة جديدة. قول إنشا لله..

سعد يروح ويرجع مشروح. قول إنشا لله..

تنول غرضك. ويزول مرضك. بس مش عارفه إيه غرضك قول إنشا لله. إلخ».

وكان من أبواب مجلة الكشكول باب بعنوان: (دائرة معارف وفدية) نقتطف منه ما يأتي:

الألف – حرف إستفهام في مثل قولك: أصوت للرئيس في الانتخابات. وتكون هذه الألف أحيانًا ألفًا زائدة (كنمر الوفد) فإنهم زيادة عدد. ولا رئيس الأسعد.

وتكون الألف للتنوين، كما في قولك: رأيت المارستان أعقل من (بيت الأمة). إلخ.

وهكذا تدور المادة كلها حول أمثلة عن الوفد وسعد وبيت الأمة. فإذا فرغت المجلة من الألف أنتقلت إلى الألف مع الباء فالتاء فالثاء فالجيم.. إلخ.

الدكتور محجوب ثابت

ولا تستطيع الصحافة المصرية في مجال الكلام عن الفكاهة والدعابة أن تنسي الدكتور محجوب ثابت. وقد كانت شخصيته كبيرة متعددة الجوانب. ولكن غلب عليه التحمس لبعض الأفكار السياسية، ومنها فكرة السودان. إلى حد أثار في نفوس مواطنيه شعورًا، هو مزيج من الإعجاب، ومن الضحك أو المرح.

وكان كبار الساسة في زمانه كسعد زغلول ومحمد محمود وإسماعيل صدقي والنقراشي كثيرًا ما يقضون الساعات الطوال في مداعبته وإثارته حتى يخطب ويتدفق ويأتي حركات مسرحية من نوع خاص، وكذلك كان يفعل كبار

الشعراء كشوقي وحافظ، وتفعل كبريات الصحف الهزلية في مصر كصحيفة الكشكول وغيرها.

وكان للدكتور محجوب عربة يجرها جواد أصيل خاض معه المعارك الوطنية تحت وابل من رصاص الإنجليز، وكان إذا جن الليل عرج الدكتور محجوب على محل (صولت) الحلواني المشهور (وكان في شارع فؤاد الأول) لتمضية السهرة مع صفوة من أصدقائه. وكان من بينهم محمود فهمي النقراشي، وأحمد شوقي أمير الشعراء. وكان الحصان يقضي ليلته رهن إنتهاء السهرة بغير طعام حتى يعود إلى الإصطبل قرب الفجر.

وقد أطلق المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري على حصان الدكتور محجوب لقب «مكسويني» تشبيهًا له بمستر مكسويني الأيرلندي محافظ «كورك» الذي أضرب عن الطعام شهرين إحتجاجًا على السلطات البريطانية.

قال شوقي مداعبًا الدكتور محجوب:

لكــــم فــــي الخـــط ســـيارة	حـــــديث الجـــــار والجـــــارة
كســـــــــــــيارة شـــــــرلوت	علـــــى الســـــــواق جبــــــارة
إذا حـــــــــــــركها مالـــــــت	علـــــى الجنبــــــين منهــــارة
وقـــــد تحـــــرن أحيـــــــانًا	وتمشـــــي وحـــــــدها تـــــارة
ولا تشبـــــــــــعها عـــــــين	مـــــن البـــــــنزين فـــــــوارة
ولا تـــــــروي مـــــن الـــــــزيت	وإن عامـــــت بـــــه (الفـــــاره)
تـــــرى الشـــــارع فـــــي ذعـــــر	إذا لاحـــــت مـــــن الحـــــارة
وصـــــــــــبيانًا يضـــــــجون	كمــــا يقلــــــون طيــــــارة

وفــــي مقدمهــــــــا بـــــوق وفـــي الآخــــــــر زمـــــــارة

وقــــد تمشـــي متـــى شـــاءت وقـــد ترضجـــــــــع مختـــارة

قضـــــى الله علـــــى الســـــوا ق أن يجعلهـــــــــــــــا دارة

يقضـــــي يومـــــه فيهـــــــا ويلقـــــي الليـــــــــل مــــا زاره

أدنيـــا الخيـــل يـــا مكســـي[1] كـــــدنيا النـــــاس غـــــدارة؟؟

لقـــــــــد بـــــدلك الـــــدهر مـــــن الإقبـــــــال إدبـــــاره

فصــــــبرًا يـــا فتـــى الخيـــل فـــــنفس الحـــــر صـــــبارة

أحقــــــــــًا أن محجوبًـــــــا ســــــلا عنـــــــك بفخـــــاره

وبـــــاع الأبلـــــق الحـــــــر (بـــــاو فرلنـــــــد)[2] نعـــــاره

ولـــــم يعـــــرف لـــــه الفضـــــل ولا قـــــــــــــدر آثـــــاره

قـــد أختـــار لـــك الشـــلح[3] ومـــــــا كنـــــت لتختـــــاره

فســــله مــــا هـــو الشــــلح عســـــى ينبيــــــك أخبــــــاره

كـــأن لـــم تحمــــل الرايـــة يـــــوم الـــــروع والشـــــارة

ولــــم تركـــب إلـــى الهـــول ولـــم تحمـــل علـــى الغـــارة

ولـــم تعطـــف علـــى جرحـــي مـــــن الصـــــبية نظــــــارة

ولا والله مـــــــــــا كلفــــــــــــــت محجوبًـــــا ولا بـــــاره!!

([1]) اختصار مكسويني.

([2]) أسم الماركة التي تنسب إليها السيارة.

([3]) يريد أنه شلح الحصان كما شلحوه من الوفد.

فـــــلا البرســــــــيم تدريــــه ولا تعـــــــــــرف نـــــواره

ولا تـــــروي علــــى (صــــولت) إذا نادمـــــــت ســــــــمارة

وقــــد تشـــبع يـــا ابــــن الليـــ ــــل مـــن رنـــة قيثـــــارة!!

عســـــى الله الـــــذي ســــاق إلـــى يوســـف ســــــيارة

يهيــــئ لـــــك هـــــــوارا كريمـــــــــا وابـــــن هـــــوارة

فــــإن الحـــــظ جــــــــوال وأن الأرض دوارة!!

ثم حدث أن أنطلق الجواد (مكسويني) من الأصطبل في حي البغالة، وأخذ يعدو ولم يستطع أحد الوقوف في وجهه، حتى صعد فوق تلال حي (زينهم) فكان أن سقط في حفرة عميقة فدق عنقه. وقد أتخذ أصدقاء الدكتور محجوب من هذا الحادث مادة للدعابة.

فقالوا: أن (مكسويني) قد عزت عليه نفسه فأنتحر. والحقيقة أنه نفق ضحية الهوى، إذ كان يقصد أنثي من نوعه في خيل تملكها إمرأة صاحبة عربات، وكانت مرابطها فوق تل (زينهم) وكان الدكتور يقول أن حصانه العزيز قد أنتحر بسبب العشق بعد أن برح به الشوق والهيام بصاحبته ومعشوقته!!

وأن ينس أهل القاهرة لا ينسوا أربعة من رجال المرح والدعابة، كانوا زينة المجالس الأدبية، وكانوا مصدر سرورها وأفراحها. وهم: حافظ إبراهيم شاعر النيل وأمام العبد، ومحمد البابلي الفكه المشهور والشيخ عبد العزيز البشري.

ولكل من هؤلاء الأربعة مواقفه الفكاهية التي يتناقلها الناس في مصر إلى اليوم، ويحفظون منها الشيء الكثير.

ولا يذكر أسم أحدهم في مجلس من مجالسنا إلا تهيأ الحاضرون للضحك، وأنتظروا أن يتحفهم محدثهم بنكتة طريفة، أو دعابة لطيفة.

كان إمام العبد أسود اللون، وكان يمشي مرة مع حافظ إبراهيم فوقع بصر هذا الأخير على سيدة جميلة، وإذ ذاك شوهد حافظ إبراهيم يقبل صديقه إمام العبد أمام هذه السيدة. فلما سئل في ذلك أجاب: أنني أقبل الأرض بين يديها.

ومشى الشيخ عبد العزيز يومًا في الطريق فصادفه رجل عامي بيده خطاب رفع به إلى الشيخ وطلب إليه أن يقرأه عليه. فنظر الشيخ في الخطاب وكان مكتوبًا بخط رجل من رجال الريف فلم يستطع أن يتبين منه شيئًا، فوجم قليلًا ورد الخطاب إلى صاحبه، فأستاء الرجل لذلك وقال له: عجزت عن قراءة الخطاب. أمال العمة اللي أنت لابسها دي فائدتها إيه؟

فما كان من الشيخ عبد العزيز إلا أن خلع عمامته ووضعها على رأس الرجل العامي وقال له:

«أقرأ أنت بقى»

وسمع السيد محمد البابلي رجلًا يغني في الطريق ويقول:

آه يا حبيبي فين أراضيك؟ فأجابه بقوله: (في البنك العقاري).

وكان السيد محمد البابلي يحمل عصا في يده وعليها الحرفان الأولان من أسمه وهما (م. ب) ولقيه صديق له فأظهر إعجابه الشديد بهذه العصا. وأنتظر أن يرد عليه بقوله له خذها هدية مني. ولكن السيد محمد البابلي أجاب صديقه على البديهة:

«شوف مكتوب إيه على العصاية دي. مكتوب عليها (م. ب) يعني: مش بتاعتي!».

وأفلس حافظ إبراهيم يومًا من النقود، وعجز عن شراء تذكرة يحضر بها حفلة خيرية في حديقة الأزبكية وأخذ يطوف حول الحديقة عساه يظفر بصديق يقرضه ثمن التذكرة فلم يجد. وأخيرًا لمح بين الواقفين على الباب صديقًا له أسمه رياض. فأشترط عليه هذا ألا يعطيه التذكرة إلا إذا نظم شعرًا فقال:

(رياض) الأزبكية قد تحلت بفتيان كرام أنت منهم

فهبها جنة فتحت لخير وأدخلني من المعفو عنهم

فضحك صديقه وأعجب بهذه البديهة ومنحه التذكرة.

ويطول بنا القول في مداعبات هؤلاء الأربعة الذين أشرنا إليهم. وليس هناك ما يدعو إلى الإطالة ما دام الناس في أيامنا هذه يحفظون الكثير منها.

وكنا نود أن نمضي في فكاهات العصر الذي نعيش فيه، ونأتي بنوادر عبد الحميد الديب، ونوادر الصحف المعروفة، كالبعكوكة، وآخر ساعة، وأخبار اليوم لولا أن هذه النوادر في معظمها قد تمس أفرادًا لا يزالون على قيد الحياة، وقد يتأذون من عملنا هذا، ونحن لا نحب الإيذاء.

على أن الطابع الذي يسودنا في هذه الفترة من حياتنا، وذلك مُنذ قيام الثورة الأخيرة على يد الجيش في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى اليوم يغلب عليه الجد. لا نكاد نستثني من ذلك غير الفكاهات الشعبية على ألسنة الشعب، أو على ألسنة بعض الشخصيات المعروفة في عالم التمثيل الهزلي كشخصية إسماعيل يس وشكوكو ومن إليهما. وعند هؤلاء نجد ألوانًا من الفكاهة

الشعبية تنصب كلها في هذه الأيام على شخصية الملك السابق وتتركز حوله وتهدف إلى النيل منه ومن الحاشية.

وما دمنا نشير إلى السخرية الشعبية في مجال التمثيل، فلا ينبغي أن نهمل الإشارة هنا إلى شخصية الساخر الإجتماعي الخطير «نجيب الريحاني». عليه رحمة الله. ورواياته التي سخر فيها من المجتمع المصري معروفة، ولم يزل كثير منها يعاد عرضه في دور الإذاعة والتمثيل إلى يومنا هذا. وهي خليقة بأن تكون موضع درس الدارسين ونقد الناقدين في الجامعة، ولذلك أرجئ البحث فيها لفرصة أخرى عسى أن يجود الزمن بها في القريب العاجل إن شاء الله.

السخرية في الأدب الأوروبي

مُنذ القدم والناس يألفون السخرية في الأدب. ولذا نجد هذه السخرية معروفة عند اليونان والرومان قبل أن تكون معروفة في الآداب الأوروبية التي نشأت على أنقاضهم. بل أن لفظ (Satire) أي السخرية، روماني الأصل. ومعناه السلة التي تجمع فيها بواكير الفاكهة الجديدة. ثم أصبح لهذا اللفظ معنى السخرية فيما بعد.

ويقال أن أول كتاب عرفي في السخرية عند اليونان الأقدمين هو كتاب (أركيلولوس) وهو كتاب بني في أكثره على الإعتداء الشخصي بالطريقة التي شهدنا أمثلة كثيرة منها في الأدب العربي.

وبقي فن السخرية مبنيًا على هذه القاعدة حتى ظهرت وسيلة جديدة من وسائل السخرية، هي وسيلة القصة الخرافية. وبقيت هذه الوسيلة هي الأخرى سائدة إلى أن ظهرت (الرواية المسرحية) فأعتمد عليها الأدباء كل الإعتماد في التعبير عن السخرية.

وهذا الذي حدث للأدب اليوناني القديم هو بعينه ما قد حدث للأدب الروماني القديم، فقد نبتت البذرة الأولى من بذور السخرية الرومانية في تلك المنظومات الفكاهية التي كان يتغنى بها الشعب الروماني القديم في أعياد الحصاد وفيها أنطلق الشعب إلى أبعد حدود الإنطلاق في الإباحية والأفحاش في المعاني والألفاظ.. وهكذا حتى ظهرت المسرحية الرومانية التي حلت محل الأغنية الشعبية للتعبير عن الفكاهة والسخرية في شتى الأغراض.

ثم في العصور الوسطى تظهر هذه الوسيلة الناجحة من وسائل السخرية. ونعني بها الخيال والحديث على ألسنة الطيور والحيوان.

ولعل قصة (الثعلب) المشهورة في تلك الأزمان كانت من الذيوع والإنتشار بحيث حفظها كل إنسان. وفيها ينتقد المؤلف المجتمع الفرنسي من جميع وجوهه وأوضاعه. وكان الثعلب من بين أنواع الحيوان يمثل الشر. وقد حمل هذا الكتاب على الملوك ورجال الحاشية ورجال الدين وعلى الطبقة الوسطى أو (البورجوازية) وغيرها من طبقات المجتمع الفرنسي.

وكان من القصص الذائعة إذ ذاك قصة (الفلاح الطبيب) الذي ضرب زوجته في يوم من الأيام، فأرادت هذه أن تنتقم لنفسها، فأشاعت في قريتها أن زوجها طبيب ماهر، ولكنه لا يمارس مهنة الطب، ولا يباشر العلاج إلا إذا ضربه أهل المريض ضربًا مبرحًا. وانتشر نبأ ذلك في أهل القرية، وأتوا به لعلاج مرضاهم بهذه الطريقة. ولكن الفلاح أستطاع بذكائه أخيرًا أن يتخلص من هذه الورطة. وفي نهاية القصة يصالح الفلاح زوجته ويترضاها ويعيشان في سلام ووئام.

ومن القصص التي راجت إذ ذاك قصة (القسيس آكل التوت) وتحكي لنا هذه القصة عن قسيس كان عائدًا من بعض زياراته على ظهر بغل. فمر تحت شجرة من أشجار التوت، وأراد أن يأكل من ثمارها. فوقف بقدمه على ظهر الدابة. ولما كان التوت لذيذ الطعم فقد أنطلقت من صاحبنا آهة إعجاب جعلت البغل ينفلت من تحته جاريًا فيسقط القسيس على الأرض، وقد أنكسر منه عضو. وهكذا تسخر القصة من رجل الدين.

كما تقسو قصص أخرى مماثلة على الأزواج المخدوعين في زوجاتهم، وعلى التجار الجشعين في طلب أرباحه، والفلاحين البسطاء أو السذج في

أخلاقهم. وكثيرًا ما تغالي هذه القصص وأمثالها في الحقد على المرأة.

شاع هذا الأدب الساخر في فرنسا في العصور الوسطى، حين بدأ الناس يثرون من التجارة، وأخذ الشعب الفرنسي نفسه يتطلع إلى حياة أفضل، كما شرعت الطبقة الوسطى تشارك هي الأخرى في الحركة الفكرية.

ولما كانت هذه الطبقة تميل بطبعها إلى كل ما هو واقعي، وتنفر من كل ما هو مثالي، فقد درجت يومئذ على إنتقاد الرقة المصطنعة، والتكلف الظاهر، والحركات الثقيلة التي تبدو من جانب الطبقة الأرستقراطية. وكان ذلك كله مادة للأدب الواقعي الساخر، الذي أفاضت فيه الطبقة الوسطى.

ثم في عصر النهضة جدت أمور كثيرة تدعو إلى إصطناع السخرية والتهكم. وفي أسبانيا – على سبيل المثال – تظهر الرواية التي تحذو حذو المقامة العربية، وتدور حول شحاذ، أو صعلوك، أو متشرد يجوب البلاد، وينتقل من مكان إلى مكان، ويلاقي الأهوال، ويتعرض في أثناء ذلك لنقد المجتمعات التي يراها، والناس الذين يلقاهم. وحسبنا هنا أن نشير إلى رواية (سرفانتيس) المشهورة لمؤلفها (دون كيشوت) Don Quixote وفيها سخر الكاتب من كل ما قدسته العصور الوسطى من معتقدات عن الفروسية والشهامة والدين ونحو ذلك. وفي هذه القصة – مثلًا – يظهر البطل (دون كيشوت) ومعه خادمته في مواقف تثير الضحك والهزؤ، وفي بعضها يظهر البطل بصورة الفارس الأحمق الذي يحارب الهواء، ويناطح الخراف، ويدعي الشجاعة ونحو ذلك.

وفي القرن السادس عشر ظهر في فرنسا الكاتب المشهور رابليه Rabilais الذي قضى حياته متنقلًا في مدن فرنسا وإيطاليا.

وفي شخصية من الشخصيات التي تظهر لنا في قصصه نرى ملكًا شريرًا يسير بشعبه إلى الهلاك، ويسوقه إلى الحرب كما تساق القطعان من الغنم، وذلك إرضاء لشهوته في الملك فقط. ونرى بين أبطاله شيخًا حنكته التجارب يحاول، ما وسعه، أن يحافظ على السلام، وأن يجنب الشعب ويلات القتال، ولكن إذا أضطرته الظروف إلى الحرب أدار دفتها بحكمة. وبهذه القصص وأمثالها تمكن رابليه من نقد المجتمع الفرنسي وملوكه وأمرائه ومثله وآرائه. ثم هو لا ينسى الجدل الذى أحتدم بين أبناء عصره حول المرأة، فيعالج هذه المشكلة بلغته الساخرة، ويضحك من الرهبان والقضاة والغزاة والحجاج والبروتستانت والكاثوليك على السواء، ومن أدعياء العلم وأساتذة الجامعات، ومن الكتاب والشعراء. غير أنه بالرغم من السخرية اللاذعة التي أتصف بها أسلوب هذا الكاتب الفرنسي، فإن سخريته هذه لم تكن بنا الهدم، بل كان لها مثل أعلى في البناء – ألا وهو الرجوع إلى العقل في تفسير ما غمض على الإنسانية كلها من أسرار، ومن ثم طفق يتهكم على المتطيرين، ويسخر من المتصوفين، ويدعو إلى إطلاق الحياة البشرية من قيود التقاليد الموروثة التي لا أساس لها من العقل أو المنطق.

وفي القرن السابع عشر يظهر في فرنسا شيخ السخرية الفرنسية – بلا منازع – موليير وقد طفق يرحل كما رحل رابليه ويدرس في رحلاته العادات والتقاليد، ويعود آخر الأمر إلى باريس ليضع تمثيلياته ومسرحياته ويقدمها لسيد فرنسا إذ ذاك، وهو الملك لويس الرابع عشر. وكانت زوجته التي تصغره بإثنتين وعشرين سنة سبب تعاسته وبؤسه، فقد كان يغار عليها، ويعمل ألف حساب لخيانتها. وكان خصومه يرددون في جميع الأوساط أنها أبنته من زميلته الممثلة (مارلين بيجار). وكان لعملة المتواصل ولكثرة همومه وأحزانه

أثر سيء في صحته التي ما لبثت أن إنهارت. وبينما كان يقوم بدوره في تمثيلية «مريض بالوهم» سقط مغشيًا عليه، وتوفي بعد بضع ساعات.

كان موليير يقاوم بسخريته رجعية رجال الدين الذين كانوا ينظرون إلى التمثيل على أنه رجس من عمل الشيطان، وإستطاعوا أن يقنعوا بذلك الملكة الوالدة وبعض أمراء البيت المالك. وقد بدأت حملة أعدائه قاسية عليه كل القسوة مُنذ أخرج روايته (تارتوف) وفيها يسخر من المنافقين في الدين سخرية كادت تعصف بهم، وتؤثر في كيانهم، لولا أنهم قاموا قومة رجل واحد يؤلبون عليه الملك من ناحية، والجمهور الفرنسي نفسه من ناحية ثانية.

وتنور ثورة الرجعيين مرة أخرى حين يعرض مسرحية «دون جوان» وفيها يصور حياة شرير يعيش على الخبث والنفاق، ويسلك مع الناس سبيل الغش والرياء. وموليير إنما يهدف من وراء ذلك إلى السخرية من المجتمع الفرنسي الذي يقوم على أولئك المنافقين ممن يدعون الصلاح والتقوى، بينما هم في الحقيقة شياطين يخدعون الناس عن أنفسهم، ويخفون عيوبهم بمظاهرهم.. وهكذا كتب النصر أخيرًا لكاتب فرنسا الذي أستطاع في النهاية أن يكسب الملك إلى جانبه، وأن ينجح في الحصول على إذن منه بتمثيل رواية «تارتوف» التي مر ذكرها.

والذي يقرأ تمثيليات موليير أو يشاهدها، يلاحظ كذلك أنه يسخر من التكلف في كل شيء. فهو يسخر من الحب المصطنع الذي يرتكز على الكلمات المنمقة والمبالغات المضحكة. كما أنه ينقد الأسلوب الواقعي الجاف الذي يقتل كل عنصر من عناصر الخيال في حياة الإنسان. وأكثر ما يضايقه تعصب رجال الدين وتزمتهم، فهو يطالب بالتسامح الديني، ويشيد بالفلسفة العقلية، ويسخر من التنجيم ويندد به، ويدعو إلى مذهب التشكك..

ثم هو لا ينسى السوربون، فيوجه إليها من لاذع نقده وبالغ سخريته شيئًا غير قليل.

أما الغيرة، والبخل، والكذب، وما إلى ذلك من الأخلاق الشخصية الذميمة، فقد نال منها موليير كل منال، وتهكم بأصحابها أشد تهكم.

هذا كله في فرنسا. أما في إنجلترة، فالمعروف أنه كانت تستعر بهذه البلاد حرب هائلة بين طائفتين كبيرتين، هما طائفة «البيوريتان» من ذوي الرءوس المستديرة المعروفين بالتزمت الديني، وطائفة «الفرسان» وهم أنصار الملكية، في الوقت الذي كان فيه «البيورتان» من أنصار البرلمانية الشعبية. ومن ثم كانت هذه الخلافات الدائمة بين هاتين الطائفتين مثارًا للسخرية والتهكم اللذين عرفا طريقهما يومئذ إلى الصحف.

ومن أشهر الكتاب الساخرين في تلك الفترة التي نشير إليها صمويل بيكر، ودريدن ومن إليهما.

أما القرن الثامن عشر، فهو العصر الذهبي لفن السخرية في الأدب الأوروبي. ويكفي أن نذكر أسماء فولتير وروسو في فرنسا وستيل وإديسون وسويفت وفيلدنج وبوب في إنجلترة، ولسنج وأمثاله في ألمانيا.

أما فولتير ففي روايته (كانديد) حكي عن شخص بهذا الإسم، قام بسياحات كثيرة، لاحظ فيها عيوب الأفراد والجماعات، وكان يقول مع ذلك أنها ليست عيوبًا، وإنما هي فضائل. وذلك لأن أستاذه «دانجلوس» علمه أن كل شيء في الدنيا حسن، وأنه ليس في هذا العالم كله شيء يوصف بأنه قبيح، وأنه لهذا على خير حال في خير عيشة في خير عالم ممكن. وبهذه الطريقة اللطيفة أخذ فولتير ينقد جماعة الفلاسفة المتفائلين الذين يرون أن

العالم كله خير، وأنه لا داعي للقيام بحركة من الحركات الإصلاحية في المجتمع.

وللكاتب الإنجليزي «فيلدنج» رواية بعنوان: «Jonathan wild the Great جوناتان المتوحش العظيم» هي قصة لص أنتهت حياته بالشنق، وفيها يندد الكاتب برئيس حكومة من حكومات إنجلترة، هو ولبول Welpole وينقد مسلكه ومسلك زوجته البغي التي أخذت تعبث بمصالح الدولة، وتستغل مركزها كزوجة لرئيس الوزراء في سبيل الوصول إلى أغراضها المادية.

وهنا يميز الكاتب بين نوعين من أنواع العظمة: هما العظمة الصحيحة، والعظمة الزائفة، فيقول أن الأولى تعتمد على أسس ثابتة من الخير ومن النفع، وترمي إلى إصلاح الإنسانية وخلاصها من كل شر، ولكن الناس مع هذا يخلطون دائمًا بين هذين النوعين من العظمة.

ولو كان صحيحًا ما زعمه بعضهم من أن من العظمة ما يعتمد على الشر، لوجب أن ننظر إلى الإسكندر الأكبر، وإلى قيصر، وإلى نابليون، كما ننظر إلى القرصان، واللصوص، والسفاكين، وقطاع الطرق، فنقول عن هؤلاء الملوك والعظماء أنهم عظماء لأنهم سفكوا دماء البشر، لا لأنهم بنوا الحضارات، وبثوا الأفكار، ونشروا المبادئ، وغيروا وجه الحياة الإنسانية نفسها.

والفرق بين فيلدنج هذا، و(سويفت) صاحب قصة روبنسون كروزو، هو أن الأول متفائل لا يفقد أمله في الإصلاح، وأما الثاني فمتشائم، ولذا يكتفي بالسخرية من الجماعة البشرية، وإظهار الأسى عليها والرثاء لها والإشفاق من فسادها. ويظهر لنا ذلك كله من خلال كتابه (رحلات جوليفر)، وفيه نقد للمجتمع على ألسنة أقزام عرفوا كيف يضعون أيديهم على مساوئه.

أمـا القـرن التاسـع عشـر، فهـو عصـر الشـعر الرومـانتيكي والخيـال الإنطلاقي، وتلك الخصال الفنية التي لا تسوغ معها السخرية. وخاصة أن هذا القرن قـد أمتـاز بـآراء جديـدة، وفتـرات إنتقـال كثيـرة، وهـزات عنيفـة، لا تـدع للناقـد فرصـة النقـد، ولا للسـاخر فرصـة السـخرية أو التهكـم بوضـع مـن هـذه الأوضاع يرى أنه أقل شأنًا من الأوضاع الأخرى.

ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نهمل أمثال «تشارلس ديكنز، وثاكاري، ولوردبيرون» ومن إليهم ممن سخروا بالمجتمع الإنجليزي. وقد أعتمد أولهم – وهـو ديكنـز فـي قصصـه المرموقـة باسـم «أوراق بيكويـك – Pickwick» على اللغة الشعبية في نقده للمجتمع وأصطنع شخصيات كثيرة التناقض في حركاتها وأقوالها إلى حد المبالغة.

فالسمين من هذه الشخصيات سمين أكثر مما يجب، والنحيف نحيف أكثر مما يجب، والسفيه سفيه أكثر مما يلزم، والحليم حليم أكثر مما يلزم، وهكذا! ولا يكتفي ديكنز بذلك حتى يجري على ألسنة أشخاصه أقوالًا بلهاء، وأفعالًا تثير الضحك والرثاء. وبهذه الطريقة البسيطة أخذ يعلم الناس دروسًا في الحياة والأخلاق. والمهم أن من يقرأ أدب ديكنز يشعر شعورًا عامًا بأن روحه في الكتابة أميل إلى الفكاهة والتندر أو إلى ما يسميه الإنجليز أنفسهم باسم: Humour.

وأخيرًا نصل إلى القرن العشرين فنجده يشبه القرن الذي قبله من نواح كثيرة، أهمها في الحقيقة عدم الإستقرار، وإختفاء المبادئ أو المقاييس الثابتة التي يستطيع الأديب أن يؤلف سخريته على أساسها، وأن يوجه نقده من أجلها إلى عيوب معينة في المجتمع وأخلاق معينة في الأفراد.

ذلك أن العالم الحديث في أيامنا هذه يضطرب بشتى المبادئ السياسية والإجتماعية والإقتصادية والأدبية، بحيث لا يستطيع الأديب الناقد أن يعرف للمجتمع صورة واحدة، وشكلًا ثابتًا، ومظهرًا يجمع الناس على إحترامه والنظر إليه على أنه من الأوضاع المستقيمة المقبولة.

ومع ذلك فلم يعدم القرن الذي نعيش فيه أمثال «برنارد شو» بمذهبه الإشتراكي المعروف في إنجلترة، والروائي المشهور «هكسلي»، وبخاصة في روايته الساخرة عن (العالم الحديث الشجاع Brave New World).

كما لم يعدم القرن العشرون كتابًا ساخرين كالكاتب الروسي الشهير (إيليا أهرنبرج). ولعل في وجود مبادئ معينة، وآراء ومعتقدات ومذاهب ثابتة في المذهب الشيوعي الذي يدافع عنه مثل هذا الكاتب ما يسر عليه الظفر بمقاييس ثابتة، يستطيع على أساسها أن يسخر من كل من تحدثه نفسه بالخروج عليها أو التعرض لها.

وكعادتنا في التمييز من حين لآخر بين أنواع السخرية، تقول إن الناظر في تاريخ السخرية في أوروبا يرى أنها قسمان كبيران:

قسم تغلب عليه الفكاهة والدعابة والمزاح ونحو ذلك، وقسم يغلب عليه النقد. فأولهما ضاحك بإسم، والآخر أدني إلى الجد والعبوس، وقلما يكون ممزوجًا كذلك بشيء من المرح أو الضحك. وأولهما كثيرًا ما يتركز حول الفرد، والثاني يتركز دائمًا في المجتمع، ويقصد صاحبه به كذلك إلى هدم فكرة أو مذهب أو معتقد. والذي نلاحظه بوجه عام أن السخرية الإنجليزية في مجموعها أدنى إلى الصرامة والجد، كما يغلب عليها أسلوب الإرشاد والوعظ.

صور من السخرية في الأدب الأوروبي

... قبل أن تعرض على القارئ طائفة من هذه الصور نحب أن نسأل أولًا: هل تصدر السخرية دائمًا عن شر يكمن في النفس؟ وهل صحيح أن أدب السخرية يصدر عن روح منغمسة في الكراهية والحقد؟

وجوابنا عن ذلك أن السخرية قد تصدر عن روح الكراهية والشر، ويكون التعبير عنها مملوءًا بالمرارة والبغض، ولكنها تصدر أحيانًا عن إحساس شديد بالعطف والرغبة في الإصلاح وفي الخير. والواقع أن القول بأن السخرية صادرة دائمًا عن شر قول فيه كثير من البعد عن الحق.

وقد ضربنا أمثلة كثيرة بعدد لا بأس به من الكتاب في الشرق وفي الغرب. وكلهم يؤمنون إيمانًا صحيحًا بالإنسان وبمقدرته على التفوق والتقدم وحب الخير للخير. والكتاب الساخرون من هذه الناحية قسمان: قسم متفائل يحسن الظن بالإنسان، وقسم متشائم لا هم له إلا تتبع عوراته، والتغالي في وصف نقائصه.

وفي روايات الشاعر الإنجليزي «شكسبير» الذي يفخر به الأدب الإنجليزي في جميع العصور، ما يصور لنا السخرية بلونيها المشرق والمظلم. ففيها شخصية كشخصية «فولستان Falstaff» هو رجل ضخم لا تفارق يده الكأس، ينادم الملوك والأمراء ويغشي معهم كذلك مواطن الحرب والقتال، ويظهر لنا دائمًا في روايات هنري الرابع وهنري الخامس، بمظهر الساخر من الطبقة العليا، والساخر من فكرة الإنسان عن الشرف ذاته. بل الساخر من الجنود الذين يجودون بأرواحهم الغالية في سبيل «الشرف»، والساخر أيضًا من المجتمع الذي يجرى وراء المثل العالية ويحتقر الكذب!!

وفي روايات شكسبير شخصية أخرى كشخصية المضحك أو البهلوان «Clown». وله نوع من الحصانة التي يستطيع بها أن يضحك الحاضرين في مجلس الملك، وأن يأتي بحركات بهلوانية تخفي وراءها حكمة من الحكم. ومن ثم كان هذا المضحك، بسترته الحمراء وعصاه التي تحدث أصواتًا موسيقية كثيرة، عنصرًا هامًا في بلاط الملك، وشخصية عامة كذلك في روايات شكسبير. وكثيرًا ما أظهره الشاعر الإنجليزي الكبير منطويًا على روح عالية من النبل والكرم والتسامح والتضحية والبذل والإنسانية في أسمى مراتبها. وحسبك أن تذكر المضحك في رواية الملك «لير» وكيف أنه بقي إلى جوار سيده في مخبئه بينما هجرته بناته وفلذات كبده في تلك الساعة المحرجة.

الحق أن السخرية في ذاتها سلاح من أمضى الأسلحة في أيدي المصلحين الذين يرومون إصلاح العقول في الأفراد والجماعات. وهم في هذا كله أشبه ما يكونون بالطبيب الذي يضع في يده مبضعًا يحسن إستعماله عند الحاجة، وهو بعد حر في أن يطلع المريض على مبضعه أو يخفيه عنه.

يقول الشاعر الإنجليزي (بوب) في بيان قيمة السخرية ومبلغ تأثيرها في النفوس:

«أجل. إنني فخور. ولا بد أن أكون فخورًا! إنني أرى الناس الذين لا يخافون الله يخافونني! فهم إذا نجوا من القضاة أو من رجال الدين أو الملوك أنفسهم، فإنهم لن ينجوا من سخريتي وتهكمي!

(وبعد)، فقد آن لنا أن نعرض على القارئ نماذج من السخرية في الأدب الإنجليزي ليعرف من خلالها الفرق الواضح بين السخرية الغربية والسخرية الشرقية. ولا بأس من أن نورد هذه النماذج بعد تقسيمها إلى

أصناف، يختص كل صنف منها بطبقة من الناس، أو طائفة من الأفكار، أو ناحية من نواحي المجتمع كالسياسة أو الدين أو الأخلاق ونحو ذلك.

سخرية من السياسة

«إن جميع الأحزاب مقدر لها الموت في النهاية، وذلك عندما تفرغ من تبليغ أكاذيبها»!

(دكتور جون أربثنوت سنة ١٧٣٥)

«وأقسم إذا جد الجد، وخيرت بين القوة والحق، ألا أسأل عن خير أو شر.. وإنما أنضم في الحال إلى الفريق القوي: فريق المحافظين!»

(توماس مور سنة ١٨٢٣)

«وعندما تتولى القردة سلطان الحكم، أرقص أمامهم كما يرقصون!»

(بير كاردت سنة ١٨٣٠)

«قد يكون عضو الأحرار مغفلًا، أما عضو المحافظين فلا بد من أن يكون كذلك».

(خطابات هوارس والبول سنه ١٧٣٠)

«لقد إستطعت أن أستميل جميع رجال الحزب بالمال. بل إن كل إنسان في هذا العالم يمكن شراؤه بالمال. اللهم إلا إمرأة واحدة لم يجد معها الذهب شيئًا. ولم يؤثر فيها إلا الماس..!»

(روبرت والبول رئيس وزراء إنجلترة في القرن ١٢)

«في السياسة، إذا أردت أن تصل وأن تحقق أمانيك، فأذكر دائمًا أنك يجب أن تكون أصم وأعمى، حتى لا تسمع الشعب في الطرق أو تراه من النافذة!».

(بيرنز سنة ١٧٩٣)

«من الشائع المعروف أن السياسة والدين من الأمور التي يستطيع المرء أن يفهمها تمامًا. بل يبلغ فيها حد الإتقان، فهما لا يحتاجان إلى دراسة أو خبرة. وعلى ذلك فإننا نجد الناس جميعًا يصدرون أحكامهم عليهما، وإن كانت أراؤهم دائمًا مختلفة، وأفكارهم أبدًا متضاربة!».

(تشستر فيلد. في كتابه إختلاف الآراء سنة ١٧٥٥)

سخرية من النساء

«لا ناب الرقطاء، ولا لدغة العقرب، تحمل من السم الزعاف ما يحمله قلب المرأة، والراهبات بمذاهبهن الثلاثة يتراوحن جميعًا بين الحنا والسرقة.».

(سليربورا سنة ١٨٧٥)

«من الأفضل أن يعيش الرجل في جحر ضيق، على أن يحيا مع إمرأة ثرثارة في بيت واسع!».

(أمثال القرن الخامس عشر)

«لعنة الله على الحب والغرام.

إن وظيفة المرأة إبعاد الرجل عن صحبة الخير!»

(ونشيرلي: الزوجة الرقيقة سنة ١٦٧٥)

«تشكو المرأة أعظم الشكوى عندما تجمع بين الحب والفضيلة! وكثير من النساء الطيبات يسأمن وظيفتهن!»

(لارشفوكو سنة ١٦٩٣)

سخرية من الزواج

«إن من يفقد زوجته ودرهمًا لا يأسف إلا لفقد الدرهم! وإذا قدر لكل سرير أن يتكلم، أحمرت وجوه كثيرة من شدة الخجل!»

(أمثال عامة سنة ١٦٧٨)

«أي رجل هذا الذي تبلغ به الحماقة أن يدخل رأسه في حبل مشنقة الزواج؟

إنه لو تدبر الأمر، وفكر مليًا، كما يفعل الحكماء، في متاعب الحياة الزوجية، لما أقيم عليها! وأي إمرأة تلك التي تقبل فتح ذراعيها لتحضن زوجًا، إذا حسبت حساب الأطفال وتربيتهم وآلام الوضع ومضايقات الرضاعة والحمل؟

وكم عدد الزيجات التي تستمر سعيدة موفقة إلى مدة طويلة؟ اللهم إلا إذا تغابى الزوج وأغمض عينيه عن نقائص زوجته وسخافاتها!

أما الغباء فهو المسئول الأول عن تلك القناعة أو السعادة أو الهناءة التي يتحدث عنها بعض الأزواج والزوجات».

(أرازمس: مدح الحمق – سنة ١٥٠٩)

«أحسن ما يقال عن الزوجة أنها عقبة في سبيل السرور، وعبء ثقيل في طريق الحياة!»

(جون ولمت سنة ١٦٧٠)

«حياة الأعزب حياة آمنة. أما الشك والسخط والنزاع فإنها أمور تأتي مع الزوجة!»

(هربك ١٦٤٨)

«قد يكون هناك بعض الزيجات الطيبة، ولكن يستحيل وجود زيجة واحدة خالصة السعادة!».

(لارشفوكو سنة ١٦٦٥)

«أتريد الزواج يا يوستموس؟ خبرني بربك عن تلك الدواعي التي ساقتك إلى هذا الجنون؟ أتقبل أن تكون عبدًا لأية إمرأة؟ بينما في حبال المشانق الخلاص والنجاة منها؟ إن سرير الزوجية مسرح دائم للخصومات والمشاحنات، ولا يجد الزوج فيه فرصة للنوم».

(جيوفينال: الباب السادس من كتاب السخرية)

«تختفي لعنة أبدية وراء كلمة الزوجية!»

(فانبرا: سنة ١٦٩٧)

«المستر كولنز: أن أسباب زواجي هي:

أولًا – أرى أن كل قسيس في مركزي الإجتماعي الممتاز لا بد أن يكون قدوة ومثلًا يحتذى به.

ثانيًا – إنني مقتنع أن الزواج سوف يزيد من سعادتي كثيرًا.

ثالثا – وهو ما كان لابد لي من الإشارة إليه قبل ذلك، أن هذه نصيحة ووصية من تلك السيدة العظيمة النبيلة التي أتشرف بالعمل تحت رياستها ورعايتها.

(صين أوستن: رواية التفاخر والتحيز سنة ١٨٧٣)

سخرية من الأسرة

«لا سبيل إلى السعادة طالما كانت حماتك على قيد الحياة!»

(جيوفينال: السخرية. الباب السادس سنة ١١٦)

«لا يقل ما يلاقيه رب الأسرة من الأوجاع والآلام عما يلاقيه حاكم دولة بأسرها!»

(موتتاني: المقالات: سنة ١٥٨٠)

سخرية من الحب

«من الصعب تعريف الحب. فهو روحيًا عاطفة تسلط وسيطرة، وعقليًا تعاطف ومشاركة وجدانية، وجسديًا لا يعدو أن يكون مجرد رغبة خفية لإمتلاك من تحب بعد فترة طويلة من التلهف!»

(لارشفوكو سنة ١٦٦٥)

«الحب بهجة مرة، وحزن حلو، بل هو موت حي، وحياة ميتة!»

(توماس واطسن: عصر الحب العاطفي ١٥٨٢)

«لا يهزم الحب إلا من يفر منه!».

(توماس كارو ١٦٣٠)

«الكراهية أطول اللذات جميعًا..! فالناس يعشقون بسرعة، ولكنهم يكرهون في أناة!»

(بايرون: دون جوان – ١٨٢٤)

«ما عرفت غرامًا قط لا يمكن إشباعه بالذهب أو غسله بالنبيذ!»

(ويلز: شادويل: ١٦٧٢)

«أنظري إلى حجرك مليًا وقدري كل حب بمقدار هداياه!»

(أوفيد: العشاق: القرن ٣ قبل الميلاد)

«أستطيع أن أحب الشقراء والسمراء..!

أستطيع أن أحب من تتمتع بالثراء، ومن أصابتها الفاقة!

أستطيع أن أحب تلك التي تهوى العزلة والتي تحب الصحبة!

أستطيع أن أحب أبنة الريف وأبنة المدينة..!

أستطيع أن أحب المؤمنات وأحب اللائي يحاولن أن يكن كذلك..!

أستطيع أن أحب التي تسكب الدمع مدرارًا والتي لا تعرف عيناها البكاء!

أستطيع أن أحب هذه، وأحب تلك، وأحبك أنت، وأحبها هي..!

أستطيع أن أحب أية إمرأة كانت.. حتى لو كانت غير مخلصة..!»

(جون دون: عديم الإكتراث. سنة ١٦٣٣)

سخرية من الأبطال

«يصبح اللص رجلًا شريفًا راقيًا عندما يثري من السرقة!»

(فولر: نومولوجيا ١٧٣٢)

«يوروبيد إلى إيسكليس: كلا إنك أعنف من أن تكون محبًا! إنك أشد عنفًا على فينوس بل أشد غباء!

إيسكليس إلى يوروبيد: تذكر أيها الصعلوك البائس القذر أن تلك المثل العليا التي تنادي بها تتطلب عبارات مناسبة لكي تتشح بها. وإن الأبطال والآلهة لا بد أن تصطنع في أحاديثها ألفاظًا قوية. بحيث تكون أسمى وأرقى مما يصطنعه البشر. وإن العقل والطبيعة جميعًا يقبلان هذا الوضع، ولكنك رفضته ونبذته نبذًا!».

(أرستوفان: رواية الضفادع سنة ٢٠٥ ق. م)

«لعل المقتدين بالإسكندر المقدوني في سكره وشرابه أكثر من المقتدين به في فضله وعفافه! فبينما يحتمل أن يكون المرء أكثر فضلًا منه، فإنه يتحتم عليه – ولا عذر له – أن يكون أكثر منه سوءًا وأحط نقيصة!»

(باسكال: الأفكار ١٦٧٠ – ١٨٤٤)

«بائع السجق: وهل يعقل أن أصبح أنا يا من يبيع السجق رجلًا عظيمًا وبطلًا يشار إليه بالبنان؟

ديموستنيس: إنك لهذا السبب ستكون عظيمًا، وستكون بطلًا لأنك صعلوك وقح!

بائع السجق: ولكنني لا رأى نفسي جديرًا..

ديموستينس: لماذا تقول أنك غير جدير؟

إن هذا يدل على أن في رأسك أفكارًا أرستقراطية. فهل أنت أرستقراطي؟

بائع السجق: كلا يا سيدي. اللهم إلا إذا كانت سلالة الأشرار والصعاليك كذلك.

ديموستينيس: قضي الأمر. إنك رجل سعيد الحظ وإنك تمتاز بكل صفات السادة ومستلزمات الأبطال والحكام».

(أرستوفان – رواية الفرسان. سنة ٤٢٤ ق. م)

«الرجل المهذب هو من يرتدي ملابس حسنة الشكل حاملًا سيفًا في منطقته، وساعة وعلبة (نشوق) في جيبه، ثم يعرض نفسه على الناس مهذبًا راقيًا قادرًا على السب واللعنات. إنه مصمم على أن يكون كذلك، وإلا فإنه يقطع رأس مخالفه!»

(تشستر فيلد: الرجل الشريف: سنة ١٧٣٥)

«لقد استقبل المغامرون الثلاثة إستقبالًا فاترًا في أول الأمر، ولكن سرعان ما فطنوا بحكمتهم العظيمة إلى سر ذلك. فبدأوا في الحال إصلاح أمورهم وماءمة سلوكهم لما أعتاد أن يكون عليه الشرفاء في المدينة، فكتبوا، ويجتمعوا، وقرضوا الشعر، وغنوا الأناشيد، ثم سكروا وحاربوا وتشاجروا وسبوا ولعنوا وتعاطوا النشوق، وأرتادوا المسارح في أول عرض للروايات، وذهبوا إلى المقاهي، وتحدوا رجال الأمن، وخدعوا الناس وأحتالوا عليهم، وأستدانوا من تجار المدينة، وأعتدوا على الحرمات والأعراض، وقتلوا الأنفس البريئة، وأقتحموا البيوب إلخ..!

لقد تحدثوا عن المجتمعات الراقية دون علم بها، وعن موائد السادة والأشراف، وما عرفوا سيادة ولا إشرافًا قط، وهمسوا في آذان السيدات الراقيات دون أن يقولوا شيئًا معينًا. وأوقعوا في أيدي «الغسالات» اللاتي يغسلن ملابسهم خطابات غرامية عليها توقيعات سيدات راقيات من المجتمع، مع أنها خطابات مكتوبة بأيديهم. وتحدثوا عن القصور وعن الملوك والعظماء وعن السادة والإشراف..وباختصار أتصف المغامرون الثلاثة بصفات جديدة..! فصاروا بهذه الصفات من علية القوم وأصفيائهم..!».

(سويفت: قصة إدعاء — ١٦٩٧)

سخرية من النفاق

«الصليب على الصدر والشيطان في القلب»

(مولر: نومولوجيا – ١٧٣٢)

«هل من معبد لا ترى فيه امرأة...؟».

(جرومينال: السخرية الباب التاسع: ١١٨)

«يحمل الناس أديانهم في عقول الآخرين أما أخلاقهم فإنهم يحملونها في جيوبهم!!»

(توماس بيكوك: ٧٨٥ – ١٨٦٦)

«ليس الإنسان إلا قناعًا كاذبًا منافقًا، سواء أكان ذلك في نفسه أم عند الآخرين من بني جنسه، وهو لا يريد أن يستمع إلى الحقيقة، ويحرص فوق ذلك على ألا يقولها للناس، وجميع هذه الصفات برغم بعدها عن الحكمة والعقل، فإنها متأصلة في نفسه: ياله من مجموعة من المتناقضات! بأنه من حيوان غريب الأطوار! إنه يصدر أحكامه على كل شيء، وهو لا يعدو أن يكون مجرد دودة حمقاء، تجتمع فيه الحكمة والشكوك والأخطاء، كما تجتمع فيه عظمة هذا الكون وإنحطاطه ودناءته».

(باسكال: الأفكار: ١٦٧٠ – ١٨٤٤)

سخرية من الأخلاق

«يحب العجوز إسداء النصيحة مواسيًا نفسه بما وصل إليه من حالة لا تمكنه أن يكون قدوة سيئة!»

(لارشفوكو: ١٩٩٣)

«الرذائل التي يستعصي علاجها، هي تلك التي يمكن أن يتفاخر بها الناس!»

(أديسون: ١٧١٤)

«الميسر والزنا –كل منهما عار عند الطبقة الوسطى. أما إذا إرتكب الأغنياء هذه الخطايا فإنهم يوصفون بالمرح وخفة الظل والكرم والسخاء إلخ..!».

(جيوفينال: السخرية الباب الحادي عشر: سنة ١٢٠ ق .م)

«لقد رحل الرجل، والآن أعتقد أن هذه السيدة ستعاودها نوبة الشرف!»

(أفراسين وارثة المدينة: ١٦٨٢)

«لا يستحق الإنسان ثناء على فضيلة مادامت تنقصه المقدرة على ترك الرذيلة، إذ أن الفضائل غالبًا ما تكون ناجحة عند الحور وضعف الإرادة..!»

(لاروشفوكو: ١٦٦٥)

«لا تكثر شرور الإنسان ولا تتعدد في بهجة ولذة عندما يكون تحت تأثير ضميره ذلك أن الناس فريقان: أخيار يظنون أنفسهم أشرارًا، وأشرار يحسبون أنهم أخيار!»

(باسكال: الأفكار: سنة ١٦٧٠ - ١٨٤٤)

سخرية من الإنسان

«ليس الإنسان سوى دودة تخرج من شرنقة أرضية كبيرة!»

(بيرون: دون جوان: ١٨٣٣)

«الغرور متأصل في قلب الإنسان تأصلًا ثابتًا. حتى الجندي والطباخ والشرير يتفاخرون ويودون أن يكون لهم معجبون.. حتى الفلاسفة يريدون أن يكون لهم معجبون..! حتى الذين يكتبون ساخرين من هذه الأمور يهدفون إلى هذا المجد الكاذب. والذين يقرأون كذلك يبتغون مجد القراءة!.. حتى أنا الذي أكتب هذه السطور ربما أبغي ذلك أيضًا! وربما كان من الذين يقرأون كلامي هذا من يطلبون لأنفسهم مثل ذلك!.

بل إن حب الاستطلاع لا يعدو أن يكون غرورًا، ولا يطلب الإنسان العلم بوجه عام إلا لكي يتحدث الناس عنه. فالشخص الذي يغامر ويعبر المحيطات لا يفعل ذلك إلا وفي سريرته ما سوف يقال عن عمله أو ما سوف

يقوله هو عن نفسه وعما شاهد وخبر! وإنه لتمتلىء نفوسنا عجبًا وغرورًا حتى لنود أن نحيط علمًا بالعالم كله، وأن يعرفنا جميع من في هذه الدنيا، وتعرفنا الأجيال التي ستأتي بعدنا!!».

(باسكال: الأفكار: ١٦٧٠ – ١٨٤٤)

السخرية من القسس والمعلمين

«لو كان في إنجلترة دين واحد لصار مستبدًا، ولو كان فيها دينان لإنتشر القتل وقطع الرقاب، ولكن مادام فيها ثلاثون دينًا وملة، فإنها تعيش جميعًا جنبًا إلى جنب في سعادة وأمن!

(أولنير: القاموس الفلسفي: ١٦٩٤ – ١٧٧٨)

«سباركش: سيدي، إذا كنت لا تصدقني فإن خير الطرق لذلك هو أن تختبره، وذلك عن طريق الخادمة، لأن الخادمات يستطعن تمييز القسيس عن سائر الناس.

لوشي (الخادمة): فليكن ذلك! أن له إبتسامة لئيمة مصطنعة، وكفًا لزجًا من القذارة لا يمكن إلا أن يكون لقسيس!»

(ونشرلي: مسرحية الزوجة الريفية ١٦٧٥)

السخرية من كل شي

«لو كان أنف كليوبترة أقصر قليلًا لتغير وجه البسيطة!»

(بسكال: الأفكار)

«إننا نملك من الشجاعة ما يكفي لإحتمال مصائب الغير فقط!»

(لارشفوكو: ١٦٦٥)

«بجلس الأحمق الغبي في مكان الرجل الرزين الحكيم فيقول عامة الناس إنه رزين حكيم!»

(بيرتون: تشريح الحزن: ١٦٢١)

السخرية من الموت

«لا يقيم الإنسان وزنًا للموت بقدر ما يهتم بأن يقنع نعشه من خشب ممتاز!»

(مثل تركي ١٨٤٤)

«لا يشرب الإنسان السم الزعاف من طبق فخاري وإنما يأتي ذلك العمل الخطير من كوب من الماس أو وعاء من الذهب!»

(جيوفينال: السخرية: الباب العاشر: ١٢٠ ق . م)

«لن يسيل دمعي على الذين أرادهم الموت بسهمه، وإنما يعصر قلبي ألما من ينتظر كل ساعة ضربته القاضية!»

(لوسيليس: ٨٨٩)

«أيها الموت أنت أحمق الحمقى!

إنك تأتي إلى الأبواب كل يوم لتقرع قرعات متواضعة أولًا! كأنك تاجر صغير يقترب بخوف، مطالبًا بحقه من مدين عظيم، ولكنه يرفض دائمًا أن يدفع دينه، فينفد صبرك، وتتقدم بخطى واسعة لتقرع قرعات مزعجة، فإذا سمح لك بالدخول، أكدت في لهجة غير مهذبة قولك بوقاحة: أما الوفاء وأما الفداء!»

(بيرون: دون جوان: سنة ١٨٢٤)

«إن أرملة واحدة تبكي وتنتحب، لمدة قصيرة فوق هذا القبر، وإذا إجتمعت أرملتان هناك، فسرعان ما تبدأ الثرثرة والكلام!

أمـا إذا إجتمـع ثلاثـون، فلاشـك أن ثلاثًـا مـنهن فقـط بخلقـن جماعـة مرحة!»

(توماس هود: الأرملة: ١٨٢٠)

سخرية من الإنجليز

«تنادي الحكمة قائلة:

ابحث عن الفضيلة أولًا، وكن شجاعًا.

أما في لندن فإنك تسمع من ينادي:

إبحث عن المال أولًا ثم عن المال ثانيًا. أما الفضيلة ، فلتأت بعد ذلك إن شاءت»

(بوب: ١٧٣٤)

«نـابليون: إن الرجـل الإنجليـزي يولـد مسـلحًا بقـوة نـادرة عجيبـة ليكـون سيد العالم، فعندما يريد شيئًا لا يتكلم ولا يطالب.

وإنمـا ينتظـر حتـى ينـزل عليـه وحـي مفـاجيء، وإعتقـاد راسـخ أن واجبـه الديني والخلقي هو أن يغزو ويستعمر وينال ما يطلب. وهنا يصبح الإنجليزي إنسانًا لا يقاوم!!.

إن الإنجليـز تجـار أو بـائعون، فهـم يسـيرون بصـبر وبـطء وأنـاة وإيمـان معتقدين أنهـم لابـد أن ينـالوا بغيتهم. والإنجليزي لا يعدم الوسـائل أبدًا. فهـو دائمًا يدافع عن الحرية ويحمي الإستقلال،

كما يغزو ويهدم ويستعمر، وذلك بحجة التعمير والإنشاء.

وإذا أراد سوقًا جديدة لمنتجات مانشستر، فإنه يرسل المبشرين للوعظ وإرشاد الناس إلى طرق العدل والإنصاف والسلام.

فإذا قتل أهل البلاد الأصليون أحد المبشرين، ذهب الإنجليز إليهم سراعًا بحجة الدفاع عن المسيحية، فيحاربون ويقتلون، ويكسبون لأنفسهم السوق التي يريدونها مكافأة وجزاء من السماء!.

وللدفاع عن جزيرة من الجزر الإنجليزية، يرسل الإنجليزي سفنًا تمخر عباب البحر، ويضع فيها قسيسًا، ويدق فوق صاريها علمًا عليه صليب، ويترك بحارتها يحرقون ويحطمون وينسفون ويغرقون كل من يعارض سيادة الإمبراطورية البريطانية على البحار!!.

ولقد قام الإنجليز بثورتين، ولكنهم يدعون أن الثورة خروج على النظام والقانون.

وقصاري القول أن الإنجليزي لايخطيء أبدًا!! لأنه دائمًا على حق! نه رجل مباديء.

يأسر بمبادئه ويضطرك إلى السير عليها!»

(برنارد شو: مسرحية رجل القدر: سنة ١٨٩٧)

لقد تعلم أيها القاريء أن لهذا الكاتب الكبير (شو) أربعين ملهاة، كلها من هذا النوع، سخر فيها من المجتمع الإنجليزي بجميع طبقاته، وهيئاته، ورجاله ونسائه وقوانينه وأحكامه، ومبادئه وأوضاعه، وحرفه وصنائعه!.

وشو في هذه الناحية لا شبيه له في الأدب الإنجليزي إلا الكاتب الروائي (سويفت) الذي سخر مرة من القانون الإنجليزي، وذلك في موضع من روايته المشهورة «رحلات جوليفر» إذ قال:

السخرية من القانون

«سمعت مناقشة حادة بين أساتذة المعهد حول الطريقة الواجب اتباعها في جمع الضرائب على شرط ألا يغضب الناس.

قال الأستاذ الأول: أن خير الطرق هي أن تفرض الضرائب على نقائص الناس وحماقاتهم على أن تتألف المحكمة التي تقدر هذه النقائص والحماقات من لجنة أعضاؤها جيران هذا الشخص الذي يؤدي الضريبة.

وقال الأستاذ الثاني: أنه يرى عكس ذلك تمامًا، فلابد من فرض الضريبية على تلك الصفات العظيمة الخيرة التي يأنسها الشخص في نفسه وهنا لا يحتاج الموضوع إلى محكمة، فلكل شخص حق تقدير هذه المزايا الحسنة في نفسه. كذلك لابد من فرض ضرائب مرتفعة، على الرجال الذين يكسبون عطف النساء، وينالون حبهن وتقديرهن وهذا طبعًا يتناسب تناسبًا طرديًا مع عدد المغامرات الغرامية ونوعها ودرجة الحب وعدد المعجبات من العشيقات. ولا بأس هنا أيضًا من أن يكون الرجل هو الحكم في الموضوع.

أما عن الأدب والشجاعة والذكاء، فهي صفات يمكن فرض الضرائب عليها بشرط أن يقدرها صاحبها بنفسه.

أما مسائل الشرف والعدل والحكمة والعلم، فلا لزوم لها، لأنها لن تحظى بتقدير الجيران أو أصحاب السلطان.

وأما النساء فتفرض عليهن الضرائب بنسية الجمال وحسين الهندام، ولا شك أنهن لابد أن يحظين مثل الرجال بحق إصدار الأحكام على أنفسهن.

أما عن الإخلاص والعفة والحكمة، فهي أمور لا تستحق بطبيعتها أن تفرض عليها ضريبة، بل إنها لا تساوي ما ينفق على الموظفين الذين يجمعون ضريبتها لأن أجورهم لابد أن تزيد على حصيلة ما يجمعون»!!.

بين السخرية في الأدب العربي والسخرية في الأدب الأوروبي

عـرف الأدب الأوروبـي، كمـا رأينـا، لـونين مـن ألـوان السـخرية. همـا السخرية التي يقصد بها إلى النيل من الأفراد، والتعريض بهم وإزدرائهم والحط من كرامتهم، ثم السخرية التي يقصد بها إلى نقد الطوائف والجماعات، وإلى مهاجمة الآراء والأفكار والمباديء ونحو ذلك.

وحين استعرضنا طائفة مالية من نماذج السخرية في الأدب العربي، تبين لنا أن هذا الأدب عرف أيضًا هذين النوعين السابقين:

فمن الأول على سبيل المثال هجاء بشار بن برد، وهجاء ابن الرومي، وهجـاء المتنبـي. ولنضـرب المثـل هنـا بـابن الرومـي خاصـة قـال يـذم شخصًـا بالنقل:

كـان للأرض مـرة ثقـلان ... فلهـا اليـوم ثالـث بفـلان

وقال يذم آخر بالبخل:

يقتـر يحيـى علـى نفسـه ... ولـيس ببـاق ولا خالـد

ولـو يسـتطيع لتقتيـره ... تنفس من منخر واحد

تبرأ ابن الرومي يومًا من صديق له، وبرم به، وقال يذمه ويعبر عن هذا المعنى:

أبـي وأبـوك الشـيخ آدم تلتقـي مناسـبنًا فـي ملتقـى منـه واحـد
فلا تهجني حسبي من الخزى إنني وإيـاك ضـمتنا ولادة والـد
ولو لم تكن في صلب آدم نطفة لخـر له إبليس أول ساجد

وقال يذم رجلًا اسمه عمرو:

وجهـك يـا عمـرو فيـه طـول وفـي وجـوه الكـلاب طـول
وفيـك غـدر وذاك واف ففيـك عـن قـدره سـفول
وقـد يحـامي عـن المواشـي ومـا تحـامي ولا تـصول
وأنـت مـن بيـت أهـل سـوء قصـتهم قصـة تطـول
وجـوههم للـورى عظـات لكـن أقفـاءهم طبـول
مسـتفعل فاعـل فعـول مسـتفعل فاعـل فعـول
بيـت كمعنـاك لـيس فيـه معنـى سـوى أنـه فضـول

فتلك وأمثالها سخرية من أشخاص وليس لها غرض وراء ذلك.

أما السخرية من المجتمعات أو الأراء فكثيرة في أدب ابن المقفع وأدب الجاحظ، وأدب أبي العلا المعري.

وفي أيدينا حتى الآن كتاب عظيم لابن المقفع، هو كتابه (كليلة ودمنة) سخر فيه الكاتب من أعظم خليفة عباسي عرف بطشه وعسفه، وهو الخليفة المنصور، ذلك الخليفة الذي قضى على العلويين وأحب أن ينقلب على الفرس الذين أقاموا له ولأسرته الدولة العباسية على أنقاضي الدولة الأموية.

أراد ابن المقفع أن يتوجه بالنصح والإرشاد إلى هذا الخليفة الذي لا

يقبل نصحًا ولا إرشادًا من أحد. فماذا يفعل؟ لم يجد غير طريقة الحديث على ألسنة الحيوان، فبادر بترجمة (كليلة ودمنة) من الفارسية إلى العربية، وأضاف إلى هذا الكتاب من عنده فصولًا على غرار ما جاء به. وصرح ابن المقفع في كتابه (كليلة ودمنة) بالأغراض التي من أجلها ترجم الكتاب من الفارسية إلى العربية، ولكنه لم يشأ أن يصرح بأغراض الكتاب كلها، بل صرح بثلاثة منها، وأخفى في نفسه الغرض الرابع، فقال:

أما أغراض الكتاب:

فأولها– ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم ليسارع إلى قراءته أهل الهزل!

وأما الثاني– فهو إظهار خيالات الحيوان ليكون أنسًا لقلوب الملوك..

وأما الثالث– فأن يكون على هذه الصورة فيكثر إنتساخه ولا يبطل، فيخلد على مرور الزمن.

وأما الرابع– وهو الأقصى – فذلك مخصوص بالفيلسوف.

على أن هذا الغرض الذي لم يصرح به ابن المقفع لم يكن ليخفي على المنصور ورجاله يومئذ، فقد كانوا يفهمونه ويقدرونه. وهذا الغرض هو السخرية من تصرفات الملوك المتعسفين من أمثال المنصور، والتهكم بهم وبجبروتهم وبطشهم!..

ولذا قيل أن كتاب (كليلة ودمنة) كان من أسباب قتل ابن المقفع.

أما الجاحظ فإنه يتعرض في نقده لجميع الطوائف والجماعات في عصره، بحيث لم ينج من سخريته العلماء ولا الشعراء ولا الخطباء ولا المعلمون، ولا الجنود، ولا السود، ولا البيض، ولا الغلمان، ولا القيان، ولا

التجار ولا أصحاب الحرف! وأما الكتاب الديوانيون في زمانه، فقد سخر منهم في شخص أحدهم، وهو أحمد بن عبد الوهاب أحد أولئك الكتاب، وكان أدنى إلى القصر منه إلى الطول، فإتخذ الجاحظ من هذا العيب الجسماني بابًا ينفذ منه إلى التهكم اللاذع بهذا المسكين، وإن كان لايقصد بتهكمه أحمد بن عبد الوهاب وحده، بل قصد جميع الكتاب الذين هم على شاكلته.

وكان الجاحظ من دون الكتاب في زمانه وقبل زمانه مشهورًا بتوليد المعاني، وبقدرته المتفوقة على ما نسميه اليوم (بالتصوير الكاريكاتوري). فرأيناه يضحك من قصر أحمد بن عبد الوهاب، ويضحك من جهله وقلة معرفته، مع إدعائه العلم، واقتحامه ميادين العلماء.

فانظر إلى الجاحظ كيف كتب في رسالته المعروفة (برسالة التربيع والتدوير).

«كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر، ويدعي مع هذا أنه مفرط الطول! وكان مربعًا وتحسبه لسعة خاصرته مدورًا! وكان جعد الأطراف قصير الأصابع! وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة، وأنه جميل الوجه، أخمص البطن، معتدل القامة! وكان قصير الساق.. قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر ساقه، يدعي أنه طويل الظهر عادي القامة، عظيم الهامة، قد أعطى البسطة في الجسم، والسعة في العلم، وكان كبير السن متقادم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد».

ثم يقول مخاطبًا أحمد بن عبد الوهاب بلغة أهل العروض والمنطق:

«وبعد – أبقاك الله – فأنت في يدك قياس لا ينكسر، وجواب لا

ينقطع، وهو قياسك الذي إليه تنتسب، ومذهبك الذي إليه تذهب.

(وهذا القياس) أن تقول: وما على أن يراني الناس عريضًا، وأكون في حكمهم غليظًا، وأنا عند الله طويل جميل، وفي الحقيقة مقدود رشيق.. فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل، وأنت المتقارب. فياشعرا جمع الأعاريض! وياشخصا جمع الاستدارة والطول».

بهذه الطريقة التي تعتمد على توليد المعاني، أخذ الجاحظ يسخر من قصر أحمد بن عبد الوهاب في رسالة «التربيع والتدوير» وهو يصوره لنا شخصًا جمع المتناقضات، فهو طويل، وهو مبسوط وهو قصير، وهو متقارب، وهو مديد، وهو في هذا كله يشبه الشعر الذي نظمه على جميع الأوزان والبحور المعروفة في علم العروض.

ثم لا يكتفي الجاحظ بذلك حتي يقول لغريمه:

«وماذا يهمك من أقاويلهم، ويتعاظمك من إختلافهم، والراسخون في العلم، والناطقون بالفهم يعلمون أن إستفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على إرتفاع طولك، وأن ما ذهب منك عرضًا قد إستغرق ما ذهب منك طولًا. ولئن إختلفوا في طولك لقد إتفقوا في عرضك. وإذ قد سلموا لك بالرغم شطرًا، ومنعوك بالظلم شطرًا. فقد حصلت على ما سلموا، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ولعمري أن العيون لتخطيء، وأن الحواس لتكذب. وما الحكم القاطع إلا للذهن وما الإستبانة الصحيحة إلا للعقل إلخ...».

وأما أبو العلاء المعري فقد رأيناه، كما قدمنا، يسخر من كل شيء، ويهزأ بكل شيء في (رسالة الغفران). وقد أفضنا فيها القول، فلا حاجة بنا إلى العودة إليه.

هذا كله فيما يختص بالسخرية في الأدب العربي عامةً، أما السخرية في الأدب المصري خاصةً فقد وجدناها أكثر تنوعًا، وأغنى وسيلة، وأدنى إلى المرح، وأبعد عن العمق في التأمل، وأكثر زهدًا في طرق العلماء والفلاسفة.

على أن السخرية المصرية في مرحها وضحكها وأغرابها أحيانًا في القهقية، تشبه في مجموعتها -كما قلنا- ضوء البرق، يظهر سريعًا، ويختفي سريعًا، ذلك أن السخرية المصرية أصبحت تعتمد كل الإعتماد على اللفظ، وبخاصةً مُنذ ظهور «التورية»، حتى أصبحت هذه التورية صبغة المرح المصري والفكاهة المصرية مُنذ ظهورها إلى اليوم..

ولست أدري ما السبب في ذلك؟

أيكون السبب أن المصريين -كما ذكرنا- طال خضوعهم للدول الأجنبية، وطال إحتمالهم لحكومة الفرد، وهذا الفرد غريب عنهم في كل وقت؟.

أم يكون السبب أن اللغة العربية وصلت إلى مصر غنية كل الغني بألفاظها. وقد رأينا المصريين، بعد هجوم التتار على العالم الإسلامي، وعبثهم بالتراث الفكري، وإغراقهم جميع الكتب الإسلامية في نهر دجلة، يعنون بإحياء التراث العربي، ويبدأون بالجانب اللغوي، ويقومون على ضبط المادة العربية في معاجم كبيرة، كمعجم لسان العرب لإبن منظور، ومعجم المحيط للفيروزابادي.

والنتيجة التي نريد أن نصل إليها هي أن مصر ظفرت باللغة العربية بعد أن زادت فيها الألفاظ عن المعانى زيادة ظاهرة. وحين أرادت مصر أن يكون لها حظها السحرية صدرت فيها عن هذه القاعدة، وهي الإعتماد على الألفاظ

أكثر من الإعتماد على المعاني والأفكار؟

لست أدري بالضبط: لم بقيت السخرية المصرية إلى وقتنا هذا لفظية أكثر منها معنوية؟

ولعل من المفكرين والنقاد من يصل يومًا إلى الأسباب الحقيقية التي دعت إلى ذلك.

هذا كله فيما يتصل بالسخرية في الأدبين العربي والمصري.

أما الأدب الأوروبي فقد لاحظنا بوضوح كيف كانت السخرية فيه مبنية على الفكرة، بل أن الكتاب الأوروبيين لا يكادون يعرفون السخرية اللفظية كما نعرفها. ولذلك نجد نحن المصريين صعوبة في فهم النكتة الأوروبية، بل قد لا نحس ميلًا كبيرًا إليها، وإعجابًا عظيمًا بها. وأكبر الظن أن الذوق الأوروبي البحت لا يستسيغ كذلك النكتة المصرية بنوع أخص، لأنها نكتة لفظية أكثر منها معنوية.

ومهما يكن من شيء، فقد عرف الأدب الأوروبي ألفاظًا كثيرة يدل بها على معنى السخر ومن أهم هذه الألفاظ:

١- لفظ المزاح أو الهزل: Comique

٢- ولفظ الفكاهية أو التندر: Humour

٣- ولفظ التهكم أو اللذع: ironde

فأما النوع الأول - وهو المزاح أو الهزل - فالغاية منه دائمًا إثارة الضحك، وليس من غايته غالبًا الكشف عن حقيقة من حقائق النفس وهذا الهزل على ضربين: منه ما هو خفيف مقبول، ومنه ما هو ثقيل ليس إلى إحتماله من سبيل. ولعل هذا الضرب الأخير هو ما يسمى في الأدب الفرنسي

باسم: La grosse plaisanterir.

وهو أداة العوام في سخرهم، ووسيلتهم في ضحكهم وعبثهم ولهوهم ومرحهم، وهو لهذا لا يعتمد على علم أو ذكاء أو معرفة؛ لأن لغة الشعب نفسه لا تقوم على شيء من ذلك.

والشعب حين يلهو بشخص أو جماعة إنما يعتمد في لهوه على السذاجة والصراحة ويلقي في وجوه من يلهو بهم طائفة من النكات المكشوفة، ويرميهم بقوارس الكلم، لا يعتمد في ذلك على فطنة المثقفين، أو ذكاء المستنيرين، ولعل أدبنا العربي القديم كله من هذا النوع.

وأما النوع الثاني، وهو الفكاهة والتندر Humour فليس الغرض الأساسي منه الإضحاك، وإن جاء الإضحاك عن غير قصد من الكاتب أو الشاعر وهو إستعداد في الأديب الذي يفتقد الناس في شيء من التحفظ، أو هو قدرة هذا الأديب على كشف النفس البشرية من بعض جوانبها. ثم هو ضرب من الرثاء لأخطاء الفرد أو المجتمع، وطريقة للتنفيس عن الصدور التى شحنت غيظًا من الفرد أو المجتمع.

غير أن هذا النوع من السخرية لا يقوم على الغموض والإبهام وإنما يقوم على مهارة الأديب وذكائه وحضور بديهته، وغير ذلك من الأمور التي لا يحسن الشعب شيئًا منها.

ثم أن هذا النوع من السخرية كما يكون نقدًا للفرد أو للمجتمع، فإنه يكون كذلك نقدًا للفكرة أو الرأي أو المذهب، ومن الأمثلة على ذلك رواية (كانديد) لفولتير، كما رأينا، وروايات كل من (فيلدنج)، و (سويفت) وغيرهما.

ومن هذه الأمثلة المتقدمة نرى أن صاحب هذا النوع الثاني من أنواع

الفكاهة أو السخرية ضاحك لا بغير قصد، وان كان في ضحكه شيء من المرارة، مرح بغير قصد، وان أخفي وراء مرحه وهجا من نار البغض أو الزراية، ومن عادته أن يمنح جماعات الناس إبتسامة خفيفة، وهي في الوقت نفسه إبتسامة مخيفة، لأنها تؤذي أصحاب هذه الحماقات السخيفة التي أثارت صاحب السخرية.

وربما كان هذا النوع أيضًا من أرقى أنواع السخرية، لأنه أصعبها مالًا، وأدومها أثرًا، وأطولها بقاء، وأكثرها إعتمادًا على العلم والثقافة، وأقدرها على الإنتقال بالناس من الحقيقة إلى الخيال وصاحب هذا النوع من السخرية ليس هادئًا دائمًا، ولا باسمًا دائمًا، ولا مرحًا دائمًا، بل كثيرًا ما يكون عنيفًا وإن قدر على إخفاء هذا العنف.

ومع هذا وذاك، فإن هذا النوع الثاني من أنواع السخرية –وهو الفكاهة بطريق التندر، أدنى إلى الأذواق عامة، وأعلق بالنفوس عامة، وصاحبه محبوب من الناس كافة، لأنه يستطيع بإبتسامة هادئة أن ينال غرضين في وقت معًا: غرض النقد والرثاء، وغرض التسلية والإضحاك.

أما النوع الثالث والأخير، وهو التهكم أو اللذع Ironie ففيه تلاعب بالألفاظ، وفيه مبل إلى إستخدام التورية أو المواربة، وأسلوب الذم بما يشبه المدح، وغير ذلك من الأساليب المعروفة في علم البلاغة. ثم هو بعقول العلماء أشبه، وإلى نفوسهم أقرب ولذا يكثر هذا النوع من أنواع السخرية في عصور الأدب العقلي، كما سبق أن رأينا ذلك في الأدبين الإنجليزي والفرنسي في القرن الثامن عشر. كما يكثر في فترات الصراع السياسي، والصراع الفكري، لأنها فترات تتميز بالعنف وبالخوف الذي يبدو أحيانًا من جانب الأدباء، حرصًا منهم على حياتهم، أو ضنًا منهم بكرامتهم أن تداس بأقدام

الجبابرة وذوي البطش والسلطان ويقل هذا النوع الأخير حتى ليكاد يختفي في العصور التي يسيطر فيها الخيال أو العاطفة على الأدب، ولذلك لم يكن ملائمًا للأدب الرومانتي في إنجلتره وفرنسا في القرن التاسع عشر.

أما في الأدب العربي فقد شعاع هذا النوع الأخير، وهو اللذع والتهكم بطريق التورية والمواربة ونحو ذلك، وذاع بين الخاصة والعامة، ولكنه إتخذ لنفسه عند هؤلاء لونًا مخالفًا للون الذي إتخذه عند أولئك، ومن أجل ذلك نرى التهكم عند الخاصة مبنيًا على الرمز، كما جاء في كتاب كليلة ودمنة. ولكنا نرى التهكم أو اللذع عند العامة قد إعتمد من أوله إلى آخره على مجرد اللفظ، وخاصة ما كان على شكل تورية كما قلنا، والتورية في ذاتها لفظ له معنيان: أحدهما قريب، والآخر بعيد. والساخر العامي حين يختار ألفاظًا من هذا النوع يحمل في يده وثيقة الخلاص من المأزق الذي يقع فيه، أو الورطة التي ربما ينزلق إليها.

لذلك وجدنا هذا النوع الأخير من أنواع السخرية، بشكله العامي، يكثر كثرة هائلة في الأدب المصري، لأمور كثيرة أوضحنا بعضها، وربما كشف لنا فيما بعد عما بقي منها.

نوع سخرية ابن مماتي

مما استعرضناه من تاريخ السخرية في الآداب العربية والمصرية والأوروبية وألوان الإضحاك فيها، نستطيع أن نلاحظ بوضوح أن هناك فرقًا بين طرق الإضحاك عند الخاصة وطرق الإضحاك عند العامة. كما نستطيع أن نلاحظ بوضوح أن الغرض من الإضحاك عند هؤلاء مخالف كل المخالفة للغرض عند أولئك.

أما الإضحاك عند العامة فطريقة الهزل والتفكه والتنكيت أو التبكيت، وهو ما يسمى في العامية بالتنبيط، وغايته تزجية الفراغ، وملء الوقت بالفرح أو المرح، والضحك من حيث هو ولذلك نرى النكتة العامية كثيرًا ما تكون لفظية أكثر منها معنوية، وتكون في الوقت نفسه قصيرة المدى إلى حد بعيد، فهي أشبه بالصواريخ والعاب الكبريت عند الأطفال، تسطع سريعًا، وتخبو سريعًا، ولا يكون لها أثر أبعد من هذا المدى.

ومن هذا القبيل نوادر الحمقى والمجانين، وحوادث المغفلين. ومنه ما أشرنا إليه من قبل وهو التنبيط ومنه كذلك النكات العامية التي تسمى بالقافية ولا شك أن النوع الأوسط من هذه الأنواع، وهو التنكيت والتبكيت أو التنبيط هو أبرع الأنواع الثلاثة المتقدمة، وأعلاها قصدًا، وأدناها إلى الفائدة فضلًا عن تزجية أوقات الفراغ بمجرد الهزل أو الضحك.

أما سخرية الخاصة فإنها تبنى على العقل والفطنة، وتقوم على الثقافة وسعة العلم، وتهدف الى أعراض بعيدة تتصل بالمجتمع، وما فيه من

المبـادىءء الفاسـدة، أو الهيئـات المسـيطرة، أو الطبقـات المنحرفـة، أو الشخصيات البارزة، ونحو ذلك. وأن السخرية التي تصدر عن الجاحظ وأبي العلاء في الأدب العربي، والسخرية التي تصدر عن موليير وبرنارد شو في الأدب الأوروبي، لأعظم دليل على ما نقول. وإنك لتجد في تهكم هؤلاء لذة العقل، ولذة السمع، ولذة البصر جميعًا.

والسخرية التي تصدر عن الخاصة، وإن بدت أقل إضحاكًا فإنها أطول تـأثيرًا وأقـوى سـلطانًا علـى المجتمعـات والأفـراد. وهـي لهـذه الخصـال ولإعتمادها على العلم والثقافة، ولصلتها بالنفس الإنسانية، والغرائز البشرية والأخلاق الفردية والجماعية، يكون لها نوع من الخلود والبقاء الذي يشبه خلود الأدب نفسه والفن ذاته.

فبينما تقتصر العامة في نقدها وضحكها على مجرد القذف والسباب وقلة الإحتياط في إرسال الكلام، اللهم إلا في عصور الظلم والعسف ونحو ذلك ، وبينما نرى العامة لا تراعي للأذواق المهذبة قدرًا، ولا لقواعد الأخلاق وزنًا، فتخرج في كثير من الأحيان عن حدود الآداب المرعية، وتسف في اللفظ إلى حد ذكر العورات ونحو ذلك – نقول بينما نرى العامة في ضحكهم وفكاهاتهم يفعلون كل ذلك، ويضحكون ضحكات عالية من كل ذلك إذ بنا نرى الخاصة من الناس، وهم المثقفون من الشعراء والكتاب والأدباء ونحوهم يعتمدون على الرمز، لا يسفون إسفافًا ظاهرًا في اللفظ، ولا ينتهكون إنتهاكًا ظاهرًا حرمة الأدب والأخلاق، ويغيثهم في كل ذلك طائفة كبيرة من الوسائل الأدبية واللغوية لا يستطيع العامة أن يظفروا بشيء منها.

ومن ثم تنوعت طرق (السخرية) عند الخاصة أكثر مما تنوعت طرق (الهزل أو الضحك) عند العامة. ولعل القاريء: يلاحظ أننا سمينا ضحك

الخاصة بإسم (السخرية)، ويصح أن يكون بين أسمائه كذلك (التهكم) في حين أننا سمينا ضحك العامة بإسم (الهزل) ويصح أن يسمى أيضًا بالمزاح).

فمن طرق السرية عند الخاصة على سبيل المثال: (طريقة البتالة وإظهار الحمق أو الجنون) كما كان الشأن مع سيبويه المصري الذي ظهر في أواخر العصر الطولوني، وأوائل العصر الأخشيدي. وكانت سخريته من رجال العصرين سخرية مرة أخافتهم وأزعجتهم وجعلتهم يتنافسون في تقريبه والتحبب إليه.

ومنها (طريقة التساؤل والتغابي وتوجيه الأسئلة المحرجة على سبيل التعجيز)، كما كان الشأن مع الجاحظ حين وجه لغريمه في رسالة (التربيع والتدوير) مائة سؤال أو تزيد، وهو يعلم أن الإجابة عنها مستحيلة أو كالمستحيلة، ولكن الجاحظ أراد بهذه الأسئلة الكثيرة أن يعبث بغريمه، كما يعبث القط بالفأر، وأراد أن يشعره بالجهل أو العجز، وأن يبينه للناس على هذه الصورة التي تبعث على الضحك.

فمن هذه الأسئلة التي وجهها الجاحظ إلى غريمه المتعالم:

حدثني كيف رأيت الطوفان؟ ومتى كان سيل العرم؟

ومتى تبلبلت الألسن؟

وما حبس غراب نوح؟

وكم لبثتم في السفينة؟

ومنذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء؟

وأي هذه الأودية أقدم: أنهر النيل؟ أم نهر دجلة؟ أم سيحون وجيحون؟

وكذلك فعل أهل مصر ببعض خلفاء الدولة الفاطمية حين دفعوا إليهم

الأوراق وألقوا بها على المنبر، وسألوهم فيها أن يخبروهم عن أسماء كاتبيها إلخ..

ومنها - أي من طرق السخرية عند الخاصة- (طريقة المحاكمات الحيالية)، كما كان الشأن مع المعري في رسالة الغفران، حين أخذ يحاكم الشعراء والأدباء وأصحاب الكلام، ويغمز كلًا منهم بما إرتكب من خطأ إستحق عليه النار، أو يذكر له بعض الحسنات التي شفعت له فدخل الجنة. وفي هذه المحاكمات -فضلًا عن كل ما تقدم- ضروب من التشكك في الأديان قصد إليها الشاعر الفيلسوف، وأشبع بها رغبته في حرية التفكير.

ومنها -أي من هذه الطرق المتقدمة (طريقة الرؤى والأحلام، وكتابة الرسائل، وإجراء الأحاديث على ألسنة الحيوان) كما كان الشأن مع الوهراني في رسائله التي أشرنا إليها، وكما كان الشأن مع كاتب إسلامي قديم، هو ابن المقفع في كتابه كليلة ودمنة.

ومنها (طريقة الملهاة أو الرواية المضحكة) وهي ما حرم منه الأدب العربي بإستثناء تلك المحاولة الضعيفة التي أشرنا إليها، وهي محاولة خيال الظل. أما الأدب الأوروبي فقد إعتمد إعتمادًا تامًا على هذه الطريقة، وبخاصة عند كاتبين كبيرين هما (موليير) في فرنسا، و(برنارد شو) في إنجلترة وعن الأدب الأوروبي أخذنا نحن هذا اللون الزاهي من ألوان السخرية.

تلك إذن بعض ألوان السخرية عند الخاصة، وقد أشرنا من قبل إلى بعض ألوان الهزل أو الفكاهة والدعابة عند العامة. فمن أي النوعين الرئيسيين السابقين يمكن أن تكون سخرية الأسعد بن مماتي في كتابه (الفاشوش في حكم قراقوش)؟

إن الناظر في الحكايات الصغيرة التي إشتمل عليها كتاب ابن مماتييرى لأول وهلة – إنها شبيهة بنوادر الحمقى والمغفلين وهي النوادر التي غصت بها كتب الأدب العربي، وسنضرب لها

– أولًا– هذه الأمثلة:

قيل أن أحد المغفلين سأل مغفلًا آخر:

–كم في هذا الشهر من يوم؟

فنظر إليه وقال:

– لست والله من أهل هذه المدينة!

وسمع أحد المغفلين أن صوم يوم عرفة يعدل صوم ستة كاملة، فصام إلى الظهر وقال:

– يكفيني ستة أشهر..!

وجاء جماعة إلى رجل مغفل يسألونه في كفن لجارية لهم ماتت.

فقال لهم:

– ما عندي الآن شيء، ولكن عاودوني في وقت آخر.

قالوا: أفنملحها إلى أن يتيسر عندك شيء؟

وحكي عن لص مغفل أنه تسور بيتًا فوجد رجلًا وزوجته وهي تقول له:

– من أين اكتسبت هذا المال الكثير؟

فقال لها:

- كنت لصًا وكنت إذا تسورت منزلًا صبرت إلى أن يطلع الفجر. فإذا طلع اعتنقت الضوء الذي في (المنور)، وتدليت بلا حبل، وقلت: شولم! شولم! ونزلت، فأخذت جميع ما في البيت، ولاتبقى ذخيرة من الذخائر إلا ظهرت لي. ثم أقول: شولم! شولم! وأصعد في الضوء. فلا ينتبه أحد من أهل البيت. وإذهب بلا تعب ولا كلفة.

فسمع اللص المغفل ذلك وصبر إلى أن طلع الفجر، ونام أهل البيت، فتعلق في ضوء المنور فوقع وتكسرت أضلاعه فقام إليه صاحب البيت وقبض عليه وسلمه إلى صاحب الشرطة.

إن الناظر في حكايات ابن مماتيفي كتابه الفاشوش يراها من هذا النوع الذي ذكرت الآن طرفًا منه وهو نوادر المغفلين والحمقى وإذا تبين له ذلك تبادر إلى ذهنه أن أدب ابن مماتيهو من هذا الضرب الذي سميناه باسم الهزل أو الفكاهة، وقلنا أنه لا يصدر – غالبًا – إلا عن العامة الذين لا هم لهم إلا تزجية أوقات الفراغ بمثل ذلك.

ولكن نظرة أخرى إلى كتاب الفاشوش تدلنا دلالة صريحة على أن هذه النوادر الصغيرة لم تكن من محفوظ العامة قبل أن تظهر في كتاب ابن مماتي. وإنما هي من تأليفه على غرار النوادر التي حفظها الناس إلى عهد ابن مماتي، وهي فوق تأليفها على يد هذا الكاتب ذات غرض معين تهدف إليه، ومقصود بها شخص معين يراد النيل منه والسخرية به.

أما الغرض المعين هنا فهو التشنيع والعبث بحقيقة شخص من عظماء التاريخ، ومسخ صورته في أذهان الخاصة والعامة مسخًا تامًا، والمقصود بكل هذا المسخ والتشنيع هو الأمير بهاء الدين قراقوش صاحب الأعمال العظيمة

في التاريخ الأيوبي ولا شك أن الطريقة التي إستخدمت لهذا الغرض من أغراض هذه السخرية تقربها تقريبًا تامًا من سخرية الخاصة.

ذلك أن القصد إلى التأليف بطريقة معينة، ولهدف معين، واضح تمام الوضوح في نوادر الفاشوش من أولها إلى آخرها. وأكبر الظن أن ذهن ابن مماتى كان مشحونًا بالكثير جدًا من نوادر الحمقى والمجانين والمغفلين وأمثالهم، على نحو ما يشحن بعض الظرفاء من الناس أذهانهم بأكبر عدد ممكن من النكات في أيامنا هذه. ومتى امتلأ ذهن الرجل منهم بمثل ذلك سهل عليه أن يصوغ الكثير منه على مثاله.

وأكبر ظني أن الأسعد بن مماتي حين عمد إلى وضع كتابه لم يصنع أكثر من ذلك. ومن ثم جاءت نوادره بعيدة في جملتها –كما قلنا – عن حقيقة الأمير قراقوش ولكنها نجحت نجاحًا منقطع النظير في تشويه صورته التي عرفها التاريخ الصحيح.

والتاريخ الصحيح لم يذكر أكثر من أن قراقوش كان رجلًا عسكري الطبع، لا يعرف اللين ولا يحب الكسل أو التراخي في الأمور، وأنه كان شديدًا على القاهريين حين إحتاج إلى بعضهم للعمل مع الأسرى في بناء الأسوار والحصون.

وكان قراقوش إذا لمح من بعيد رجلًا قاهريًا ذاهبًا في الصباح إلى عمله الذي يكسب منه القوت، hستوقفه وأرغمه على العمل معه، ثم أعطاه أجره على هذا العمل الذي أتمه، فيأخذ العامل هذا الأجر وهو يتميز في الوقت نفسه من الغيظ!

وعلى هذا فقد جمع اين مماتي، في كتابه الفاشوش، بين طريقة العامة

وطريقة الخاصة ولذلك راج كتابه بين هؤلاء وأولئك رواجًا عظيمًا، وبلغ من ذلك حظًا لم تبلغه السخرية قديمًا أو حديثًا.

وبمرور الزمن أصبح اسم قراقوش رمزًا للبله، والعته، والغفلة، والجنون وما شئت من صفات الغرابة والشذوذ.

وأكبر الظن أن كلمة كراكوز التي تسمع في تركيا وتسمع في الشام، وتطلق هناك على خيال الظل إنما ترجع في أصلها إلى اسم قراقوش فقد حورت هناك بإسم كراكوز وحورت في مصر بإسم أراجوز ودلت في جميع البينات الإسلامية على هذا المعنى.

وأي دليل أكبر من هذا على أن نجاح ابن مماتي في سخريته؟

إن عبقرية ذلك الكاتب المصري القبطي الأصيل، تقوم على قدرته العجيبة على إرضاء الخاصة والعامة، وعلى الأخذ من هؤلاء وهؤلاء، وعلى إختيار طريقة للتشنيع تقوم على تأليف النوادر المضحكة التي تصلح كل نادرة منها لأن تكون رسمًا كاريكاتوريًا من أشد الرسوم نكاية في عدو، وأكثرها إيلامًا لخصم وأدعاها للضحك منه إلى أطول مدة ممكنة!

ولو عاش مثل هذا الكاتب القبطي في عصر كعصرنا هذا لكان صاحب مجلة أو صحيفة هزلية تزري بصحف يعقوب بن صنوع التي ذكرنا منها صحيفة أبي نظارة، وأبي زمارة، وأبي صفارة، ونحوها، كما تزري بصحف حديثة كحمارة منيتي، والكشكول ونحوهما.

ولا شك أن القدرة على الإضحاك موهبة من مواهب الله تعالى.. وهي من الأسلحة القوية في هدم المباديء الفاسدة والدعوة لإقامة المباديء الصالحة.. فليتق الله والوطن أصحاب هذه المواهب الممتازة، فإنهم مسئولون عنها، ومحاسبون عليها.

وبعد، فلك أيها الأمير المظلوم – بهاء الدين قراقوش – أن تتأوه في قبرك، أو تتألم في مرقدك، وأن تشكو هذا الظلم الذي وقع عليك إلى خالقك ولكنك لن تستطيع أن تغير هذه الحقيقة وهي أن لك في أذهان الناس صورة مخالفة لصورتك، وأن هذه الصورة الشوهاء خالدة خلود الزمان، باقية بقاء الإنسان. وكل ما في الأمر أنك تستطيع –إن أردت– أن تردد في قبرك هذين البيتين:

لـــي حيـــــــلة فـــيمن يـــنم وليس في الكذاب حيلة

مـــن كـــان يخلـــق مـــا يقـــو ل فحيلتـــي فيـــه قليـــــــلة!

انتهى



الفهرس